الدكتور عيسى عبده
أحمد إسماعيل يحيى

حقيقة الإنسان

الكتاب الثاني



Bibliotheca Alexandrina
0020097

دار المعارف

الدكتور عيسى عبده
أحمد إسماعيل يحيى

حقيقة الإنسان

الكتاب الثانى

" وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى "

قرآن كريم

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)

(٨٥ / الإسراء)

والروح أرضية فى رأى طائفة ... وعند قوم ترقّى فى السماوات
تمضى إلى هيئة الشخص الذى سكنت ... فيه إلى دار نعمى أو شقاوات
وكونها فى صفيح الجسم أحوجها ... إلى ملابس عنّتها وأقوات

(المعرى)

مقدمة

الإنسان : ذلك العالم الخفى

يحقق العقل فى كل يوم وثبة رائعة من وثباته العلمية .. ففى عصرنا هذا .. أصبحنا نلمس ونرى أن ما كنا نعتبره منذ سنوات قليلة مضت ، محض خيال كاتب ، أو مجرد تصورات فنان ، أو حتى أوهام إنسان مجنون ، قد أضحى حقيقة تطوف فوق رءوسنا ، كسفن الفضاء أو تنقل إلينا العالم فى مساكننا كالتليفزيون الملون ، أو تقتحم أجسامنا كعدسات التصوير الطبية ، التى أصبحت من الدقة والرقة بحيث يمكنها أن تنقل للطبيب صورة عن الأعضاء والأمعاء من داخل الإنسان وبغير جراحة ... وهى وثبات سريعة لم يصل الإنسان إلى مثلها خلال أحقاب طويلة من تاريخه الحضارى . لكن هذه الوثبات بدلا من أن تحقق للإنسان الرضا بما لديه أو القناعة العلمية .. فإنها زادت شهوة عقله سعاراً إلى المعرفة ، وشجعته على محاولة اقتحام المجهول فى ميادين عديدة جديدة .. فهو لا يقنط ، بل يحاول فى كل يوم أن يتخطى الحواجز وأن يفك الطلاسم ، يدفعه إلى ذلك ما رُكّب فيه من استعداد للمعرفة ، وما فُطر عليه من حب الاستطلاع ، ذلك برغم درايته بوعورة المسالك وبُعْد المدارك .

والإنسان فى سعيه الدائب للمعرفة يطرق بفكره كل باب .. حتى عَنَّ له أن يطرق ذلك الباب الذى ينفتح على ذات الإنسان بجسمه وروحه وعقله ونفسه ،

لم يثنه عن عزمه علمه أن الإنسان ليس أحد الأشياء التى يمكن القول بسهولة أنها مما يقع تحت أيدينا أو مما تتناول مداركنا أغواره ، ولم يوهن من إرادته أنه حتى لو وقع الإنسان تحت يدنا .. فإن اليد لا يمكنها إلا الإمساك بالجلّ دون الكُلّ ، ولم يلجئه إلى القنوط قول البعض :

« إن منتهى العلم بالإنسان ، هو أن نعترف بجهلنا به وعجزنا عن معرفته ، ويكفى القول أننا حين عجزنا ، فإنَّما عَجَزْنَا عن دراسة (خليفة الله فى أرضه) » .

ونحن لسنا مع من يدفعه غروره العلمى إلى القول بأنه قد أحاط بكل شىء عن الإنسان علماً ، أو أنه قد أحصى شرايينه وخلاياه عدًّا .. كذلك فإننا لسنا مع من يقعدون عن البحث عجزاً وعيًّا .. أو من ينادون بأن الإنسان لابد وأن يبقى عالَماً مجهولاً لا يصح ارتياده .. وهو ما يخالف تماماً ما ينادى به علماء الغرب الذين حاولوا وما زالوا يحاولون إدخال الروح البشرية تحت سلطان تصرفهم المادى بتجارب يتخيلون بها إمكان استحضار الروح ومخاطبتها . بل تصويرها .

وفى رأينا : أن الإنسان قضية من أعظم القضايا .. وأنه على قدر عظمتها ينبغى أن يكون الجهد المبذول لمعرفتها عظيماً ، ، وإلا كان نصيبنا من المعرفة متواضعاً على قدر جهدنا المتواضع .. فبديهى أن من يكتفى بإلقاء شباكه على الشاطئ لا يعود إلا بالمحار والأصداف ، أما الذى يغوص فى الأعماق فلابد أن يكون غالى الدرّ واللآلئ ، صيده .

القضية إذن عظيمة وعميقة ولابد للباحث عن معرفتها أن يسعى وأن يجهد عقله .. برغم أنه قد يصيب من عنائه الجُلّ لا الكُلّ .. وما الجُلّ فى معرفة الإنسان بالشىء القليل ، ولأننا نعرف ذلك يقيناً ، فإننا نبدأ رحلتنا فى هذا

الكتاب يصاحبنا إيماننا بأن الله لا يساوى بين الباحثين والقاعدين ، أو بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون ..

وفى هذا نقتدى بسلفنا الصالح ، الذين طالما شمروا عن سواعد البحث والمعرفة وتحملوا جسيم المشاق ومُضْنى الجهد ، يخوضون حتى الأعماق فى كل موضوع يرونه جديراً بالدراسة .. يجتهدون بغير ملل ، ويواصلون الليل بالنهار دون كلل ، حتى يفتحوا لنا من العلم باباً جديداً .

وإذا كانت دراسة الإنسان مضنية فإن جانب الروح هو أكثر الجوانب فيه غموضاً وأشدها خفاء .. برغم أنه فى ذات الوقت أكثر الجوانب إغراء بدراسته ومعرفته .. وحتى هذا الجانب لم يهمله السلف الصالح أو يتناساه العلماء .. بل إنهم رحمهم الله ، قد تركوا لنا فى نفيس مخطوطاتهم ومفيد كتبهم ما يبهرنا ، حتى اليوم ولسنوات قادمة بسبق المعرفة وحسن العرض والمعالجة .

ومن بين الكتب على سبيل المثال رسالة[1] للإمام جلال الدين الدّوانى تستحق كل اعتبار وفى مقدمتها يقول الشيخ محمد زاهد الكوثرى (وكيل المشيخة الإسلامية فى الخلافة العثمانية) :

وغاية عِلْمنا .. أن حقيقة الإنسان لها ناحيتان :

ناحية الهيكل الجسمانى : وهو بطبعه يتهافت على الملذاتْ السفلية .

وناحية الروح : وهى لطيفة ربانية نزّاعة إلى المعالى .

وتعجز أكثر العقول عن إدراك حقيقة الروح .. ذلك الأمر الربانى

---

(١) رسالة مخطوطة بعنوان « حقيقة الإنسان والروح الجوال فى العالم ، للإمام العلامة جلال الدين محمد بن سعد الدين أسعد الصديق الدوانى المتوفى سنة ٩٠٨ هـ ، وقد عرف الكتاب وترجم للمؤلف وعلق عليه مولانا الأستاذ المحقق الكبير محمد زاهد بن الحسن الكوثرى وكيل المشيخة الإسلامية فى الخلافة العثمانية سابقاً .

العجيب .. وللروح والنفس والعقل إطلاقات فى اصطلاحات أهل العلم قد تتلاقى وقد تتفارق .. وقد عنى الغزالى فى عجائب القلب بشرح تلك الاصطلاحات، كما عنى بها الفارابى وابن سينا وابن رشد والرازى وغيرهم.

ويتدرج بنو الإنسان فى منازل متفاوتة فى صلتهم بالناحيتين فمن تغلب عليه الانهماك فى ملاذه الجسدية فهو ملحق بالأنعام. قال الله تعالى : (أولئك كالأنعام بل هم أضل) .

ومن خلص من سلطان الملاذّ الجسدية وغلب عليه جانب تلك اللطيفة الرّبانية ، فهو ملحق بالملائكة على مدارج متصاعدة ، ومن تجاذبه الجانبان من غير أن يتغلب فيه أحد الجانبين على الآخر ، فهو المجاهد لنفسه وقد خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً ..

وتمضى بنا الرسالة أو نمضى معها لنتعلم منها الكثير والكثير .. وسوف نعرض عليك الرسالة كاملة فى الباب الثانى من هذا الكتاب .. لنؤكد بها رأينا فى سبق معرفة علماء السلف وحسن معالجتهم ، وقد اختلف أهل العلم فى تعريف الروح .. وهل هو جسم لطيف يحل فى الجسم الكثيف الإنسانى . — وهو مذهب الجمهور — أو هو جوهر لا مكانى مجرد لا يوصف بالحلول والدخول ، ولا بالخروج والانفصال بل يوصف بالتعلق .. تعلق تدبير .. والناس فى تفهم ذلك على أنحاء :

فالعامى لا يتصور موجوداً كهذا .. **أما الخاصة** فلا ينكرونه وإن دقت مداركه ، ولهم فى تجرد الروح أدلة ليس الجمهور على قبولها .

وممن مال إلى تجرد الروح : أبو منصور الماتريدى ، والحليمى (صاحب شعب الإيمان) ، والراغب الأصفهانى ، والغزالى ، والرازى ، والبيضاوى ، وغيرهم من صفوة علماء المسلمين المجتهدين .. كذا البطليوسى فى الحدائق ..

نفعنا الله بعلمهم آمين ..

ولكننا فى هذا الكتاب سوف لا نقتصر على رأى العلماء فقط .. وسوف ترى كلما ارتحلت مع الصفحات كيف كان الجهد عظيماً .. وأن ما أنجزناه فى الكتاب كان بعون الله وتوفيقه لا بهمة الإنسان وذكائه.

فإن أصبنا فمن عند الله وإن أخطأنا فمن عند أنفسنا .. والله هو الموفق .

المؤلفان

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

ليس بين المسائل مسألة معضلة شغلت الإنسان منذ فجر التاريخ ، وستظل تشغله حتى ما بعد الآن .. مثل مسألة الروح .. والإنسان لا يفتأ فى كل يوم يحاول أن يمسك بخيوط معرفتها ، بكل الوسائل والأدوات ، وبكل الحواس وعيون النظر .. يعمل آناء الليل وأطراف النهار جاهداً أن يلحق بها ، كما لحق بغيرها ممَّا كان مغيَّباً عنه ، فأصبح ملك يديه مسخرا له كيف شاء ، كتسخير الفضاء ، والاستفادة من الكهرباء .. ولكن ما هكذا أمره مع الروح .. فما بال هذه المسألة تزداد فى كل يوم غموضاً عليه ؟ ؟ وما باله كلما ظن أنه ظفر بها أو حتى اقترب منها أفاق من وهمه ، فإذا هو حيث كان وإذا هِيَ تُحملق فيه متحدّيةً ؟ تؤكد له أن القرآن الكريم قد وصفها بأنها ليست مما يقع تحت يد الإنسان كغيرها ، بل هى جوهر من أمر الله لا من أمر البشر.. وأن علم الإنسان بها مهما عظم فهو قليل ، حتى سئل الرسول ﷺ عن الروح تحدِّياً له ، وإرهاقاً من مَاكِرِى اليهود فقال لهم أخبركم غداً .. حتى جاءه الوحى بعد مدة ليعلمه الآية : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

فلو أن الروح كان من الأمور السهلة ، لما كان أحد الأسئلة المتحدية للرسول

من ماكرى المشركين اليهود « مع ضرورة علمنا أن اليهود ماكانوا ليسلموا ، حتى لو كشف الله لرسوله ، ﷺ ، عن أسرار الروح » .

ولكن هذا الغموض طالما دفع العلماء والباحثين أكثر مما أيأسهم .. إلى استِكْناه حقيقة الروح .. وذلك لسبق علمهم أن الله ، سبحانه وتعالى ، قد كلف المؤمنين من عباده باستمرار البحث والنظر والمعرفة .. كذلك هم يعلمون أن كل علم لديهم مهما تفرعت أصوله وتشعبت فروعه ، هو على كثرته قليل إذا ما فكرنا فى مقارنته بعلم الله .. فسبحان العلاّم المحيط بكل شىء .

ومن هنا نجدهم وقد أمسكوا بعصا التقوى يستدلون بها على طريق معرفة الروح .. (اتقوا الله ويعلمكم الله) وكلما تزودوا بالتقوى علّمهم الله من علمه ما لم يكونوا يعلمون .

وفى موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية[1] :

« اختلفوا فى المراد من الروح المذكور فى قوله تعالى : (قل الروح من أمر ربى) على أقوال : فقيل : المراد به – ما هو سبب الحياة – وقيل : القرآن . يدل عليه قوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) . وأيضا فبالقرآن تحصيل حياة الأرواح وهى معرفة الله تعالى . وقيل : جبرائيل . لقوله : (نزل به الروح الأمين . على قلبك) وقيل : ملك من ملكوت السموات هو أعظمهم قدراً وقوة ، وهو المراد من قوله تعالى : (يوم يقوم الروح والملائكة صفًّا) ... كذا فى التفسير الكبير للرازى.

وقيل : الروح خلق ليسوا بالملائكة على صورة بنى آدم يأكلون ، ولهم أيد

(١) المعروف بكشاف اصطلاحات الفنون للشيخ المولوى محمد أعلى بن على التهانوى المتوفى فى القرن الثانى عشر الهجرى جزء ٢ – خياط – بيروت . ص ٥٤٥ وما بعدها .

وأرجل ورءوس وهم يشبهون الناس وليسوا منهم ، قالها أبو صالح ، قال الإمام الرازى فى التفسير الكبير ، ولم أجد فى القرآن ولا فى الأخبار الصحيحة شيئاً يمكن التمسك به فى إثبات هذا القول ، وأيضاً فهذا شىء مجهول فيبعد صرف هذا السؤال إليه .

قال صاحب الإنسان الكامل : الملك المسمى بالروح هو المسمّى فى اصطلاح الصوفيّة بالحق المخلوق به ، والحقيقة المحمدية نظر الله تعالى إلى هذا الملك بما نظر به نفسه ، فخلقه من نوره ، وخلق العالم منه ، وجعله محل نظره من العالم ، ومن أسمائه أمر الله .. هو أشرف الموجودات وأعلاها مكانة وأسماها منزلة ، ليس فوقه ملك هو سيد المرسلين وأفضل المكرمين .

اعلم أن الله تعالى خلق هذا المُلك مرآة لذاته ، لا يظهر الله تعالى بذاته إلا فى هذا الملك ، وظهوره فى جميع المخلوقات إنما هو بصفاته ، فهو قطب الدنيا والآخرة ، وأهل الجنة والنار والأعراف ، اقتضت الحقيقة الإلهية فى علم الله سبحانه ، ألا يخلق شيئاً إلاَّ ولهذا الملك فيه وجه ، يدور ذلك المخلوق على وجهه ، فهو قطبه ، لا يتعرف هذا الملك إلى أحد من خلق ا لله إلا للإنسان الكامل ، فإذا عرفه الولى علّمه أشياء ، فإذا تحقق بها صار قطباً تدور عليه رحى الوجود جميعه ، وهو قائم فى عبوديته الحق متصرف فى تلك الحضرة الإلهية بما أمره الله به .. » انتهى ما جاء فى الموسوعة .

وهكذا .. وهكذا .. نجد التعريفات شتى والتفاسير كثيرة .. فالأمر ليس من السهولة بمكان كما قد يظن البعض .

لذا يعود الإنسان ليسأل من جديد .. ما الروح .. ؟ وكيف بدأت الفكرة .. عند الإنسان البدائى .. والفراعنة وفلاسفة الإغريق والرومان

والهندوس وغيرهم .. وما الروح فى الموسوية والنصرانية وعند العرب والمسلمين وفى فكر المتصوفة ؟

هل هو جسم[٢] متحيز ؟ وأين ؟ هل هو لطيفة ربّانية ؟ وكيف ؟ هل الروح قديمة أو محدثة ؟ وهل هى متعلقة بالبدن ؟ وما مراحل هذا التعلق ؟ وهل تموت الروح ؟ وما مستقر الأرواح ؟

وقبل ذلك كله .. ما مفهوم الروح فى اللغة العربية ؟ وما حديث القرآن عنها ؟ وهل الروح والنفس شىء واحد ؟ أولا ؟ وما الفرق بينهما ؟ وهل الروح تسبق خلق البدن أو أن البدن يخلق قبلها ؟ ..

وكلّما فرغنا من الإجابة عن سؤال .. انبرى لنا سؤال جديد متحدّياً ومعجزاً ..

فماذا عن الروح فى الفكر المعاصر؟ وما مدى الاهتمام بالنشاط الروحى ؟ وهل يمكن وضع الروح تحت ميكروسكوب الطب ؟؟

وما هو الروح القدس ؟ وما صلة الروح بالمعجزات والكرامات والرؤيا ؟ وكذا ما صلتها بالسحر والحسد والتنجيم وعلم اليازرجة والإيحاء والتنويم المغناطيسى ؟

---

(٢) الروح يذكر ويؤنث (مختار الصحاح).

عزيزى القارئ :

هذه بعض الأسئلة التى يجيب عليها هذا الكتاب .. ولسنا نريد أن نزيد حتى لا نثقل عليك .. فأولى بنا الآن أن نصافحك ، لتنفرد بهذا الحصاد الذى أجهدنا جمعه وتلخيصه وإعادة تبويبه وترتيبه وتحقيقه ومراجعته .. لنهديه فى النهاية إليك .

هذا وبالله التوفيق ..

القاهرة فى ٩ / ١ / ١٩٨١ م

د . عيسى عبده

أحمد إسماعيل يحى

البَابُ الأول

فكرة الروح منذ فجر التاريخ

عجالة عن الروح عند الأقدمين[1]

تمهيـــد

الإيمان بالروح قديم قِدَمَ الإنسان ، بما فى ذلك الاعتقاد بخلودها وبالثواب والعقاب ، وكلما تتبع الباحثون تاريخ المجتمعات البشرية وجدوا الإيمان واضحاً بهذا الخلود ، بل وجدوا علامات كثيرة من التشابه فى وصف الحياة الآخرة وربطها بالحياة الدنيا . ومن الاعتقاد بأن هذه الحياة الآخرة فيها كل مظاهر الحياة الدنيا ، مع تفاوت كبير فى ظروف السعادة أو الشقاء . فذلك هو ما التقت عنده معتقدات الأقدمين وأساطيرهم وأشعارهم فى شتى الحضارات المندثرة ، وعند من يعرفون كيف أن الإلهام قد يوجه الحياة فى كافة مستوياتها ، وكيف أن عقول العباقرة والفلاسفة والشعراء كثيراً ما تكون هى (أجهزة الاستقبال) لهذا الإلهام الكونى العام ، ويبدو مفهوماً أمر تشابه المعتقدات المختلفة عند شتى شعوب الأرض فى شأن طبيعة الحياة الأخرى ، لا فى شأن التسليم بها فحسب .

وفى هذا الشأن يقرر الأستاذ الدكتور حسن عثمان فى ترجمته العربية ، لكوميديا الشاعر دانتى أليجيرى عن « الجحيم » لم يكن دانتى بطبيعة الحال أول من تناول فى « الكوميديا » عالم ما بعد الحياة ، ولقد تناولت ثقافة البشر هذه الناحية منذ أقدم العصور ، من سيبيريا إلى الهند وبابل ومصر وسوريا وفارس

---

(١) الإنسان روح لا جسد للدكتور رءوف عبيد .

واليونان وروما وإسكندناوة وأيرلندة والأندلس .

نجد مثلا **المصريين** القدماء قد عرفوا فى ديانتهم الجحيم المظلم بما يحتويه من ألوان العذاب ، وتصوروا الفردوس بما فيه من أنواع النعيم والسعادة الأبدية ، وعندهم أوزيريس يزن أعمال الناس ، ويدفع بهم إلى الجزاء العادل . وفى ديانة **البابليين** تهبط عشتروت إلى الجحيم حيث عذاب الزمهرير والجوع والعطش والبرص ، لتبعث تاموز إلى الحياة . وعند **اليهود** أرض الظلام التى تقع تحت الأرض ، وتتلقى الأخيار والأشرار على السواء . وفى ديانة **الفرس** جحيم ومطهر وفردوس ، والإنسان ميدان معركة بين (أهورا ما زاد) إله الخير و « أهريمان » ملك الظلمات والعالم السفلى . وفى ديانة **الهند** يهبط يودهيشتيرا إلى الجحيم ، حيث رائحة الإثم والجثث والديدان والهوام والطيور والكواسر وأمواج اللهب ، ويصعد البطل أرجنا إلى السماء مأوى المؤمنين حيث الأزهار الجميلة ، والغوانى تحت الأشجار الخضراء ، والأنغام السماوية ، ويصل البطل محاطاً بالملائكة وصفوة البراهمة إلى حضرة رب الأرباب . وعند **الإغريق** يذكر هوميروس فى الإلياذة عالم الموتى والأبالسة وأنهار الجحيم وأبواب السماء ونعيم الفردوس . ويتكلم فى الأدويسية عن زيارة أوليسيس للعالم السفلى وحديثه مع أشباح الموتى . وتحتوى ثقافة **الأوترسكيين** على عالم ما بعد الحياة ، وما يشمله من الشياطين والرعب والفزع . وبعض رسوم مقابرهم تعتبر كمقدمات لجحيم دانتى .... »[٢] .

وهكذا يصدق على إيمان مواكب الشعوب بالروح وبالخلود ، ما لاحظه أحد الحكماء من أنه مما كتبه قدماء الفلاسفة من جميع الأجناس ، وما أنشده

(٢) عن الكوميديا الإلهية « الجحيم » راجع بوجه خاص ص ٥٥ - ٦١ .

فطاحل شعراء جميع الشعوب ، وما جاء به حكماء جميع الأمم ، نستطيع أن نجمع آثار هذا الإشراق الذى جاء الإنسان ، وهو تفتح الوعى الروحى . لقد تحدث عنه هذا بطريقة ، وذاك بأخرى ، ولكن الجميع رددوا نفس القصة – قصة واحدة لا تختلف . كل الذين أشرق عليهم هذا النور ولو خافتاً باهتاً ضعيف الضياء يرون نفس المعالم . وقرب الشبه بين ما تصنعه الأنشودة والشعر والتعاليم ، مهما بَعُدَ العصر واتسعت الحقبة بينها ، إنها أنشودة الروح التى إذا سمعت مرة لا تنسى ، سواء أنشدها المتوحش على صوت آلته البدائية ، أو عزفها المتحضر على أوتار الآلة العصرية المتقنة .

إنها هىَ هىَ التى انحدرت من مصر الفراعنة ، أو من الهند ، أو من أثينا وروما . من القديس المسيحى فى الكنيسة والدير ، من الفيلسوف الصينى ، ومن قصص الهندى الأحمر وهو يروى أسطورة النبى البطل ، إنّها واحدة النبرات متشابهة النغم ، ولكن صوتها يزداد ارتفاعاً كلما مر الزمن بانضمام المنشدين الجدد ، كلٌّ بما فى يده من قيثارة أو غيرها من آلات النغم إلى الفرقة العظمى [٣] » .

والاعتقاد بإمكان الاتّصال بين الأحياء و « الأموات » ليس بدوره أمراً جديداً ، بل إنه يمثل عقيدة كانت معروفة وشائعة فى مجتمعات كثيرة ، فيروى المؤرخ « فسك » مثلا أن الاتصال بأرواح الموتى كان من أول العبادات التى عرفها أجدادنا على اختلاف أجناسهم ، التى عاشت فى أفريقيا وآسيا والصين واليابان . وفى الشعب الآرى الأوربى ، وفى قبائل الهنود الأمريكيين . كما يروى « آلين » أيضاً فى « تاريخ المدينة » أن القبائل المتوحشة فى كل العالم ذات إلمام

(٣) عن « فلسفة اليوجا » تأليف يوجى راما شاراكا ، ترجمه الأستاذ عريان يوسف سعد ص ١١١ .

بالنفس الإنسانية وعالم الروح والخلود بوجه عام ... وأن الوفاة ما هى إلا خلاص الجسم عن طريق هذه النفس العجيبة التى يعتقدون أنها فى مكانٍ مَّا قريب ، وأن الحب والكره فى هذا العالم ينتقلان إلى العالم الآخر .

ويضيق المقام هنا عن تتبع هذه العقيدة عند الأقدمين فى البلاد المختلفة . بل يكفى فى مؤلّف موضوعه التقديم « للعلم الروحى الحديث » أن ننبه الأذهان – فى عجالة – إلى أن هذا الموضوع قديم ، وأن كل ما فعله الحديث هو أنه رضِىَ أخيراً أن يتواضع قليلا ، ويبحثه بالأساليب العلمية الحديثة ، فكانت المفاجأة الكبرى أنه جاز الامتحان بنجاح ، فى الوقت الذى كان قد استقرّ فى الأذهان أنه محض خرافة اندثرت مع تقدم العرفان إلى غير رجعة . فاضطر الباحثون العلميون إلى أن يراجعوا آراءهم المادية ويعيدوا صياغتها ، فإذا بها بعد هذه الصياغة الجديدة أثبت قَدَماً ، وأقوى على النقد وعلى مواجهة كشوف العلم المادّى نفسها التى أخذت تترْى فى تدفّق مثير ، منذ عَرفت الحقائق الروحية سبيلها إلى الأذهان ، وفى تضامن مع التسليم بصحة هذه الحقائق .

وذلك إلى المدى الذى يدفع بعض الباحثين الروحيين ، إلى الاعتقاد بأن عالم الروح كان وراء هذه النهضة الروحية الباهرة ، كما كان من قبل وراء كل نهضة روحية عرفها الإنسان . « فعالم الروح قديم قدم الحياة ، وعالم المادة ظلّ باهت عليه ، وأولها خالد لا يفنى وثانيهما عرضة للفناء . ويمكن الآن اعتبار أثير الفضاء – كما يقول الأستاذ جيمس آرثر فندلاى مدير المعهد الدولى للبحث الروحى – هو حلقة الاتصال الكبرى التى توحّد ما بين عالم المادّة وعالم الروح ، لأن مادة الأثير مشتركة بين العالمين . وكلاهما محصور داخل هذه المادة ، وكلاهما جزء منها ، وكلاهما مكوّن منها . والعالمان جزء من كون واحد ، والحياة فى كليهما مقيدة به ، فهنا فى العالم المادى الذى نعيش فيه ، إنما نحس فقط بنوع من

الاهتزازات المنخفضة الدَّرجة ، أما فى عالم الروح حيث تؤدى الحياة وظائفها أيضاً ، فإن الوعى يتأثر بنوع من اهتزازات أعلى درجة .

وكلما أوغلنا فى البحث سنزداد اقتناعاً بهذه الآراء . لأنه من أحاديثى مع أولئك الذين يحيون تلك الحياة ، سنعلم أن عالم الروح حقيقى ملموس جميل كهذا العالم الذى تدركه حواسّنا المحدودة ، بل إنه فى الواقع أكثر منه فى هذا الصدد »[4] .

وفيما يلى سنمرّ على موضوع الروح من ناحية الاعتقاد فى خلودها ، فى عصور مختلفة من التاريخ ، وفى آداب مختلف الحضارات وفلسفاتها ، متوخّين أن نقدّم هذه العجالة بترتيب تاريخى ، فنعالج موضوع الروح عند الإنسان البدائى والفراعنة ، ثم عند الهندوس ، ثم عند الإغريق ، ثم عند العرب وفلاسفة الإسلام ، ثم فى عصور أحدث مما تقدم .

فكرة الروح[5] عند الإنسان البدائى

كانت الجماعات البدائية فى جاهليتها الأولى تواجه حيثما كانت (لغز المجهول) فى نفوسها ، وفى كل ما يكتنفها فى مظاهر الطبيعة حولها ، وتحاول أن تبنى على ما تعانيه من هذه الظواهر الإنسانية والطبيعية ، أفكارها عن الإنسان وعن الطبيعة .

ولعل أروع ما واجهته هذه الجماعات فى نفسها من ألغاز المجهول (لغز الموت) ، وإننا لنتمثل الإنسان البدائى منذ أقدم العصور ، فى أول موقف له

---

(٤) « على حافة العالم الأثيرى » طبعة ثالثة ص ٤٤ .

(٥) من مقال للأستاذ / عبد الرحمن صدقى . مجلة الهلال العدد ١١ - نوفمبر ١٩٧١ .

أمام الموت ، وهو واقف على جثة رفيقه الميت حائراً مذهولاً ، وخاصة وهو قريب عهد بالميت ، يذكر كيف كان منذ لحظة مثله يَغْدُو ويروح ويتكلم ويفعل ، مثل ما يفعله سائر الأحياء .

فماذا دهاه ؟

إن كل شيء فيه يبدو عاديًّا فهو سليم البنية لم يُبتر منه عضو - صحيح الجوارح لم تصبه طعنة فى قلبه .. ولا كسر فى جمجمة رأسه ، ولا غير هذا وذاك من مواضع الإصابة فى المقاتل ، ومع ذلك فإن جسده برغم بنيته وصحة جوارحه ، قد بردت فيه حرارته وهمدت حركته .

فما هو ذلك الشيء الحى ، غير المنظور الذى كان فى هذا الجسد ثم فارقه ، فإذا الحياة قد فارقت معه الجسد - مع أنه - من حيث هو جسد ، لا يختلف فى مرأى العين عن جسد من هم على قيد الحياة لا يزالون ؟

وذلك الشيء الخفى سرّ الحياة فى الجسد الحىّ ، سرعان ما اهتدى إليه الإنسان البدائى حين انحنى على وجه الميّت ، فإذا به لا يحسّ نَفَساً يتردد .

من هنا استنتج الإنسان البدائى أن ذلك الشيء الخفى غير المنظور كالهواء ، هو فى أجسام الأحياء عنصر الحياة ، أى أن الروح من عنصر غير عنصر الجسم .

ولكن للقارئ أن يقول : إن هذا الاستنتاج وإن كان غير بعيد أن يقع للإنسان البدائى ، فإن الحكم بوقوعه له لا يخرج عن أنه حكم افتراضى لا يستلزم القبول ، وجوابنا على الاعتراض أنه صحيح ما لم يقم دليل يؤيده .

وعندنا لحسن الحظّ الدّليل ، وهو الوحيد الذى لا يمكن أن يكون فى مثل هذه الحال غيره . . ذلك الدليل ، هو ما أسفرت عنه الدراسة المقارنة للّغات منذ أقدم العصور ، من الابتعاد منذ أقدم العصور بالمدلول الأخوى لفكرة (الروح) عن كل ما هو جسدى إلى ما هو فى اعتقاد الأقدمين - لا مادى -

مثل نسمات الهواء ونفحات الريح . ففى القارة الآسيوية نجد اللغة السنسكريتية أقدم لغات الهند ، فى حضارتها الأدبية الدينية قد أطلقت على الروح و (الهواء أو الريح) لفظاً واحداً هو (ألمان Alman) كذلك لا يختلف الوضع عن ذلك فى اللسان الجاوى .

كما أن الدارسين لأحوال البقية الباقية من الجماعات البدائية فى غرب أستراليا قد لاحظوا على القوم هذه الظاهرة بعينها ، فى لغتهم وهذا بعينه كذلك ما يجرى حتى اليوم على لسان الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية .

وفى القارة الأوروبية منذ الحضارات القديمة اشتق اليونان من الفعل الذى معناه يتنفس كلمة : (Psyche)

ثم جاء الرومان فاستقوا من الفعل نفسه كلمة Psychicus وكلاهما بمعنى النفس أو الروح ، وكلنا يعرف معنى هاتين الكلمتين فى التركيب الأوروبى المنقول عنهما وهو (Psychocology) نقلناه إلى لغتنا بحروفه (بسيكولوجيا) (Psychology) بمعنى علم النفس ، كذلك نجد فى هاتين اللغتين القديمتين ذاتهما - اليونانية واللاتينية - كلمة Pneuto ومعناها الهواء ، وهو بمعنى الروح فى بعض فروع فلسفة ما وراء الطبيعة وهو المسمّى Pneutology أى (العلم الروحى) ونسوق أخيراً وليس آخراً - هذا المثل من أقدم اللغات السامية فى الشرق ، وهما العربية والعبرية ، وحسبنا فى بيان قدم لغتنا أن نذكر ما هو ثابت لدى علماء التوراة ، من أن أحد أسفارها وهو (سفر أيوب) مترجم للعبرية من العربية ، ثم نبدأ باللغة العربية فنقول : إن كلمة (الروح) فيها قريبة من (الريح) من حيث لفظها واشتراكها فى معظم الحروف ، بل إن كلمة الروح تشتمل فعلا على المدلولين معاً فهى (الروح) و (الريح الخفيفة) ، ومرادف الروح فى لغتنا (النَّفس) وهو أيضاً يقال : لفظ (النَّفس الأخير) بمعنى فاضت نفسه أو

صعدت روحه ، وتتفق اللغة العربية مع اللغة العبرية فى كلمة النفس بمعنى الروح ، مع فارق واحد فى اللفظ وهو أن حرف (السين) فى لغتنا هو (الشين) فى لغتهم . فالنفس عندهم (نفش) كما أن السلام عندهم (شالوم) .

ومما قدمنا يظهر أن الإنسان البدائى كان فهمه أول الأمر لحياته أن قوامها تحرك آلى يرجع إلى تركيبه العضوى ، وبعبارة أخرى كان وقوفه عند المادة على أنها الحقيقة الأولى والأخيرة ، ولكنه مع تطوره الحضارى أدرك أن عنصر الحياة فى جسده المادى غير مادّى ، بل شىء خفى هوائى كالريح ، بدليل اتفاق مدلولها اللفظى فى أقدم اللغات ، ولا شك أن هذا الإدراك الذى حققه الإنسان البدائى نحو إدراك الروح يعد نقلة كبرى ودرجة لها ما بعدها فى معراج الارتقاء الروحى لو استقام على الطريق .

من فكرة وجود الروح إلى خلود الروح

إذا كانت فكرة وجود الروح بوصفها قوة لا مادية ، تمثل عنصر الحياة والحركة فى الجسد قد تلقاها الإنسان البدائى كما قدمنا – من الموت – فإن بلوغ الإنسان البدائى إلى الفكرة التالية الأسمى عن (بقاء الروح) نشأت عنده من الأحلام .

أما كيف كان ذلك فالجواب عنه من البساطة بمكان ، وإلى السائل البيان :

لما كان الإنسان البدائى بعد جهده طوال نهاره فى السعى بوسائله القاصرة البدائية للحصول على طعامه وسائر ما يحتاج إليه فى عيشه ، سواء بالصيد أو غيره يغلب عليه كما يغلب علينا اليوم – سلطان النوم – الذى لا يغالب فينام ، فإنه لا محالة كان فى بعض الأحيان يحلم فى نومه بمثل ما نحلم به ، من الأحلام التى

تمت من قريب أو بعيد إلى حياتنا ، وما يشغل فيها نفوسنا من المخاوف والآمال ، فيرى ما يرى النائم – على سبيل المثال – فى بعض جولاته العادية أنه قد لقى أناساً ممن يعرفهم ، أو ممن لا عهد له بهم ، فدار بينه وبينهم هذا الحديث أو ذاك بالإشارة أو بعض الكلام ، وانتهى الأمر بما انتهى إليه من سلام أو خصام ، أو أنه خرج فى إحدى رحلات الصيد البعيدة فى الغابة أو فى الجبال ، فإذا الصيد غير الذى جاء مستعدًّا لصيده ، بل هو وحش من الوحوش الضخام شديد الضراوة ، فثبت له مع ذلك ولم يتراجع ، ولم يزل به يناوشه ويصارعه حتى صرعه ، بما أظهره – فى الحلم – من شجاعة فى القتال تفوق سائر من يعرف من الرجال ، بل ربما يكون أتى – فى حلمه – من الفعال ما هو فى حكم المحال .

هذه الأحلام أو غيرها كان الإنسان البدائى يحلم بها بطبيعة الحال ، والذى يعنينا من أحلام الإنسان البدائى ليس أحداثها بقدر ما هى الأحلام نفسها ، ذلك أنه كلما انتبه من منامه ألفى نفسه مع كل تلك الرحلات فى أحلامه راقداً فى فراشه لم يفارقه ، فلا غرو أن يكون تفسير ذلك عنده فى كل مرة تتكرر فيها هذه الظاهرة أنها هى روحه تفارق جسده فى أثناء نومه ، وتنطلق حيث شاءت لتحيا الحياة التى تشاؤها ثم تعود للجسد .

وعلى أساس هذا التفسير تقررت عند الإنسان البدائى العقيدة بأن الروح وإن حلت فى الجسد ، فإن لها وجودها المستقل عن الجسد .. وعلى أثرها عقد الإنسان البدائى المقارنة بين مفارقة الروح للجسد فى الحالتين : حالة نوم الإنسان وحالة موته ، فبدا له أن الروح تفارق جسد الميت كما تفارق الروح جسد النائم (على حدّ قولنا إن النوم موت أصغر والموت نوم أكبر) وأن الفارق فى الحالتين هو أن الروح فى حالة النوم تعود للجسد ، وفى حالة الموت لا تعود للجسد .

وبذلك يكون الإنسان البدائى بما أودع الله فيه من العقل – وإن يكن لمّا يزل فى طوره البدائى – قد سجل لنفسه على طريقته وصوله إلى الإلمام بحقيقة من الحقائق الكبرى وهى (خلود الروح) .

اعتقاد خلود الروح ينحرف إلى التعبد لأرواح الأجداد

لما كانت روح الإنسان تقيم فى جسده طوال حياته ، فقد استقر فى تفكير الإنسان البدائى أن هذه الملابسة – طالت أو قصرت – تميل بالروح المفارقة إلى المرابطة بالقرب من جسد صاحبها الميت حيث كان بعد الممات .

ولكنه على الرغم من هذه الفكرة المثالية كان لا يتصور أن تصبر روح الميت على هذه السلبية ، فتبقى أكثر الوقت حبيسة فى القبر بجوار جثته ملازمة لها . وهذه هى أرواح الأموات تغادر مكانها جوار رفات أصحابها ، بعد أيام يتفاوت عددها باختلاف الجماعات وتمضى إلى حيث كانت تحيا معه ، وهناك تهيم حول كوخه الذى ربما أيضا كان مسقط رأسه ، وفى هذه الحالة يكون على أرملته وأولاده أن يتوخوا فى تلك المواعيد المقررة ترك الباب دون مغاليق تمنع دخول روح فقيدهم للزيارة الموعودة .

وبعد هاتين المرحلتين يكون للأرواح المفارقة أن تستمتع كل واحدة منها بحريتها ، فلا يقتصر غشيانها على الأمكنة التى كانت تغشاها مع جسد صاحبها ، بل تهيم فى سائر النواحى حيث شاءت فى الليل ، لأن النهار يخص الأحياء وحدهم ، ومن أجل هذا كان كل مكان – فى الغابة أو فى العراء فى الطريق العام أو فى منعطفاته الضيقة – موعداً لمسرى أرواح الموتى تحت جنح الظلام ، لا تراها الأعين إلاّ إذا شاءت أن تظهر لهم أطيافها لسبب أو لآخر . وهذه

الأرواح تستطيع أن تتعرض بالخير والشر للأحياء بحسب موقف كل واحد من هؤلاء منها ، قبل الموت وبعده ، فضلا عن إمكان تدخلها فى سير الأحداث ، باعتبار أن عدم تقيّدها بالجسد يكسبها قوة على مثل هذه الأمور الغريبة ، على الرغم من حاجتها إلى الأحياء فى أمور أخرى شخصية سيأتى ذكرها .

لذلك كان الإنسان البدائى يتحرّى رضا هذه الأرواح الهائمة لاعتقاده أنها وقد حرمت من الحياة تحسده عليها : تحسده على ما لا يزال ينعم به – دونها – من الحياة المستقرة فى بيته مع أفراد أسرته .. تحسده على ملء عينيه بنور الشمس واستمتاعه بدفئها ، وأكله من صيد البر والبحر وما تؤتيه الأرض من ثمرات .. تحسده على اشتراكه – بعد الطعام والشراب – فى حلقات الرقص فى الساحة وسط جلبة النساء والرجال ، وهم مع رقصهم ينشدون ، وقد نسوا من فرط الحبور أنفسهم فبلغوا قمة النشوة ثم يتفرقون ، وقد اصطحب كل رجل زوجته .

وتهدئة لما عند أرواح الموتى من موجدة الحسد للأحياء على كونهم أحياء ، لا يزالون يستمتعون بالحياة من دونهم ، كان على هؤلاء ألاّ يدعوا لاسترضائهم سبيلا إلا سلكوه ، فالإنسان البدائى فى أفريقية الشرقية وفى مدغشقر يبنى لأرواح الموتى خصاصاً من القش ، لتعتصم بها من الرياح والأمطار التى تكثر فى تلك الأصقاع ، وفى بعض البقاع من استراليا وجزائر الأقيانوس توقد بعض النيران بالقرب من مدافن الموتى ، حتى تستدفئ بها أرواح الموتى التى تشكو البرد ، وأمثال ذلك كثير .

ويلاحظ كذلك فى المدافن من قديمها إلى حديثها ، أنها غير بعيدة من مساكن الأحياء ، حتى يقوم ذلك دليلا لدى أرواح الموتى على حرص الأحياء على جوارها ، واستبقاء العلاقة الطيبة بينهم وبينها ، كما يضاف إلى ذلك ما تلتزم به كل أسرة من زيارة موتاها مرة أو أكثر من مرة كل موسم من المواسم فى كل

عام ، حاملين إليها معهم أنواع الزاد من الذبائح والخبز والفاكهة فضلا عن الأزهار ، والأمثلة على ذلك متوفرة منذ ألوف السنين فى مقابر المصريين . ولا غنى لنا عن التنبيه هنا إلى أن هذا الزاد وهذه الرياحين وغيرها وإن تكن صوراً على الجدران ، أو تماثيل تتحول إلى حقائق حية بقوة الرموز السحرية عند المصرى القديم ، الذى لا يرى مع السحر فرقاً بين الصورة والأصل والذى يلغى إيمانه بخلود الروح المسافة بين الميت والحى .

الاعتقاد فى وجود الأرواح يمتد إلى الجمادات

لم يقف الإنسان البدائى من بعد توفيقه إلى اعتقاد خلود الروح عند انحرافه – كما تقدم – إلى التعبد لأرواح الأجداد ، بل طرأ انحراف آخر أبعد أثراً وأطول أمداً ، على اعتقاده الأول (وجود الروح) ، حتى شمل كل ذى حركة فى الطبيعة كلها ، وهذا هو كلما نظر حوله فى الطبيعة إلى كائنات تتحرك – وما أكثرها – أعتقد أن كل كائن منها مثله يتحرك لأن روحاً تكمن فيه .

فالأشجار لا ترتجف أوراقها وتتمايل أغصانها إلا لأن فيها الروح ، والأنهار لا تجرى بين الصخور وتناغى الأسماع بنغم الخرير إلا لأن فيها الروح ، وكذلك البحر الواسع الرّحاب الممتد إلى آخر الأفق وهو زاخر اللجَّة صاخب عجّاج من تلاطم الأمواج ، وأمثال ذلك إلى آخر ما هنالك .

وهكذا ازدحمت الطبيعة حول الإنسان البدائى بالأرواح ، فهناك روح لكل شجرة وأسرة من الأرواح لابد للغابة – ولابد على رأسها من الأرباب – مما يناسب الغاب وثمَّة روح لكل نهر وأسرة من الأرواح لابد للبحر – ذلك العالم المائى الكبير – ولابد على رأسها رب وربة من الكبار ذوى المكانة . وعلى

هذا المنوال مضى الإنسان يتمثل الأرواح فى كل ما يلقاه على وجه الأرض ، حتى انتهى إلى الاعتقاد بأن حركة الحجر المتدحرج من قمة الجبل على السفح تقوم دليلا على وجود الروح فى الجماد ، وكان أروع ما أيد ذلك عنده (جبل النار) ذلك البركان الذى لا يرى فى قمته عند الهدوء إلا سحابة من دخان حتى إذا ثار.. إذا هو يقذف ذات اليمين وذات اليسار من قذائف النار ومصهور الأحجار ما يزلزل الأرض وينشر الموت والدمار . بل إن الصحارى الجرد نفسها لا تخلو من كثبان الرمال المتحركة فى مهاب الرياح ، فضلا عن أن ما يصدر عن تمدد رمالها بحرارة النهار وانكماشها فى برد الليل من التخلخل فى الرمال ينجم عنه حركة انهيار بطىء مستمر ، إذا سمعها الإنسان البدائى توهمها فى سكون الليل وسط القفار همسات أرواح الصحراء .

هذه بعض الظواهر الطبيعية فى الأرض ، أما فى السماء فإن الإنسان البدائى ما يكاد يطمئن إلى صفائها فى هذا اليوم ، أو ذاك حتى تجذب أنظاره قطع متحركة من السحب ، تسرى فى الفضاء متفرقة ثم تتجمع فيكفهر الجو .. وإذا الرياح التى كانت أنساماً لطيفة ناعمة تصير زوابع عاصفة ، تتواثب وتتضارب كالوحوش الضارية ، وفجأة تعلو على أصواتها جلجلة صيحات مروعة تتردد فى الآفاق من أصوات الرعود القاصفة ، بينما تشب فى جوانب السحب المدلهمة هنا وهناك ، كألسنة النار تلك البروق الخاطفة ذات البريق الذى يخطف الأبصار .

فهل بعد ذلك يبقى عند الإنسان البدائى أدنى شك فى أن السماء أيضاً عامرة كالأرض بالأرواح وأن هذه الأرواح – مثل روحه أحياناً – تأخذها سورة من الغضب ، هى هنا كأشد ما يكون الغضب .

فى هذه الحال وغيرها من الأحوال – ما ذكرناه وما لم نذكره – كانت

تتحرك عند الإنسان البدائى رغبة ملحة لمعرفة السبب .

وكان الزعيم المهيمن على كل جماعة بدائية تأكيداً لسيطرته يعتمد على إيهامهم بما تلقنه من أرواح الأجداد ، من المعارف الغيبية الكفيلة بالرد على كل سؤال فضلا عن القوى السحرية القادرة على شفاء كل داء ورد كل بلاء .

ومن ثم كان هذا الزعيم المتطبب الساحر هو الذى يفسر لهم– بحسب اجتهاده– السبب فى غضب هذا أو ذاك من الآلهة المتمثلة فى العناصر الطبيعية ، ويدلهم قدر سعة حيلته على وسائل استرضائها بالقرابين وأداء الشعائر وغيرها . مع إبداء استعداده إذا استدعى الأمر إلى إكراهها بما لديه من القوة الفعالة السحرية .

ولم يكن هذا بمانع للزعيم كلما اجتمعت جماعته حوله ، من أن ينسج لهم الأساطير التى يجود بها خياله عن عجائب حياة كل من الآلهة المعبودة ، بما يميز بعضها عن بعض من حيث عظمة سلطانها وجبروتها ، أو براعة ذكائها وسعة حيلتها أو رجاحة عقلها وعمق حكمتها أو روعة محاسنها وسطوة فتنتها ، وهذا ما نراه منعكساً بصورة منتظمة مستكملة ومحسنة فى آثار الحضارات الوثنية الأولى وأقدمها حضارة مصر الفرعونية ، ومن بعدها الهند ، ثم اليونان التى حفظت لنا ملحمة (الإلياذة) عبر القرون أساطيرها الجميلة .

واعتماداً على تلك الأساطير ، يكون ما تعبد له الإنسان البدائى من رموز القوى الطبيعية متمثّلا فى قوتين : أولاهما : قوة أرضية والأخرى سماوية .. وتتمثل الأولى فى (أمّنا الأرض) بما يمثله رمزها عند الإنسان البدائى من قوة الإخصاب الخلاقة .. فى كل ما تنبته بطنها من نبات يعيش عليه الأحياء .. وكل ما ينتجه الأحياء على ظهرها من حيوان وإنسان – وتتمثل القوة الثانية فى الأجرام السماوية ، وهى بالليل كالمصابيح المضيئة لا عدد لها ، من بينها

الكواكب السيارة التى عرفت الحضارات القديمة لكل كوكب منها مساره المحدود .. متنقلا بين البروج لا يخطئ المواعيد حتى زعم الأولون ومنهم الإنسان البدائى – أنها تجرى لهم بالنحوس والسعود .

أما الشمس أعظم الأجرام السماوية ، فقد عرف فيها الإنسان البدائى المركز الأكبر المشع للنور الذى يهدى والحرارة التى تحيى ، فجعلها – لا محالة – على رأس القوى الطبيعية المعبودة كلها ومن ثم كانت عبادة الشمس أقدم العبادات فى مصر صاحبة أقدم الحضارات .

وهذه القوى الطبيعية كلها التى كانت كما تقدم بنا – بمثابة (الأرواح) عند الإنسان البدائى – جاء بعد ألوف السنين فى القرن الرابع قبل مولد المسيح كبير فلاسفة اليونان أفلاطون فوجدها فيما أسماه Amma Mundi أى روح الكون . وخاتمة القول أن من حق الإنسان البدائى علينا وهو فى طوره الحضارى الأول ، أن نترك جانباً ما طرأ عنده على فكرة الروح من الانحرافات ، حين ضل الطريق ، وأن نجعل موقفنا عندما أصابه من التوفيق حين استكشف على طريقته أن جسمه المادى لا يقوم بذاته ، بل تحركه قوة خفية لا مادية ، فكانت فكرته الأولى عن (وجود الروح) ثم استكشف على طريقة له أخرى – أن هذه الروح التى هى جوهر لا مادى لا تهلك مع الجسد ، بل هى خالدة أبد الدهر ، فكانت فكرته عن خلود الروح ، وأيا كان نصيب هاتين الفكرتين من الموافقة عندنا أو عدم الموافقة ، فإن البشرية كلها قد وقع اتفاقها – مع كل ما بين الناس من خلافات – على جوهر هذه الحقيقة – (وجود الروح وخلودها) التى تعتبر لا محالة فى صورتها الدينية الكاملة من الحقائق الكبرى .

والواقع أن الإنسان البدائى قد نجح بالقياس إلى المرحلة التى كان فيها ، بين أواخر البدائية وأوائل الحضارية ، فما كان له أن يلمّ بأكبر مما ألمّ ، ولا كان له

بعد التوفيق ألا يضل الطريق كما ضل .

فالحقائق الكبرى فى صورتها الدينية الكاملة ، إنما ينهض بحملها إلى البشر أصحاب الأديان من الرسل والنبيين – الذين اصطفاهم لذلك رب العالمين ، ولكن إيماننا بالإنسان الذى خصه الله عن الحيوان بالجذوة المقدسة المستمدة من القبس الإلهى المسمى بالعقل .. ذلك الإيمان هو الذى حدانا إلى محاولة اجتياز ظلمات ذلك الماضى السحيق ، فى محاولة غير يائسة لبدء موضوعنا من البداية متدرجاً مع العقل المترقى ، حتى نقف عندما نحن عليه من العلم بالروح (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

الروح عند الفراعنة

تزخر النصوص المصرية القديمة بعقيدة المصرى القديم فى بدء الخلق ، وكيف حدث الخلق[٦] ، وهناك مدارس دينية عديدة لكل منها مذهبها الخاص ، ولكن أهم هذه المدارس هى مدرسة (منف) ، التى جعلت (بتاح) العظيم هو الخالق ، وطريقته فى الخلق تتلخص فى أن (بتاح) العظيم هو قلب الآلهة ولسانهم ، ويعنى ذلك أن (القلب) هو العقل أو الفهم فى حين أن اللسان هو رمز النطق ، والنطق هو الكلمة وفى الكلمة (الخلق) .

وهم يقولون فى ذلك إن (بتاح) هو القلب فى كل صدر ، وهو اللِّسان فى كل فم ، سواء فى ذلك جميع الآلهة وجميع الناس وجميع الماشية وجميع الزواحف وسائر الأحياء ، إن بتاح يفكر فيما يشاء ويأمر بما يريد ، إن الآلهة هى صور لبتاح ، وهى التى أوجدت بصر العين وسمع الأذن وتنفس الأنف لتصل

---

(٦) من مقال للدكتور/ عبد المنعم بكر بمجلة الهلال العدد ١١ نوفمبر ١٩٧١ .

جميعاً إلى القلب ، والقلب هو الذى يصدر كل قرار ، واللسان هو الذى يعلن فكر القلب ، إن كل كلمة مقدسة خرجت إلى الوجود عن طريق ما ، فكرة القلب ونطق بها اللسان .

وإذا أردنا التعرف على حياة الناس ، وما هى عناصر هذه الحياة ومقوماتها ، سنجد أيضاً أن المصرى القديم قد ترك الكثير من النصوص التى تفسر لنا عقيدته فى ذلك ، ولو أننا نعترف أن هذه النصوص تحوى فى كثير من الأحيان غموضاً دفع العلماء إلى كثير من الجدل والاختلاف فى الرأى .

إن عملية الخلق المادى للإنسان تسند عادة إلى الإله (خنوم) ، فهو الذى يشكل الإنسان من طين وعصافة تماماً كما يشكل الإنسان آنيته الفخارية ، ولذلك صوّروا (خنوم) جالساً أمام عجلة الفخارى ، يقوم بتشكيل الإنسان ، أى يخلقه خلقاً ماديا وبعد ذلك يقوم بتشكيل جُسَيْم آخر ، هو ما أطلق المصريون عليه اسم (كا) ، ثم تنفث الآلهة (حفت) التى (صورها المصرى برأس ضفدع وجسم أنثى) روح الحياة فى هذين التمثالين الفخاريين ، وهكذا يتم الخلق . ولقد رمز المصرى القديم إلى روح الحياة بعلامة (عنخ) ، التى نتعارف على تسميتها (مفتاح الحياة) .

إلا أن المصرى منذ أخذ بفكرة الخلود بعد الموت ، بدأ يكوّن لنفسه صورة لطبيعة الإنسان كمخلوق حى ، لا يلبث أن يموت ، ويطلب لنفسه سعادة دائمة فى حياة خالدة تعقب الموت ، والواقع أنه لا يوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم احتلّت فى نفسه فكرة الحياة بعد الموت المكانة العظيمة التى احتلّتها فى نفس الشعب المصرى القديم ، ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة إلا على أساس أن الناس الذين استقروا فى وادى النيل الأسفل (أى فى مصر) ، قد نعموا بحياتهم وسعدوا بها إلى درجة جعلتهم يحاولون جاهدين الإبقاء عليها حتى بعد الموت

من البلى ، إلى درجة لا تتوفر فى بقعة أخرى من بقاع العالم ، هذا مع العلم أن المصرى باستمرار كان يختار جباناته (مقابره) فى بطن الصحراء ، بعيداً عن الأرض المزروعة التى كان النيل يغطيها بمياه فيضانه مرة كل عام ، ولمدة تزيد على ثلاثة أشهر ، ولابد أن حالة الحفظ التامة للأجساد البشرية ، التى كان المصرى الأول يكشف عنها فى كل مرة يقوم فيها بحفر قبر جديد ، قد زادت اعتقاده فى بقاء تلك الجثث البشرية إلى الأبد ، وألهبت خياله بتصورات مختلفة عن عالم الموت ، وأخذ يعتقد فى أن الموت ليس إلا صورة من صور الحياة ، يفقد الإنسان فيها مقومات الحركة فقط ، ومن ثم نراه يتصور أن الموت لا يصيب إلا الجسد الخارجى ، فى حين تتبقى عناصر أخرى هى التى تتمتع بالحياة فى دنيا ما بعد الموت .

وأهم ما ذكرته النصوص من عناصر الإنسان ومقوماته هى :

١ - جسم مادى (خت) : صندوق يحوى عناصر ستبقى بعد الموت .

٢ - الروح (با) .

٣ - القرين (كا) : النفس أو النفسية .

٤ - نورانية تنكشف فى الآخرة (آخ) .

٥ - قلب مدرك (أيب) .

٦ - اسم شخصى (رن) .

١ - ويقول (بتاح حوتب) من الأسرة الخامسة عن طبيعة الجسد وهو يعظ ابنه : إن العاقل هو الذى لا يستمع إلى نداء الجسد ، - وإذا ضل القلب وأطاع نداء جسده فإنه يكون قد أحل صَغَاره محل حُبّه ، ويصبح عقله تعساً ويسودّ وجهه بما جرّته عليه نفسه ، أما من اتّبع نداء الرّب فقد عزّت نفسه ، والقلب لا يشعر بالدفء إلاّ من فضل الرّب وحده ، ومن أطاع جسده كان

عدوّ نفسه . (فالجسد يعبر عن الجسد المادى وما يحويه من شهوة وشرور) .

٢ - و (**البا**) هى العنصر الذى نترجمه تجاوزاً (الروح) ، ولا يرد ذكره مطلقاً إلا فى الرسوم على جدران المقابر وتوابيت الموتى ، وقد صوره المصرى القديم على شكل طائر له رأس إنسان وذراعاه ، وتراه يرفرف على مومياء صاحبه فى تابوتها ، وهو يقدم لأنفها صورة شراع منشور ، وهو الرمز المصرى (للهواء) ، ويحمل فى يده الأخرى علامة (عنخ) أى الحياة ، ومن الملاحظ أن (البا) لا تظهر إلا عند موت الإنسان ، وكل النصوص المصرية تنص على محاولة جعل المتوفى (با) عند موته . ونرى الكاهن الجنازى يخاطب المتوفى الذى يرقد فى تابوته قائلا :

إن عظامك لا تفنى ولحمك لن يبلى وأعضاءك ليست بعيدة عنك : إن آلهة السماء تعيد لك رأسك ثانية ، وتجمع لك أعضاءك ثانية وتحضر قلبك لجسمك ثانية ، قم لخبزك هذا الذى لم يجف وجعّتك التى لن تفسد . إذ بهما تصبح (با) .

٣ - (**الكا**) : إذا اعتمدنا على النصوص ذات الطبيعة الدنيوية مثل التراجم الخاصة والتعاليم الخلقية والأسماء الشخصية ، نجد أن المعنى لا يستقيم إلاّ إذا ترجمنا (الكا) على أنها النفس أو النفسية ، وبتاح حوتب حين ينصح ابنه يقصد (بالكا) نفسية الشخص الحى (لا تتبر) وقت متعتك فكريهٌ على (الكا) - أى النفس - إفساد وقت متعتها . و (إذا تقاعد المرء على أن يرضى خلصاءه قال الناس هو (كا) أنانية أى هو نفس أنانية) . كذلك فإن الأسماء الفرعونية (كا وعب) تعنى نفسا طاهرة و (كامنخ) أى نفسا فاضلة و (مريروكا) بمعنى محبوب النفس . وقد عبر المصريون عن (الكا) بصورة ذراعين مرفوعتين إلى أعلى ، ونحن نجد من بين نصوص مذهب (هليوبوليس)

التى تتحدث عن الخلق الأول الذى قام به (آتوم) : (آتوم الذى أوجد نفسه بنفسه ، وعاش فريداً أمداً بعيداً حتى ذرأ من نفسه ذكراً وأنثى ، ثم مد ذراعيه حولهما (أحاطهما بساعديه) بمقدرة (الكا) . واعتقد المصريون أن (الكا) تبقى فى جسم صاحبها ما دام حيًّا فهى تولد معه وتعيش معه .

وفى اعتقادنا أن هذا التصور لا يزال باقياً عندنا حتى الآن . فعندما يجرى طفل ويقع على الأرض نجد أمه تسارع إليه قائلة : (اسم الله عليك وعلى أختك اللى أحسن منك ..) فإن كانت ترى أن الطفل لم يصب بسوء إلاَّ أنها تخشى أن تكون الأخت (الكا) قد أصيبت بأذى . وقديماً اعتقد المصرى أن (الكا) ستنفصل عن الجسد فوراً بعد الموت ، ولكنها ستبقى بجانبه وهى العنصر الذى سيعيش إلى الأبد ، إلا أن هناك ضمانات متعددة تتحكم فى نوعية هذه الحياة ومدى السعادة التى سترفرف على (الكا) ومن هذه الضمانات :

(ا) تحنيط الجثة حتى تحتفظ بصورتها الدنيوية لتتعرف عليها (الكا) .

(ب) المقبرة تجهز بحجرة دفن تحتوى تابوتاً ضخماً من الحجارة للمحافظة على الجثة ، وسميت المقبرة عند المصريين (منزل الأبدية للكا) .

(حـ) تكديس المأكل والمشرب والأثاث .

(د) إقامة تماثيل تعرف باسم تماثيل (الكا) لكى تتجسدها عند تقدمة القرابين .

(هـ) وقف مساحات شاسعة من الأرض المزروعة لصرفها أو ريعها على تقدمة القرابين ، ومن الطريف أن المصريين القدماء تخيلوا وجود جنة سماوية ، إلا أنها كانت طوال عصر الدولة القديمة وقفاً على الملوك .

٤ – **(الآخ)** : عنصر معنوى بحت يعبر عن فضائل كثيرة (البهاء – الجلال – الصلاح – النبل – القداسة) ... (الآخ للسماء والجسد للأرض) .

ولقد وصف أحد فصول كتاب الموتى (بردية آنى) نعيم الآخرة بصفات معنوية ، كما صور الفارق الكبير بين ظلمة المقبرة فى باطن الأرض ووحشتها ، وبين راحة النفس التى تنتظر الصالحين فيها (حقًّا إنَّها بغير ماء ولا هواء) ؛ عميقة مظلمة وقصية لا حد لها ولا نهاية ، ومع ذلك فيعيش الصالح فيها سعيد النفس ، فهى أرض لن تمارس فيها شهوات الجنس ، ويصبح الإنسان فيها (آخا) لا يحتاج إلى ماء ولا هواء ولا متعة الجنس ، ويوهب فيها راحة القلب بدلا من الطعام والشراب .

٥ - (**الآيب**) القلب : عضو مادى فى الجسم كذلك عبر به عن معانى العقل والضمير والإرادة والوجدان .. (إن قلب الإنسان هو حياته ونعيمه وسلامته) و (أن ما تراه العينان وتسمعه الأذنان ويشمه الأنف يرقى جميعه إلى القلب) .

والقلب هو الشاهد الذى يعتمد القاضى الأكبر (أوزوريس) على أقواله فيحكم على صاحبه ، إما بدخوله الجنة أو إلقائه فى النار ، واعتادوا تصوير القلب فى كفة الميزان وريشة العدالة فى كفته الأخرى ، ومن زادت أعماله الحسنة كان هو الذى يدخل جنة (أوزوريس) .

٦ - (**الاسم : رن**) : اعتبر المصرى القديم اسمه الشخصى جزءاً هامًّا من كيانه ، يتميز به فى دنياه ويتأكد به خلوده وسعادته فى أخراه ، فاهتم بتخليد اسمه على آثاره حتى يردده الأحياء بعد وفاته .. واعتقد أن ما يلحق باسمه من شرّ يلحق أيضاً بصاحبه .. وأن الإنسان يستطيع الإضرار بأعدائه أحياء كانوا أو موتى ، عن طريق الإضرار بأسمائهم بالمحو أو بالسحر . فقد كان الاسم من أهم عناصر صاحبه ، حتى أن (تحوتمس الثالث) عندما أراد الانتقام من (حتشبسوت) محا اسمها من فوق جميع آثارها .. وكذلك صنع إخناتون عندما أراد أن ينتقم من آمون ..

خلاصة القول عن
الحياة الآخرة والنفس عند الفراعنة [٧]

لعل أروع ما فى العقيدة المصرية القديمة ، اعتقادهم الحياة الآخرة ، وأنها الباقية بعد هذه الدنيا الفانية . فقد كانت هذه الدنيا فى نظرهم فترة قصيرة ، وبعدها حياة لها أمد غير محدود . بل إنَّ دنيانا ليست إلاَّ ممرا إلى ذلك الخلود ، وقد قام اعتقادهم بالحياة الآجلة بعد هذه العاجلة على أساسين .

أحدهما : إن هذه الدنيا معترك يتنازع فيه الشر والخير والبر والفاجر ، وكثيراً ما نرى فى هذا المعترك الشر ينتصر على الخير . والفساق على الأبرار . فلو لم يكن هناك يوم كله للخير . وكله على الشر ، يحاسب المسىء على إساءته ويكافأ المحسن بإحسانه ما استقام العدل الإلهى . فمن العدالة الإلهية إذن أن يكون يوم آخر ، يكون للأبرار على الفجار ، وللأطهار لا للأشرار ، وأن تكون الحياة الباقية لينتصر فيها الخير ، وينتصف فيها من الشر .

ثانيهما : اعتقادهم فى النفس الإنسانية فهم يعتقدون وجود نفس تنفصل عن الجسم ، وإن كانت تحلّ فيه . **وأن تلك النفس ذات أربع شعب** :

إحداها : الروح وهى أساس القوى فى الإنسان .

والثانية : العقل والإرادة .

والثالثة : صورة من الأثير أو مادة أدق على هيئة الجسم تماماً .

والرابعة : الجوهر الخالد السامى الذى يشترك فيه الإنسان مع الآلهة ، وهو

(٧) عن كتاب مقارنات الأديان – الديانات القديمة – الشيخ محمد أبو زهرة – دار الفكر العربى .

سرّ الوجود والعلوّ . وهذه الشعبة من شعب النفس متصلة بعالم الآلهة ما دام الإنسان على قيد الحياة ، فإذا مات اتّصلت به اتّصالا وثيقاً فأما الروح فهى التى تظل تتردد على الإنسان فى قبره إلى أن يجتاز الحساب . ويصل إلى مرتبة الثواب . وعندئذ تعود إليه فيشعر بما يشعر به الأحياء .

ولقد كانوا يعتقدون أن النفس لا تعيش إلا إذا كان الجسم سليماً ، وسلامته هى التى تجعله صالحاً لعودة الروح إليه بعد أن فارقته بالموت ، ولذا بذلوا أقصى الجهد فى سبيل المحافظة على الجسم . وجعله صالحاً لحلول النفس فيه بعد الموت . وقد بعث ذلك فيهم الحيلة لأن يخترعوا تحنيط الموتى وبقاء المومياء على هيئة من التماسك وعدم التحلل لكى تعود النفس إلى غلافها . ولقد اجتهدوا مع ذلك فى إقامة تماثيل للموتى تشبه أجسامهم تمام الشبه . لكى تحل فيها النفس إن كان الجسد غير صالح . وقد عدّدوا التماثيل للميت الواحد ، لأنه عسى أن يكون أحدهما غير صالح فيكون الآخر صالحاً ، ولكى تكون الروح فى فسحة من الأماكن ، فتنتقل من هذا إلى ذاك .

وكانوا يعتقدون أيضاً أن الميت أو روحه فى العالم الآخر يحتاج إلى ما يحتاج إليه الأحياء فى هذه الدنيا من طعام وشراب . وأن ما يقدم من ذلك فى الدنيا قرباناً على أرواح الأموات يفيدهم فى الآخرة . ولذلك تكون روح الميت فى أشد الألم إذا لم تقدم القرابين من طعام وشراب ، وما إلى ذلك من مطاعم الأحياء فى الدنيا .

ولهذه المعانى والخواص التى وصفوا النفس الإنسانية بها ، وللعدالة الإلهية التى تسود الأكوان ، اعتقد قدماء المصريين أنه لابد من حياة أخرى فيها النعيم المقيم للأخيار ، والعذاب الأليم للأشرار ، ثم إنه قبل أن يصل الميت إلى الثواب أو العقاب لابد من الحساب ، والحساب يكون أمام محكمة تتألف من اثنين

وأربعين قاضياً يرأسها (أوزيريس) نفسه ، وتسأل المحكمة الشخص عما قدم من خير ، وما قدمت يداه من شر. وقد خاض المؤرخون فى بيان الفضائل التى كانت تعد فضائل فى نظر المصريين فى هذا المقام ، وقوام هذه الفضائل سلبى ، دعامته عدم إلحاق الأذى والضرر بغيره من الناس ، وإيجابى دعامته نفع الناس وإطعام القانع والمعتر ، وإذا انتهى الحساب أمر المحاسب أن يمر على الصراط ، وهو طريق ممدود فوق الجحيم ، فإذا اجتازه الشخص نجا وارتقى إلى مرتبة الآلهة ، وإذا سقط من فوقه انتهى إلى واد فيه الأفاعى والحيات التى تتولى عقابه بقسوة ، حتى ينال الجزاء الأوفى على ما قدمت يداه .

ونرى من هذا أن الأبرار من الأموات يرتفعون إلى مرتبة الآلهة ، ولهذا سرى عندهم عبادة الموتى ، وأضافوا إليهم صفات الألوهية وخواصها فى نظرهم ، بل إنهم كانوا يعتقدون أن أرواح موتاهم تتصل بعالم الأحياء وتنبئهم بأسرار المستقبل ، فتحذرهم مما عساه يكون فى سبيلهم من أخطار ، وتبشرهم بما عساه ينالهم من خير ، وقد ملئت أساطيرهم بشىء كثير مما يؤيد اعتقادهم فيما يزعمون .

كتاب الموتى :

- هو كتاب مشتمل على آداب وفضائل ، وعلى ما تلقَّنْه الروح لتحسن الإجابة أمام محكمة الحساب ، وهو يعد الكتاب الأعلى عند قدماء المصريين . يتعبدون بتلاوته وهم أحياء ، ويوضع معهم فى قبورهم وهم أموات يزعمون أن أحد الآلهة قد كتبه بيده ، وقد جاء عن منزلة الكتاب فى أحد أبوابه « أن الكتاب يعلى شأن الميت فى أحضان (رع) ، ويَحْبُوهُ السَّبْق لدى (توم) ، ويجعله عظيماً لدى (أوزيريس) ، ومرهوب الجانب لدى الآلهة . وكل ميت وضع له

هذا الكتاب تخرج روحُه نهاراً مع الأحياء ، وتصعد إلى الآلهة ، ولا يعترضها عارض من أحد ، تدنيه الآلهة منها ، وتلمسه لأنه شبهها ، ويقفه هذا الكتاب على ما حدث منذ البدء . هذا الكتاب خفيّ . وهو حق لم يعلم به أحد . إنه ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت . إنه لا يراه أحد سواك . ومن علمك إياه فلا تزد عليه شيئاً من خواطرك وخيالك . بل قم بما يدعوك إليه وسط بهو التحنيط . إنه لا يصل إليه عامى . إنه غذاء الميت فى عالم الدنيا . وقوت روحه فى الأرض ، يجعله حيًّا دائماً فلا يعلو عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء » .

والكتاب مشتمل على جميع الكلمات السحرية التى تستعمل لعلاج الأمراض ، ويشتمل على الصلوات والأدعية ، وعلى ما يجب للميت من تحنيط ، وطقوس دينية ، ويحكى ما يقوله الميت الذى أقيمت له الطقوس التى يدعو إليها الكتاب ، فيقول « عندئذ يقول : تحية لك يا أبى أوزيريس لقد حنطت لحومى هذه ، ولن يتحلل جسمى ، فأنا كامل غير محسوس مقتدياً بك يا أبى أوزيريس ، حبَّذَا الإله فى صورة رجل لا يتحلل جسمه .

وفى الكتاب فصل قيِّم بما ينبغى أن تقوله الروح أمام محكمة الآلهة فى اليوم الآخر ، وقد سمَّاه شامبليون اعترافاً سلبيا ، وإليك بعضه : « يا سادة الحقيقة ، إننى حامل الحقيقة ، إننى لم أخُنْ أحداً ، ولم أغْدُر بأحد ، ولم أجعل أحداً من ذوى قرابتى فى ضنك ، ولم أقم بِدَنِيَّةٍ فى موئل الحقيقة ، ولم أمازج عملى بِشرٍّ قط ، وجافيت الضرّ والأذى ، ولم أعمل باعتبارى رئيس أسرة ما ليس من عمل ربها ، ولم أكن سبباً فى خوف خائف ، ولا إعواز معوز ، ولا ألم متألم ، ولا بؤس بائس ، لم أقدم على ما لا يليق بالآلهة فلم أجع أحداً ، ولم أبك أحداً ، ولم أقتل نفساً ، وما حرضت أحداً على قتل أو خيانة ، ولم أكذب . ولم أسلب المعابد ذخائرها ، ولا المومياء طعامها . ولم أرتكب أمراً لا يليق مع كاهن

فى كهنوته . ولم أغل فى الأسعار ، ولم أطفف الكيل والميزان . ولم أسرق الماشية من مرعاها ، ولم أطفئ الشعلة فى ساعتها . ولم أخدع الآلهة فى قرابينها المختارة . فأنا نقى ، أنا نقى ، أنا نقى » .

وجاء فى الكتاب أيضاً ما تقوله المحكمة عن الميت الذى تزكيه أعماله « ليس فيه شر ولا خطيئة ولا فساد ولا دنس ، وليس عليه اتهام . ولا فى أعماله ما يثير الاعتراض ، فقد عاش من الحق وتغذى بالحق ، وإن فعاله لتشرح الصدور ، وهى مما يطلبه الرجال ، ويسرّ الآلهة ، وقد أخلص للآلهة محبته . وأعطى الخبز من كان خاوياً ، والماء من كان صاديا ، واللباس من كان عارياً . وأعار الزورق لمن ليس عنده .... » .

ويقول جوستاف لوبون[8] فى التعليق على هذا الكلام : « ألا يظن من يقرأ هذا الكلام أنه يسمع صوت قرون سحيقة ، تتكلم من قبل بوذا والمسيح ، معلنة قانونها اللطيف للإحسان والنفع العام » .

وفى الحق أنه مهما تكن فى الديانة المصرية القديمة من أوهام وعقائد فاسدة ، ولا تستمد من المنطق قوتها . فإن الآداب التى اشتملت عليها والفضائل التى تدعو إليها . خصوصاً الجانب السلبى منها . كانت معيناً خصباً ، قبست منه الديانات غير المنزلة وحكمة الحكماء شيئاً كثيراً . لأنها لم تخل من خير يقتبس وحكمة تقتنص . ولله فى خلقه شئون .

---

(٨) مؤلف كتاب : مقدمة الحضارات الأولى .

الروح عند الهندوس[٩]

فى آسيا يعلم الناس الكثير عن الروح ، وعن عالم الروح ، وعن إمكان الاتصال بين عالمى الروح والمادة . ويعتبر أقدم الديانات فى العالم أجمع الآن هى الديانة الفيدية ، وهى الشكل الفطرى الأول للدين الهندوسى المأخوذ عن كتب الإله « فيدا Vedas » الأربعة المكتوبة باللغة السنسكريتية ، والمنسوبة إلى وحى نزل من السماء على براهما . وهذه الكتب هى ساما ، ورج ، وياجور ، وأثارفا . وتشرح الفيدات طبيعة براهما الإله الخالق الذى هو « أتما » أو النفس الخالدة فى الإنسان ، وتصور الكون كنسيج متطور مع كيان الله ، كما تجعل امتزاج الفرد مع الله صورة لامتزاج النفس مع الروح .

والفيدنتا تلخص الفيدات الأربعة ، وقد أعجبت كثيراً من مفكرى الغرب وفلاسفته . وقد وصفها المؤرخ فكتور كوسان قائلا : « إننا حينما نطالع بإمعان فلسفة الشرق – وخصوصاً الهندية منها – فإننا نقف على كثير من الحقائق العويصة التى تكرهنا على أن ننحنى إجلالاً للفلسفة الشرقية ، ونرى فى هذا المهد للجنس البشرى موطناً لأسمى ضروب الفلسفة ... » كما يقول فيها شبيجل : « إن أسمى فلسفة أوروبية وهى مثالية التفكير ، كما وضعها الإغريق تبدو – متى قورنت بالحياة والنشاط الزاخرين للفلسفة الشرقية المثالية – كبصيص ضوء مقابل فيض كامل من ضوء الشمس .. » .

وهى مؤسسة على عقيدة خلود الروح ، والعودة إلى التجسد أو رجعة

---

(٩) الإنسان روح لا جسد للدكتور رءوف عبيد .

الروح ، والإيمان بإله واحد ، وبالسماء التى تصعد إليها الأرواح الصالحة فيتلقاها « ياما » الذى يرفعها إلى الجنة حيث تنعم بكل اللذائذ الأرضية التى تكون قد اكتملت وأصبحت أبدية . وقد وصف أحد هذه الكتب السماء الفيدية بأنها « المقام المقدس والمقر النهائى للآلهة الخالدة ، وموطن الضوء الخالد الذى هو الأصل ، والقاعدة فى كل ما هو كائن . وحيث تتحقق الرغبات بمجرد أن تنشأ » . وهذا الوصف هو تقريباً ما تصف به الكتب الروحية الحديثة عالم الأثير ، مع أن كتب فيدا هذه تتجاوز فى قدمها حتى تاريخ الفراعنة الأقدمين ، مما يحمل على الاعتقاد بأن وسطاء الهندوس ، قد تلقوها بدورهم عن طريق الإلهام من أرواح راقية ، تقيم فى عالم الأثير بحسب الوصف الحديث .

والديانة البرهمية غاصة بالحقائق الصحيحة الكثيرة فى حياتها الأرضية والسماوية ، وبالنصائح الخلقية التى يؤدى اتباعها إلى خلاص الروح فى حياتها معاً ، وإلى استحقاق النعيم فى عالم الملكوت ، كما تؤمن بأن الروح الإنسانية نفحة إلهية ، وأن الموت يعطى الروح جسداً شفافاً نورانيًّا ينتقل إلى الملأ الأعلى ، وأن هذا الجسد وإن كان ماديًّا فى مظهره ، إلا أنه من طبيعة غير ترابية ، بل أرقى من أجسادنا الفانية ، وفى علم الروح الحديث ما يتفق مع هذه المعانى أيضاً . وتؤمن المذاهب السائدة فى البوذية بوجود جنات حول جبل « ميرو » الذى سفحه من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة ، ومقسم إلى عدة طبقات ، فى كل طبقة أهلها من الصالحين على حسب درجاتهم ، وفوقها جنات أخرى كثيرة ، حتى تنتهى إلى جنة علوية فى السماء ، يحيا فيها الأبرار فى سعادة مطلقة .

يعد مذهب اليوجا الهندى بوجه خاص من المذاهب الشرقية الهامة فى الفهم

العميق للروح ، إلى حد أنه يثير دائماً اهتمام الباحثين الروحيين فى الغرب والشرق عند معالجة موضوع الأرواح . والإيمان بالروح وبالخلود يبلغ ذروته عند أتباع هذا المذهب بوجه خاص ، بما يستتبعه الإيمان من وجوب اتباع أنظمة صارمة من الزهد والتقشف وضبط النفس ، للوصول إلى المواهب الروحية القوية ، حتى أن جبابرة الروح فى الهند ممن يحققون الخوارق الوساطية التى تحير ألباب علماء الغرب ، يكثرون عادة من أتباع هذا المذهب ، الذين لا يصرفهم شيء من أعراض الدنيا الزائلة عن مشاغلهم الروحية .

ويروى المؤرخون أن الإسكندر الأكبر عندما ذهب إلى الهند فاتحاً ، أراد عندما وصل إلى تاكسلا بشمال الهند أن يرى (دندامس) المعلم اليوجى الهندى العظيم ، فبعث إليه (أونسكريتوس) أحد طلبة مدرسة (ديوجينس) الإغريقية ليأتيه به . وقال (أونسكريتوس) بعد أن عثر على (دندامس) فى مخبئه فى إحدى الغابات « تحية وسلاما ، أى معلم البراهمة .. إن الإسكندر ابن الإله العظيم (زفس) ، وسيد الخلق أجمعين ، يطلب منك أن تذهب إليه . فإن فعلت أجزل لك العطاء ، ولكن الويل لك إن أبيت فسوف تدفع رأسك ثمناً لهذا الإباء » .

وتلقى الحكيم اليوجى هذه الدعوة الإرهابية برباطة جأش ورد عليها ردًّا طويلا ساخراً نقتطف منه ما يلى : « إن الإسكندر ليس إلهاً ، إذ هو لابد ذائق الموت ، وكيف يكون مثله سيداً للكون فى حين أنه لم يتربع بعد على عرش السلطان الداخلى ، ولم يدخل للآن حيًّا إلى الهاوية ، ولا يعلم سير الشمس فى أقطار الأرض الوسطى ، ولم تسمع الدول المتاخمة ولو قدراً يسيراً عن اسمه ؟ » ..

ثم استطرد الحكيم الهندوسىّ قائلا « وإذا أطاح الإسكندر برأسى فلن يقوى

على تحطيم نفسى . ورأسى الذى يصمت سوف يبقى ويخلف الجسد كرداء ممزق على الأرض التى جبل منها . وكروح أصعد حينئذ إلى الله الذى سوّانا جسداً . ووضعنا على هذه الأرض لكى نثبت له فى وجودنا عليها ما إذا كنا نحيا فى طاعته ، والذى يتطلب منا حينما نقف أمامه أن نقدم حساباً عن أعمالنا ، إذ أنه ديان جميع المعاصى ، كما أن أنّات المظلوم ستصبح عقاباً للظالم .

دع الإسكندر يرهب بهذا الوعيد أولئك الذين يطمعون فى الثراء أو يخشون الموت ، اللذين هما سلاحان مفلولان بالنسبة لى . فالبرهميون لا يتعشقون الذهب ولا يرهبون الردى . اذهب وقل للإسكندر : إن (دندامس) ليس بحاجة إلى شىء من مالك ، وبالتالى يرفض أن يجىء إليك . أما إذا كنت فى حاجة إلى (دندامس) فتعال أنت إليه » .

وتلقى الإسكندر بانتباه عميق جواب اليوجى على لسان (أونسكريتوس) وأحسّ برغبة متزايدة فى رؤية (دندامس) الذى كان برغم عريه وتقدمه فى السن الخصم الوحيد الذى وجد فيه مدوخ الأمصار ندًّا حقيقيًّا[10] ، وهو فى الواقع الروحى أكثر من ند بكثير .

وعموما فهناك مبادئ ثلاثة تؤثر أعمق الأثر فى العقلية الهندية[11] :

المبدأ الأول : تجوال الأرواح : فالهنود يعتقدون أن الأرواح جائلة متنقلة فى أطوار شتى من الوجود ، وفى طريقها إلى هدفها الأخير تنتقل من جسد إلى جسد سواء أكان إنساناً أم حيواناً – وهذا المبدأ يعرف عادة بتناسخ الأرواح .

---

(١٠) « فلسفة الهند فى سيرة يوجى » للحكيم برمهنسا يوجا ننده ترجمة الأستاذ زكى عوض المحامى ٤١٢ – ٤١٤ .

(١١) عن كتاب : مقدمة فى أصول النظم الاجتماعية والسياسية للدكتور أحمد عبد القادر الجمال طبعة أولى سنة ١٩٥٧ – مع بعض التصرف .

المبدأ الثانى : الأعمال : يعد هذا المبدأ متمماً لمبدأ تجوال الأرواح . وهو لا يعلل فقط حقيقة أدوار الميلاد المتكررة التى تنتقل فيها الأرواح ، بل يبين أيضاً شرائط هذا الميلاد وما يستتبع ذلك من عدم المساواة الصارخة فى المصير البشرى . يقوم هذا المبدأ على أن كل عمل يأتيه الإنسان له ثمرته حتمًا ، وأن كل شىء يقابله الإنسان فى كل طور من أطوار الوجود المتكررة تقرره الأعمال التى يأتيها فى الوجود السابق وهى بمثابة كفارة .

وقد عرف الهنود الآريون كما عرف العبرانيون فيما بعد ، أن الجزاء فى هذه الحياة الحاضرة لا ينسجم مع الإنسان وأخلاقه ومولده وثروته وسعادته وآلامه — كلها — جماع الجزاء الذى تستحقه أعماله التى أتاها فى وجود سابق صالحة كانت أو شريرة .

المبدأ الثالث : الانطلاق : ومعناها محاولة النفس الإفلات من دورات تجوالها ونتائج أعمالها ، فالحياة الشخصية فى عرف القوم شر وخداع ، أما الحياة الحرة فهى استجلاء طَلْعَة : (براهما) التى لا تكتسب إلا بالاندماج فيه . وهدف الحياة الأسمى هو الانطلاق من دورات الوجود المتوالية والاندماج فى الكائن الأسمى .

الروح عند الصين واليابان(١٢)— الكونفوشيوسية والبوذية

وهذين الشعبين يختلفان عن الشعب الهندى فى النظر إلى مسألة الروح ، فالهندى يتميز بالانغماس فى الأشياء الروحية والتفكير العميق فى الله ، فالدين هو الذى يُشرِّع فى الهند ، أما فى الصين واليابان فإن العقل هو الذى يشرع لهما ،

(١٢) المصدر السابق .

فالأديان الثلاثة الشائعة عندهما هي الكونفوشيوسية والبوذية والتآورزمية .. وقد يعتنق الفرد الأديان الثلاثة في وقت واحد ، ولكن الدين في الصين قبل عصر كونفوشيوس (أي قبل القرن السادس قبل الميلاد) كان يقوم على ثلاثة أصول هي : عبادة الإله الأسمى - عبادة الأسلاف - عبادة الأرواح .

وكان للإمبراطور وحده حق عبادة (شغتاي) الإله الأسمى - نائباً - عن شعبه .. أما الدين الحقيقي لشعب الصين فكان عبادة الأسلاف ، والأرجح أن هذه العبادة كانت أولا ضرباً من ضروب تكريم الميت بعد الوفاة . أما ما يهمنا من هذه العبادات الثلاث فهو عبادة الأرواح . وهي عبادة لم تغب قط عن بلاد الصين .

كما لم تنفصل أبداً عن أسمى ما فيها من عبادات ، فإلى جانب عبادة الإمبراطور للإله (شغتاي) ترى لوحات تمثل الأباطرة السابقين ، ولوحات غيرها تمثل الشمس والقمر والنجوم والغيوم والأمطار والرياح ، موضوعة إلى جانب لوحة الإله العظيم أو في مقام منخفض عنها .. وهو أمر نعرف منه كثيراً عن حقائق الروح والخلود والصلات بين العالَمَيْن .. لكن كونفوشيوس كانت تعاليمه الخمسة هي : رعاية العلاقة بين الأمير والرعية - العلاقة بين الأب والابن - علاقة الأخ الأكبر بالأخ الأصغر - علاقة الزوج بزوجه - علاقة الصديق بصديقه .

ومن أقواله : « لم نتمكن حتى الآن أن نؤدي واجبنا نحو الإنسان فكيف نؤديها نحو الأرواح ؟ » لذلك نجده قد أبى أن يصرح بشيء عن الحياة بعد الموت ، حتى لا يخوض في أمور لا يدريها .

وفي اليابان نجد أن البوذية منتشرة بها ومتمثلة في طوائف عديدة ، وقد تطورت تلك الطوائف وهي طائفة الشنتوية التي تعد أكبر وأنشط الطوائف

البوذية اليابانية ، وهى تعتبر بوذا « جوهراً إلّهيًّا حالا فى الكون ومتمثلا فى أوضاع مجسمة شتى » .

* * *

وفى الصفحات التالية رأينا أن نقدم للقارئ ماكتبه المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه مقارنات الأديان عن آراء بوذا فى النفس والروح ومذهبه فى ذلك الوقت الذى يدين به أكثر من سدس سكان العالم . يقول المرحوم الشيخ :

آراء بوذا والإلهيات : (١٣)

ثبت أن بوذا كان عاكفاً على دراسة واحدة هى التى جعلها عماد نظره ، وقوام بحثه ، والأساس الذى بنى عليه ديانته ، أو بعبارة أدق مذهبه الخلقى ، وتلك الدراسة كان موضوعها تخفيف ويلات الإنسانية ، والقضاء على الشقاء فى هذه الحياة ، واجتثاثه من أصله .

ولكن قوماً من الباحثين ادعوا أنه أنكر حقيقيتين ، وهما : الألوهية ، والنفس الإنسانية .

أما الأول فقد زعم بعض المؤرخين أنه روى عن بوذا أنه أنكر وجود إله أنشأ الأكوان . ويقولون أنه كان يقول : وما الإله ؟ أهو العناصر نفسها ؟ لئن كان ذلك ، ماكان فى الأمر جديد غير وضع اسم على شىء ، ويقول أنصار ذلك . إنه كان يعتقد أن فى العالم فقط روحاً عامًّا متغَلغلا فى كل شىء

وأن الذى نعتقده أن بوذا لم يتعرض للبحث فى الألوهية بسلب أو إيجاب ، وأن مذهبه إصلاحى اجتماعى خلقى أكثر منه دينى ، ولذا لم يتعرض للاهوت ،

(١٣) من كتاب مقارنات الأديان للشيخ محمد أبو زهرة .

ولعل العبارة التى وردت فى بعض الروايات كانت فى أثناء حيرته وهو منهمك فى الأدغال والأحراش ، هائم على وجهه يطلب الحقيقة ، بل إن العبارة يبين من لحنها واستفهامها أنها عبارة شاك متحير لا عبارة منكر جاحد . إن أولئك الذين يعتمدون على تفكيرهم الخاص فى الوصول إلى الحقيقة يعتريهم مثل ذلك الاضطراب .

والمذهب لا يؤخذ من قول المفكر عند حيرته ولا من عبارة تلقف عنه ، بل المذهب ما يستقر عليه الشخص ، ويتجه إليه ، ويدعو الناس لاعتناقه ، ولم يدع أحد أن ذلك كان جزءاً من مذهبه وآرائه ، دعا الناس إليه ، بل إن منتحلى نحلته كانوا جميعاً يؤمنون بقوة مسيطرة على العالم ، ولم يمنعهم ذلك من أن يجمعوا بين عقيدتهم ومذهبه ، وإذا كان من متبعيه من نحله أوصاف الإله ، فذلك دليل يظن أنه ليس من دعايته إنكار الإله .

وأما إنكار النفس ، فقد ورد أيضا منحولا له ، ولكن ذكرته أكثر المصادر ، فهو أقوى سنداً من الإنكار الأول ، وأصدق نسبة ، ولكنه لا يتلاءم مع جملة أفكارهم ، وخلاصة ما ينسب إليهم ، ومما ينسب إليهم بلا ريب فى نسبته (التناسخ) والتناسخ لا يفهم إلا إذا كان للنفس كون قائم مستقل عن الجسم ، وليست خاصة له ، ولا ظاهرة من ظواهره . وبيان ذلك أن التناسخ يقتضى أن يكون شيئا متنقلا من جسم إلى جسم ، حتى يصعد فى مدارج الرقى أو يكفّر عن الخطايا بالنزول فى جسم أدنى ، ونحو ذلك وغير جائز أن يكون ذلك الشىء جسيماً ، لأنه لا معنى لانتقال جسم حى فى جسم آخر حى ، إلا إذا كان أحدهما خاصة ليست فى الأول ، وهى غير الحياة لأن كليهما فيه الحياة ، فلابدّ أن يكون ذلك معنى نفسيًّا .

ولهذا رأى بعضهم لكى تتلاءم فكرة التناسخ مع فكرة إنكار النفس ، أن

يقول : إن النفس غير موجودة ، ولكن هناك رغبة هى التى تنتقل من جسم إلى جسم ، ومن حى إلى حى ، تبعاً لقانون التناسخ ، وهذا فرض لا يمنع الاعتراض الوارد ، والتناقض الواقع ، لأن هذه الرغبة هى خاصة للجسم ، أو هى شىء غير الجسم ؟ فإن كانت غير الجسم ، فهى النفس سواء أسموها رغبة أو نفساً ، وبذلك يعود هذا على أصلهم بالنقض ، ويؤدى كلامهم إلى نقيض ما يدعون ، ويهدمون بيد ما يبنونه باليد الأخرى .

وإن كانت الرغبة خاصة من خواص الجسم ، ولا زمة من لوازمه ، فكيف تنتقل إلى جسم آخر ، وهى خاصة من خواص غيره ؟ ذلك يقتضى أن ينتقل الجسم مع رغبته الخاصة به ، لأنه من غير المعقول أن يوجد ملازم من غير ملزومه والخاصة من المختص بها .

لهذا كله نقول : إنكار بعضهم للنفس يتنافى مع اعتقادهم التناسخ الثابتة نسبته لهم ، والتوفيق بينهما يؤدى إلى أمور لا يقبلها العقل ، أو يؤدى إلى هدم أحد الأمرين : اعتقاد التناسخ أو إنكار النفس .

المذهب البوذى العملى :

الجزء الخصب فى البوذية هو مذهبها فى الأخلاق وإصلاح المجتمع وتخفيف ما فيه من شقاء ، فلقد لاحظ بوذا أن هذه الحياة تحوطها الأكدار والآلام من كل جانب ، بل إنها آلام تتبعها أحزان تشقق المرائر ، وتجعل كل إنسان فى نغص دائم وبلبال مستمر ، ولاحظ أن منشأ تلك الآلام التى طم سيلها فى هذه الحياة – اللذات والأمانى التى تبعثها الرغبات التى استحوذت عليها الملاذ والشهوات .

فاللّذات فى عقباها آلام ، وإن تطلعت النفس إليها وتمنتها كان فى الحرمان

منها آلام أيضاً . فلولا انبعاث اللذات ماكانت الآلام ، ولولا استهواء الأماني التي تبعثها اللذات ماكانت آلام الحرمان ، لذلك كان لابد لمحو الآلام القضاء على أصلها ، والنبعة التي نبعت فيها ، وذلك يكون بالقضاء على اللذات وآمالها وأمانيها ، ولا يتم هذا إلا إذا راض الشخص إرادته على هجر اللذات جملة ، ومجاهدتها ليكون للإنسان القدرة التامة ، فلا يناله الحرمان من لذة بمضض الألم .

لهذا كله كان العماد الذي أقام عليه بوذا مذهبه في السلوك القويم للإنسان أن يجاهد الشخص الشهوات ، ويروض إرادته والعود أخضر على اللذات والصبر على الحرمان منها ، فلا يكون ألم .

ولكي يصل الشخص في يسر ومن غير عنف ، إلى تلك الغاية السامية ، وهي رياضة الإرادة لكي يتحمل الحرمان من غير ألم يصحبه ، يجب عليه سلوك الجادة المستقيمة والممر الوسط ، وذلك بأن يكون في حياته كلها مقيدا نفسه بثمانية أمور في كل شأن من شئون الحياة ، وتلك الثمانية هي :

(ا) الاتجاه الصحيح المستقيم ، بأن يتجه إلى أي أمر يريده اتجاهاً صحيحاً مستقيماً خالياً من كل سلطان للشهوة واللذة ، وما تبعته من أمانٍ وأحلام فاسدة ، فيجتهد عند الاتجاه إلى أي أمر في أن يخلص إرادته من شائبة اللذات أو الشهوات ، وما يتصل بها من آمال تبعثها وأحلام تثيرها ، وفي الجملة ينقي نفسه من كل ما يتصل باللذة عند الاتجاه .

(ب) الإشراق الصحيح المستقيم ، وذلك أن الإنسان عند الاتجاه إلى أمر من الأمور اتجاهاً مستقيما خالياً من شوائب اللذات ، تعتريه نورانية تجعله يستطيع الوصول إلى حقائق الأشياء من غير أن يرنق نظره أي درن من أدران اللذة ، ولا يرين على عقله ما تثيره من أهواء .

(جـ) التفكير الصحيح المستقيم : وذلك أن العقل إن خلا من شوائب اللذة ، ونال الإشراق الصحيح كان تفكيره مستقيماً ، وكانت العمليات العقلية التى يقوم بها فى التفكير فى هذا الأمر مستقيمة لا تؤثر فيها نزعة هوى ، ولاجموح شهوة ، ولا اضطراب الأمانى والأحلام فى قلبه .

(د) ولا شك أن هذه المستقيمات الثلاثة السابقة : الاتجاه المستقيم والإشراق المستقيم ، والتفكير المستقيم يترتب عليها أمر رابع مستقيم ، وهو اطمئنان العقل والقلب إلى فكرة خاصة من بين ما يعرض لها من الأفكار والآراء والأنظار . وذلك هو الإيمان المستقيم ، أو الاعتقاد المستقيم الذى يصحبه ارتياح واطمئنان ، وبه يصير القلب فى روح وريحان من النعيم المعنوى .

(هـ) والذى يتمم الأمور الأربعة السابقة لفظ مستقيم ، وذلك بأن يكون نطق الإنسان بما انتهى إليه من فكره مطابقاً تمام المطابقة لاعتقاده ، ولما ارتاح إليه ، وعمر قلبه بالسرور به .

(و) السلوك المستقيم : وذلك هو الأمر السادس الذى لابد منه لسلوك الممر الوسط ، والسلوك المستقيم ما يكون مطابقاً لكل ما قام بالقلب من اعتقاد ، فيكون العمل على وفق العلم ، فلا مجافاة بينهما ، ولا مناقضة ، بل يكون كل منهما مؤكداً للآخر أو متمماً له .

(ز) الحياة الصحيحة : بأن يكون قوامها هجر اللذات هجراً تامًّا ، وأن يكون كل ما يجرى فيها متطابقاً مع السلوك القويم ، والعلم الصحيح ، ولا يشذ فيها شىء عن مقتضى هذا السلوك ، وأحكامه .

(ح) الجهد الصحيح : وذلك بأن تكون كل الجهود التى يبذلها الإنسان فى سبيل أن تكون الحياة مستقيمة سائرة على مقتضى السلوك ، والعلم والحق ، ومنع كل ما له صلة باللذات ، أو من شأنه أن يثير دواعيها ، ويحفز إليها .

هذه هى الأمور التى لو تمت على وجه مستقيم سار الشخص على الجادة ، وسلك الممر الوسط الذى يوصل إلى حياة سعيدة ، خالية من الآلام خلوها من دواعيها ، وهى الشهوات واللذات .

وإذا كان فى هذا الكلام شيء من الخير ، فهو فى مقاربته فى بعض نواحيه إلى ما يرمى إليه الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم ، حتى يحب الشيء لا يحبه إلا لله » بأن يحب الشيء خالياً فى محبته له من كل شوائب الأغراض والأهواء قاصداً بمحبته وجه الله سبحانه وتعالى ، وذلك فى جملته يقرب منه فى الاتجاه الصحيح ، وإن كان معنى الحديث أسمى ، وأدق ، وأحكم .

وإذا كان ما تقدم هو لب الفضائل البوذية ، وما تدعو إليه من مجاهدة اللذات وبواعثها ورياضة الإرادة على تركها جملة ، فالرذائل ترجع إلى أصول ثلاثة.. وهى :

(ا) الاستسلام للملاذ : فإنه يجعل الحياة كلها فى ألم مستمر ، وفوق ذلك يعكس نظر الأشياء فى العقل والقلب ، فكل نظر يكون مغشياً بغشاوة من الشهوات والرغبات والأحلام الفاسدة ، والأمانى الكاذبة التى تبعث إليها اللذات الملحّة .

(ب) سوء النيّة فى طلب الأشياء : وذلك من استمكان اللذات فى النفس ، فإن الغرض الفاسد يتحكم فى طلب الإنسان للأشياء ، فلا يصير واضح المقصد بين الغاية لما له من مآرب يطلبها ويسترها ، وغايات تدفعه ولا ينالها ، ويدفعه إلى الكتمان رغبة نيلها ، وتوقع الاعتراك بينه وبين غيره فيها ، لذلك يسود سوء النية ، فهو إذن وليد استمكان اللذة فى القلب ، واستيلائها عليه ، وهو أيضاً أصل لكثير من الرذائل كالغش والكذب والنميمة وغير ذلك .

(جـ) الغباء وعدم إدراك الأمور على الوجه الصحيح : وفى أكثر الأحيان يكون ذلك منشؤه من رين الشهوات على النفس ، وسدها سبيل الإدراك

الصحيح ، فيصبح العقل لا يرى إلا ما تعكسه عليه ، ويمتنع على النفس الإشراق الذى ينشأ من التجرد من الملاذ ، والإلهام الذى يكون من الشهوات .

وقد ذكر فى كتب البوذية عشر رذائل ، جاء النهى عنها فى تلك الكتب على صورة وصايا ، وهى لو أخذ الشخص نفسه بها ، ورعاها حق رعايتها ، كان فى الأخذ بها استيلاء تام على الإرادة ، وتلك الوصايا .

(ا) لا تقتل أحداً ، ولا تقض على حياة حى .

(ب) لا تأخذ ما لا يقدم إليك ، فلا تسرق ولا تغتصب .

(جـ) لا تكذب ، ولا تقل قولا غير صحيح .

(د) لا تشرب خمراً ، ولا تتناول مسكراً ما .

(هـ) لا تزن ، ولا تأت أى أمر يتصل بالحياة التناسلية إذا كان محرّماً .

(و) لا تأكل طعاماً نضج فى غير أوانه .

(ز) لا تتخذ طيباً ، ولا تكلل رأسك بالزهر .

(ح) لا ترقص ، ولا تحضر مرقصاً ولا حفل غناء .

(ط) لا تقتن فراشاً وثيراً ، فلا تقتن أرائك فخمة ، ولا وسائد ولا حشايا وثيرة .

(ى) لا تأخذ ذهباً ولا فضة .

هذه هى الوصايا العشر التى يأخذ بها البوذى ليروض إرادته على ترك الملاذ ، والعكوف على المجاهدة وتهذيب الذات ، وتخفيف ويلات الحياة ، ومنها ترى أنهم يحثون على عدم أخذ الذهب والفضة ، كأنهما الأمر الذى تضل عنده الأفهام ، وتستيقظ حوله المطامع وكأنهما مدخر اللذة ، لاستعانة الناس بهما فى اجتراع اللذات ، واجترار الشهوات ، ولهذا النهى عن اقتناء الذهب والفضة قال العلماء : إنّ البوذية تحث على عدم الملك ، وتطالب البوذى

ألا يملك شيئاً ولا يقتنى شيئاً ، فهو يطلب طعامه يوماً بعد يوم ، ولا يدخر من يومه إلى غده .

ولقد كان هذا سبباً فى أن ينقسم البوذيون إلى قسمين :

أحدهما : البوذيون الدينيون الذى أخذوا أنفسهم بالتعاليم السابقة لا يحيدون عنها قيد أنملة ، وقيدوا أنفسهم بأنواع من الأطعمة لا يعدونها ، ويحرمون كل شيء غيرها ، ولا يلبسون إلا خشن الثياب ولا يرضون إلا جشب العيش ، لما راضوا أنفسهم عليه ، من ترك كل لذات الحياة وراءهم ظهريًّا ، ليستولوا عليها ويمتنعوا عن آلامها .

ثانيهما : البوذيون المدنيون : وأولئك هم البوذيون الذين لم يطيقوا تطبيق المنهاج الشاق الذى أخذ به الدينيون منهم ، فاختاروا لأنفسهم طريقاً وسطاً ليس فيه إفراط غير البوذيين فى اللذات ، ولا شدة البوذيين الدينيين بل هو وسط بين النجدين ، أخذوا الأخلاق البوذية من تواضع وإيثار ، وحب للفداء وصدق وأمانة وحلم وعلم وصفاء ، ونالوا بعض الملاذ التى لا تعقب ألماً ، ولم يندفعوا فيها حتى يصابوا بألم عند الحرمان[١٤] ، وفى الوقت الذى سلكوا فيه هذا المسلك آووا إخوانهم الدينيين ، وأعانوهم على طريقتهم ، وأمدوهم بالأسباب التى تعاونهم على الإيغال فى مذاهبهم ، معتقدين أن من آمن ببوذا ، وتحلى بما يدعو إليه من أخلاق وآوى رجال دينه ، وأعانهم ثم تناول بعد ذلك بعض متع هذه الحياة ، فإنه يصل إلى طريق الخلاص ، ويرقى إلى مرتقى السعادة والنجاة .

ما بين البرهمة والبوذية : يتبين مما مضى أن البوذية لم تعن بالبحث عما وراء

(١٤) ولقد اكتفى المدنيون بأن يطيعوا من النواهى العشرة المتقدمة الخمسة الأولى فقط وهى النواهى عن السكر والزنا والقتل ، والسرقة ، والكذب ، أما الخمسة النواهى الأخرى فهى خاصة بالمتدينين .

الطبيعة ، فلم تتجه إلى الدراسات التى تتصل بالألوهية ، وحدود سلطانها بل كل عنايتها كان لإصلاح الإنسانية بإنقاذها من الآلام ، وإبعادها عن ويلاتها » برياضة الإنسان على هجر اللذات ، وتربية الإرادة على إهمالها وعدم العناية بها على ما تقدم ، وهذا كما ترى فارق بين البوذية والبرهمية ، فإن البرهمية كانت فيها العناية الكبرى بالجانب الإلهى . والتقرب للمعبود ، والفناء فيه ، وكل ما فيها من نسك فهو لهذه الغاية ، فإذا اتحدت البوذية والبرهمية فى النسك والزهد فى الملاذ وهجرها ، فالغاية مختلفة ، فغاية البرهمى الزلفى والتقرب للمعبود وإعطاؤه ما يستحق من عبادة ، أما البوذى فغايته من النسك رياضة الإرادة على الحرمان ، وتعويدها السيطرة على الرغبة فى الملاذ ، لكيلا تشق بطلبها ويحز فيها الحرمان .

ولقد كان أبلغ ما أحدثته البوذية من أثر فى المجتمع الإنسانى ، إلغاؤها نظام الطبقات واعتبارها بنى الإنسان سواسية كأسنان المشط يتفاضلون فى المواهب ، ويتساوون فى الحقوق ، لا فرق بين شخص وشخص بنسبه أو طبقته ، ولكن الفرق بينهما بالموهبة والقدرة والعمل . محا بوذا إذن الفرق بين الطبقات وتلاقى الناس فى مذهبه عند الوحدة الإنسانية ، من غير اعتبار للاختلاف العنصرى ولا فضل لأحد إلا بالمعرفة وسيطرة الإرادة الإنسانية سيطرة تامة ، لا تقوى اللذات على الغلب عليها .

كتب البوذية : كتب البوذيين ليست منزلة ، ولا يدعون ذلك هم ، بل هم لا ينسبون ما فيها إلى جانب إلهى ، بل هى عبارات منسوبة إلى بوذا أو حكاية لأفعاله أو نقل لما أقره من أعمال أتباعه ونصوص تلك الكتب مختلفة بسبب انقسام البوذيين فى نحلهم ، فبوذيو الشمال لديهم نصوص ليست عند أهل الجنوب ، وأكثرها قد اشتمل على أوهام كثيرة ، تتعلق ببوذا ، أو حلول الإله

فيه ، ونصوص بوذيي الجنوب هى الأصح نسباً ، والأصدق قولا والأبعد عن الأوهام ، وهى التى نعتمد على بيانها .

تنقسم **تلك الكتب إلى ثلاثة أنواع** :

أولها : يشتمل على مجموعة قوانين البوذية ومسالكها ، وقد جمعت تلك المجموعة سنة ٣٥٠ ق . م ، وهى تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

قسم يحوى العقوبة المفروضة على ما يقع من البوذى من ذنوب ومخالفات ، ويحوى نحو سبع وعشرين ومائة فقرة .

وقسم يحوى التعاليم التى يجب اتباعها لتربية النفس على ما يدعو إليه البوذيون ، وفيه قرارات المجالس البوذية التى انعقدت فيما بين سنتى ٣٨٠ و ٣٢٠ ق . م وفيه أيضاً بيان بما يتبع لقبول طالبى البوذية واجتماعات البوذية ، وتفاصيل حياة البوذى .

وقسم فيه خلاصة القسمين الماضيين ، لكونه فى متناول الجماهير ، وفيه خلاصة للسلوك القويم الذى يدعو إليه البوذيون .

ثانيها : مجموعة الخطب التى ألقاها بوذا ، ووصاياه ، وهى مجموعات مختلفة تضم كل مجموعة طائفة من المسائل المتقاربة فى الفكر ، وفى هذه الخطب وصايا بوذا ، ودعواته التى وجهها إلى الناس وكثير من الأحكام التى تتصل بالبوذية مما يجب على البوذية سلوكه ، وكل هذه الخطب والوصايا تنسب لبوذا .

ثالثها : الكتاب الذى يحوى بيان أصل المذهب ، والفكرة التى نبع منها ، وبعبارة أدق فيه الفلسفة التى قامت عليها الديانة البوذية ، والأصل الذى استنبطت منه تعاليمها ، وفيه بحوث تدور حول الخير والشر ، واللذة والألم ، وفى الجملة نرى فى كتب البوذية كلاماً خصباً قيماً فيه بيان للأخلاق والسلوك القويم ، وقد ترجمت إلى اللغات الحية وكانت مادة لدراسات فلسفية خلقية .

خلاصة القول عن
النفس ، خلودها ، وتناسخ الأرواح عند البراهمة

النفس فى نظر البراهمة[١٥] : جوهر خالد صاف عالم مدرك تام العلم والإدراك ما دام منفصلا عن الجسد ، فإذا فاض على الجسد واتصل به اعتكر صفاؤه ، ونقص علمه ، ولذا يقول باسديو كما نقل البيرونى « إذا تجردت النفس عن المادة كانت عالمة ، فإذا تلبست كانت بكدورتها جاهلة ، وظنت أنها الفاعلة ، وأن أعمال الدنيا معدة لأجلها . فتمسكت بها ، وانطبعت المحسوسات فيها ، فإذا فارقت البدن كانت آثار المحسوسات فيها باقية ، فلم تنفصل عنها بالتمام ، وحنت إليها وعادت نحوها .

وهذه النظرية التى تقرر أن النفس عالمة قبل اتصالها بالجسم تقارب نَظرية أفلاطون فى المثل العليا فى النفس ، وربما كانت أصلا لها ، فالعلم لا يقع فى قبضة أحد ، بل هو يتنقل فى البلاد والأمم تنقّل الرياح والأمطار فيها ، لا تقف دونه الحاجزات ، ولا تسد الطريق عليه سدود من حدود وحصون .

والنفس عندهم خالدة باقية لا يعروها الفناء . ولا يتطرق إليها البلى ، ولقد صرحت بذلك كتبهم ، وهذا ما نقله البيرونى يشهد بما نقول : قال باسديو لأرجن يحرضه على القتال . وهما بين الصفين : إن كنت بالقضاء السابق مؤمناً فاعلم أنهم ليسوا ، ولا نحن بموتى ولا ذاهبين ذهاباً لا رجوع معه ، فإن الأرواح غير مائتة ولا متغيرة ، وإنما تتردد فى الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى

(١٥) الشيخ محمد أبو زهرة – مقارنات الأديان – الأديان القديمة .

الشباب والكهولة ، ثم الشيخوخة التى عقباها موت البدن ، ثم العود له . وقال له أيضاً : «كيف يذكر الموت والقتل من عرف أن النفس أبدية الوجود لا عن ولادة ، ولا إلى تلف وعدم ، بل هى ثابتة قائمة ، لا سيف يقطعها ، ولا نار تحرقها ، ولا ماء يغصّها ، ولا ريح تُوبسها ، لكنها تنتقل من بدنها نحو آخر كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق ، فما عملك لنفس لا تبيد» .

ومن هذا النص يفهم أن عقيدتهم فى النفس أنها لا تبيد ، وأنها تنتقل من جسم إلى جسم ، ومن ذلك جاء اعتقادهم فى تناسخ الأرواح ، وهو الطابع الذى امتازت به الديانة البرهمية ، حتى لقد قال فى ذلك البيرونى : «كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين ، والتثليث علامة النصرانية ، والأسبات علامة اليهودية ، كذلك فإن التناسخ علم النحلة الهندية من لم ينتحله لم يك منها» .

وقد قامت عقيدة التناسخ عندهم على دعائم ثلاث :

الدعامة الأولى : اعتقادهم خلود الأرواح .

الدعامة الثانية : اعتقادهم أن الروح بعد مزاولة الجسم تكون فى حنان دافع إلى الأجسام ، لما انطبع فيها من المحسوسات ، وأثر فيها من الماديات ، وإن كان ذلك التأثير قد عكر صفاءها ، وكدر نقاءها .

الدعامة الثالثة : أن النفس فى بقائها فى الجسم تحيط علماً بالجزئيات وإن كان علمها بالصورة الكلية ثابتاً لها ، وهى فى تنقلها من جسم إلى جسم تستفيد من كل جسم علماً جديداً بجزئيات لم تكن تعلمها ، فليس من المعقول أن تحيط بكل الجزئيات علماً ببقائها أمداً قصيراً فى جسم واحد ، ولذلك « احتاجت إلى تتبع الجزئيات واستقراء الممكنات ، وهى وإن كانت متناهية عددها كثير والإتيان على الكثرة وإحصاؤها علماً يحتاج إلى فسحة فى الأمد ، ولذلك

لا يحصل ذلك العلم للنفس إلا بمشاهدة الأشخاص والأنواع ، وما يتناولها من الأفعال والأحوال ، حتى يحصل لها فى كل واحد تجربة ، وتستفيد بها جديداً فى المعرفة »[١٦] .

لهذا كله كانت الأرواح تنتقل فى الأجسام ، وتنتقل متدرجة فى الرقى من جسم إلى جسم حتى تصل إلى الكمال المطلق ، وتكون فى صف الروحانيات المتجردة : وهى الملائكة وتكون غير محجوبة عن التصرف فى السموات والأرض ، وتدبير الكون .

وإذا كانت الروح قد ارتكبت خطيئة فى أثناء حلولها فى أحد الأجسام أركست فى حيوان دون الذى كانت فيه، لتكفر عن خطيئاتها، وتطهر من سيئاتها، ثم تسير قدمًا إلى الرقى، لايعوقها عن بلوغ أوجه إلا خطايا تتأثم بها ثم تتطهر. وتستمر كذلك حتى تصل إلى الملكوت الأعلى مع الملائكة فى أعلى عليين، وتتجرد عن الغلاف الجسمي، وقد يكون تدرجها إلى أدنى، فتهوى إلى جهنم على حسب الأقوال عندهم.

ولعقيدة التناسخ التى استولت على الفكر الهندى وأثرت فيه - كانوا يعتقدون أن الروح الواحدة تحل فى عدة من الأجسام ، وأن الشخص رُبّا تكون روحه قد حلت فى مئات الأجسام قبله ، ويحكى البيرونى عن ملك من ملوكهم ، « أنه رسم لقومه أن يحرقوا جثته بعد موته فى موضع لم يحرق فيه ميت قط ، وأنهم طلبوا موضعاً كذلك ، فأعياهم ، حتى وجدوا صخرة من البحر ناتئة ، فظنوا أنهم ظفروا بالبغية ، فقال لهم باسديو : إن هذا الملك أحرق على هذه الصخرة مرات كثيرة فافعلوا ما تريدون ، فإنما قصد إعلامكم وقد قضيت حاجته » .

---

(١٦) ما للهند من مقولة للبيرونى .

الحياة الآخرة :

من عادات الهنود الدينية أن أجسام أكابرهم تحرق بعد الموت ، وذلك لأن النار فى اشتعالها تعلو شعلتها إلى أعلى بخط عمودى على أفق الأرض ، والعمود أقرب المستقيمات بين السطوح والخطوط ، ولذا تتجه الروح بهذا الاحتراق إلى أعلى ، سائرة باتجاه عمودى ، فتصعد إلى السماء فى الملكوت الأعلى فى أقرب زمن . هذا سبب من أسباب حرق أجسام كبرائهم بعد موتهم . وهناك سبب آخر ، هو أن فى الاحتراق تخليصاً للروح من غلاف الجسم تخليصاً تامًّا ، وذلك أن فى الجسم نقطة بها يكون الإنسان ، وهى متلبسة بالجسم متصلة به ، فلا تخلص منه إلا باحتراق أمشاجه وصيرورتها ذرات صغيرة بالاحتراق ، فعندئذ تتخلص تلك النقطة وهى معنى الإنسان ، وبتخلصها تتخلص الروح من الجسم ، وتعلو عنه لتتصل بجسم آخر أو لتسمو إلى درجة الملائكة ، إن كانت قد وصلت إلى درجة الخلاص .

وإذا تخلصت الروح من الجسم كان أمامها ثلاثة عوالم : أولها العالم الأعلى ، وهو عالم الملائكة ، تصعد إليه الروح إن كانت بعملها تستأهل الصعود إليه ، والخلاص من الجسم ، والسمو إلى الملكوت الأعلى ، والعالم الثانى من عالم الناس ، وهو عالمنا الحاضر معشر الآدميين ، والنفس تعود إليه بالحلول فى جسم إنسانى آخر لتكتسب عمل خير ، ولتجتنب عمل شر ، إذا كانت أعمالها فى الجسم الأول لا ترفعها إلى مراتب التقديس فى أعلى عليين ، ولا تنزل بها إلى أسفل سافلين فى العالم الثالث وهو عالم جهنم، وهذا العالم يكون لمرتكبى الخطايا الواقعين فى الذنوب، وليس هناك جهنم واحدة، بل لكل أصحاب ذنب جهنم خاصة بهم، فالمدعون على غيرهم حقوقاً كاذبة وشهود الزور لهم جهنم

خاصة بهم ، وسافك الدم وغاصب حقوق الناس والمغير عليهم وقاتل البقر لهم جهنم خاصة بهم ، وقاتل البرهمى وسارق الذهب لهم جهنم خاصة ، والذى يرد قول أستاذه ولا يرضاه ، ويستخف بالناس ويستهين بالكتب المقدسة أو يكتسب بها فى الأسواق لهم جهنم أيضاً خاصة ، وهكذا لكل صنف من الآثمين جهنم بمقدار يتناسب مع ذنبهم ، ومقدار ما فيهم من فسوق على الدين وخروج من حظيرته .

ثم هل جهنم دائمة وكذلك الجنة ؟ منهم من يرى أن الجنة نزلها دائم ، وأن الجحيم كذلك ، وأنها للجنة أبداً أو الجحيم أبداً ، على مقدار ما قدم الشخص من عمل ، فإن كان العمل فى الحياة لا يرفع إلى الجنة ولا ينزل إلى الجحيم أعيدت الروح إلى جسم آخر ، لتعمل ما يعليها أو يرديها .

ومنهم من يرى أن طريق الاكتساب هى الإنسانية وحدها ، وأن التردد فيها مكافأة قاصرة عن درجة الثواب والعقاب الأخروى ، أما الجنة فإنها فى علوها تكون للنعيم الذى يستحقه من قدم عملا حسناً ، ويكون البقاء فيها إلى أمد محدود ، وإذا كان العمل الإنسانى إثماً وخطيئة تردت روح الشخص فى الحيوان والنبات وعقاباً لها على ما اجترحت من سيئات وقدمت من خطايا ، وبقيت فى ذلك أبداً حتى تتطهر مما اجترحت ، وليست جهنم إلا هذا التردى عند هؤلاء ، فالجنة والجحيم ليستا أبديتين عند هؤلاء ، بل هما مؤقتتان بهذا التأقيت ، بعدها تصعد الروح درجة إلى العالم العلوى أو تنزل إلى المرتبة الإنسانية .

وكلا الرأيين يسير على مناهج تناسخ الأرواح ، وإن اختلفت أنظارهم فيه ، ومهما يكن من خلاف فى هذا المقام فالمتفق عليه أن البعث فى العالم الأخروى إنما هو للأرواح لا للأجساد . فالروح إما فى روح وريحان ، وإما فى شقوة وجحيم على نحو ما بينا . « انتهى كلام الشيخ أبو زهرة » .

الروح عند الإغريق والرومان [17]

إذا انتقلنا إلى الإغريق وجدناهم فى أزهى أيام نهضتهم الفلسفية العظمى يكثرون من الحديث عن الأرواح ويصفونها بالآلهة . ومن هنا كثرت أساطيرهم عن آلهة الحكمة ، وآلهة الجمال ، وآلهة الحب والخمر والصيد والحرب ...

وتحدث أكبر فلاسفتهم وشعرائهم ومؤرخيهم عن الأرواح كحقيقة واقعة لا تثير شبهة . ومنهم بوجه خاص سقراط وأرسطوطاليس وأفلاطون وسوفوكليس وهوميروس ويوربيديز وفرجيل وبلوتارك وهيرودوت وبطليموس وهوراس ويوسفوس وماكزيموس أوف تير وتاليس [18] ... وغيرهم .

وكانت نحلتا الأورفية والفيثاغورية تؤمنان بخلود النفس ، وتعتقدان أنها جوهر إلهى نزل وسكن فى الجسد ، أو بالأدق سجن فيه ، ولابد أن تقضى النفس مدة العقوبة قبل أن تغادر الجسد [19] .

وكان سقراط يؤمن بخلود النفس ، وعندما حكم عليه بالموت صرح لاثنين من أتباعه هما سيمياس (Simias) وسيبس (Cébes) قائلا : « نعم إنى أعترف أنه لولا اعتقادى أنى سوف أذهب أولا صوب آلهة أخرى حليمة ورحيمة ، ثم بعد ذلك نحو رجال ماتوا هم أفضل من رجال هذه الحياة الدنيا ، لكان من الخطأ الفاحش ألا تثور نفسى ضد الموت ... » . وهذه الواقعة رواها أفلاطون

---

(١٧) عن كتاب الإنسان روح لا جسد للدكتور رءوف عبيد .

(١٨) كان تاليس يقول إن العالم مشحون بالأرواح والشياطين ، وأنهم يتجولون بين أيدينا ومن خلفنا وأنهم يروننا برغم أننا لا نراهم ، وتاليس هذا من فلاسفة القرن السابع قبل الميلاد .

(١٩) راجع عن النحلة الأورفية كتاب « فى عالم الفلسفة » للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى .

عن سقراط فى محاورة فيدون .

كما يروى أفلاطون عن سقراط أن أستاذه كان يعتقد أن الفيلسوف الحق هو ذلك الذى لا يشغله عن التفكير فى الموت شاغل ، إذ أن الموت هو وسيلة تحرير الفكر ، وأن النفس لن تستطيع أن تدرك شيئاً على حقيقته إلا إذا قطعت كل صلة تصلها بالجسد ، فهو عائقها عن المعرفة الحقة ، وهو عاجز عن تفهم معانى العدل والخير والجمال « إذ طالما بقيت لنا أجسادنا . وظلت نفوسنا مختلطة شديد اختلاط بذلك الشيء الردىء ، فإننا ندرك موضوع رغبتنا إدراكاً كافياً ، وإن هذا الموضوع لَهُوَ الحقيقة ... »[٢٠]

ولذا كان سقراط يؤمن أن الفيلسوف الحق هو ذلك الذى ينبغى أن يطلب الموت ، ويعتقد العامة أن اتصال النفس بالجسد حياة وانفصالها عنه موت ، ولذا يخافون الموت مع أن حياتهم فى حقيقتها موت . وموت الفلاسفة فى حقيقته حياة ، لأن الإنسان العامى يتعلق بمطالب الجسد ويغفل مطالب النفس وهما العلم وطلب المعرفة . فهو ذو نفس ميتة ولو كان على قيد الحياة ، أما الفيلسوف فيعد نفسه للحياة عن طريق الموت وذلك بأن يعمل على استقلال النفس عن البدن ومطالبه بالزهد فيها وبالبحث عن المعرفة . لا عن طريق الحواس الخداعة ، بل عن طريق العقل والفكر ، والبحث عن الوجود الحقيقى فى الحق والخير والجمال والشكل والصحة .

كما كان سقراط كثيراً ما يبرهن على خلود النفس بعد الموت ، وعندما صدر الحكم الظالم بإعدامه قال « إنى لمغتبط بهذا الموت كل الاغتباط لأن الإله (يقصد روحه المرشدة التى كان يصفها بهذا الوصف على طريقة الإغريق) لم يعطنى إشارة سيئة عندما برحت دارى ، ولا عندما اعتليت هذه المنصة كما

---

(٢٠) Phedon 69,6

أتولى الدفاع عن قضيتى ، ومن عادة الإله أن يعطينى هذه الإشارة السيئة كلما هددنى شر ما » . وأخذ سقراط قرب احتضاره يبين لأتباعه كيف أن للأشياء عوداً على بدء ، فالحياة يتبعها الموت والموت تتبعه الحياة .

وكان سقراط يعتقد أيضاً أن لكل روح روحاً تحفظها وتلهمها ما قد ينفعها فى دنياها ، وعليه فمن الجائز أن يقوم الأحياء بمخاطبة الأرواح فى أثناء وجودهم فى هذا العالم . كما كان يؤكد أن روحاً كانت تخاطبه وترشده فى أمور دنياه منذ كان طفلاً صغيراً . وكان يسمع صوتها ويأتمر بأمرها حتى بعد أن أصبح رجلاً كبيراً (٢١) . وكان سقراط يعتقد أيضاً بأن إلهاً خيراً يعين الناس عندما يكونون فى شك من أمر مستقبلهم ، ولذا كان ينصح أصدقاءه باستشارة الوحى ولا سيما وحى « دلفى » عندما كان معبدها مع معبد « دودونا » من أهم مراكز التنبؤ عند الإغريق ، بفضل تفوهات الغيبوبة التى كانت تصدر عن كاهنات المعبدين (٢٢) .

وتولى أفلاطون بعد سقراط إضافة الأدلة الفلسفية الكثيرة على خلود النفس ، مثل برهان الحياة والحركة ، وبرهان الضدين ، وبرهان التذكر ، والبساطة والتركيب ، والبرهان الخلقى ، بما يضيق المقام عن ذكره ، ويكفى مثلاً أنه فى برهان الضدين يقول : « إن صلة الحياة بالموت لشديدة الشبه بتلك العلاقة التى توجد بين اليقظة والنوم . فكما أن المرء ينتقل من اليقظة إلى النوم ، ومن النوم إلى اليقظة ، كذلك ينتقل من الحياة إلى الموت ، ومن الموت إلى الحياة . والانتقال من أحد الضدين إلى الآخر أمر لا مفر منه ، إذ لو كان الانتقال فى اتجاه واحد فقط لاختل التوازن فى الطبيعة .

---

(٢١) راجع كتاب بونمير « الروح ومظاهرها خلال التاريخ » .

(٢٢) راجع كتاب « التنبؤ بالغيب قديماً وحديثاً » للأستاذ أحمد الشنتناوى ص ١٨ – ٢٢ .

ويترتب على ذلك أنه من الواجب أن تظل نفوس الموتى حية فى مكان خاص حتى تكون منبعاً ومبدأ لكل حياة جديدة. ولو لم يكن هناك انتقال من الموت إلى الحياة لانتهى كل ما فى الوجود إلى العدم، كما هى الحال تماماً لو استقر المرء فى نومه إلى ما لا نهاية » [٢٣] .

ومحاورة فيدون – وهى من أمتع ما كتب أفلاطون – تمثل ليلة إعدام سقراط ومحورها خلود النفس . ويشير إليها أفلاطون فى الخطاب السابع قائلا : « فإذا كانت النفس إلَهية خالدة فليس لها أصل نشأت عنه ولا تخضع للفساد ، وإذا كانت النفس إلهية فعلينا أن نتعلق بها وحدها ، لأن الفلسفة هى الشبه بالإله بقدر الطاقة الإنسانية . ولكن الإنسان ليس نفساً فقط ، بل هو نفسٌ وبدن ، ولكل منهما مطالب ، ولذلك يكون الإنسان ما دام على قيد الحياة ومتصلاً بالبدن حكيماً محبًّا للحكمة أى فيلسوفاً فقط ، وإذا انفصل عن البدن عند الموت بلغت النفس الحكمة . فالموت للرجل الصالح مطية لحياة أفضل لأنها حياة النفس » [٢٤] .

وكان أفلاطون يعتقد أيضاً أن الموت هو الوسيلة التى بها يتيسر للفيلسوف أن يفكر جيداً « وذلك لأن حياة الفيلسوف عند أفلاطون هى حياة متجهة دائما إلى تأمل الصور أو المثل ، ولا يتيسر تأمل الصور تأملاً حقيقيًّا ما دامت النفس سجينة فى البدن ، فلابد من الخلاص من البدن – أى لابد من الموت – حتى يكون فى مقدور المرء أن يتأمل الصور دون أن يشوه عليه هذا التأمل مشوه . فكأن الموت فى نظر أفلاطون إذاً جسر ومعبر ينتقل بنا من حياة النفس فى البدن

---

(٢٣) عن كتاب « فى النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام » للدكتور محمود قاسم طبعة ٣ ص ٥٤ .

(٢٤) عن كتاب « أفلاطون » للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ص ٩٢ .

إلى عالم الصور . فهو ابتداء أولى من أن يكون نهاية ، لأنه ابتداء للحياة الروحية الحقيقية ، حياة النفس ، حياة تأمل الصور ، هو على وجه العموم باب يفتح على الأبدية ... » [٢٥] .

كما كان أرسطو يتحدث عن العقل فيرى شيئاً خالداً مستقلاً عن الجسد . وكان يعتقد بالتالى بوجود عالم عقلى مغاير لعالم الحس والمادة « ولا يستطيع المرء القول بأن هذا العقل يفكر تارة ولا يفكر تارة أخرى . فمتى فارق الجسد فإنه يصير على غير ما كان عليه ... وهو وحده الذى لا يموت وهو الخالد .. فى حين أن العقل قابل للفساد » [٢٦] .

وهذا الرأى يوافق ما يقول به علم الروح الحديث من أنه وإن كانت الذاكرة تبقى بعد الموت ، إلا أنها لا تبقى فى كل جوانبها بل يلحقها نوع من التغيير يمس جوانبها السطحية ولا يمس الذكريات العميقة الدفينة فيها . أو بعبارة أخرى أن الذاكرة تبقى على حالها بقدر اتصالها ببقاء الشخصية بعد الموت ، ولا تبقى بقدر بعدها عن هذه الشخصية . لذلك كانت أحسن البينات على ثبوت بقاء الشخصية هو ما يجىء عرضاً ، أما امتحان الروح فى ذكرياتها الأرضية فقد ينجح أو لا ينجح بحسب قوة هذه الذكريات ، وعمق ما تركته من أثر فى العقل الباطن . وفى هذا الموضوع بحوث كثيرة أضاءت بعض جوانب ما قد يتبقى من الذاكرة بعد الموت ، وما قد يندثر منها ، بعد انسلاخ الجسد الأثيرى — وهو موطن العقل والذاكرة — عن الجسد المادى .

وقد تحدث فى هذا الشأن أيضاً إسكندر الأفروديسى — وهو من شراح أرسطو — فذهب إلى أن العقل الفعال « ليس من أجزاء النفس ولا من

(٢٥) عن « الموت والعبقرية » للدكتور عبد الرحمن بدوى طبعة ١٩٦٢ ص ١٥ ، ١٦ .

(٢٦) D. Anima III 340-A-20-25.

وظائفها ، بل هو الإله الذى يتمثل فى نفوس البشر ، ويحل محلهم فى تفهم معانى الأمور وصنع المعقولات .. وهو غير قابل للفساد ، بل هو كائن إلهى خالد ، بل هو الذى يخلق العقل بصفة خاصة » .

وفعل مثله تمستويس (Themistuis) وهو أيضاً من شراح أرسطو ، الذى كان ينكر أن أرسطو كان يرى أن العقل الفعال هو الله الذى يفكر فى نفوس البشر ، لأن هذا العقل جزء منا ، أو هو حقيقتنا بعبارة أصح . كما كان يرى أن العقل المادى بدوره غير قابل للفساد ، وينسب إلى أرسطو أنه يتحدث فحسب عن فناء العقل المشترك الذى يكون به الإنسان مكوناً من نفس وجسد ، والذى هو محل الانفعالات كالغضب والشهوة(٢٧) .

وهذا الفهم الإغريقى لخلود الروح ، ولقيمه المعرفة فى سعادتها ، وللتمييز بين موت الجاهل وموت العالم ، ولوجود عالم عقلى مغاير لعالم المادة ، وصل إليه أحسن فلاسفة الإغريق بالفطرة السليمة وحدها ، أو بالأدق بالإلهام الراق وحده ، ولم يفعل علم الروح الحديث أكثر من إثباته بأدلة تجريبية على ما سيلى فى عدة مواضع ، وبخاصة فى الموضع الذى خصصناه للكلام فى وصف عالم الروح ، وفى الثواب والعقاب .

وكان الرومان يعرفون الروح أيضاً ويتحدثون عنها ، لكن بطريقة لا تعد شيئاً إلى جانب عمق طريقة الإغريق . لأن حضارة الرومان كانت محض حرب واستعباد للشعوب . فسرعان ما تقوضت أركانها غير مخلفة وراءها سوى المآسى والدماء، على حين، خلفت حضارة الإغريق تراثًا روحيًّا فلسفيًّا، لا يـزال العالم يستضىء بنوره حتى الآن ، ولا يزال يبهر أبصار الفلاسفة والمفكرين برغم قدم العهد به .

(٢٧) Duhem-Système du monde + IVp 283.

ومع ذلك فها هو مثلا شيشرون Ciceron [٢٨] خطيب الرومان ومشرعهم المعروف يقول فى خطبة له « أليست غالبية السموات مملوءة بالبشر؟ هؤلاء الآلهة أنفسهم نشأوا هنا فى الأسافل ثم صعدوا إلى السماء » هذا وقد عالج شيشرون هذا الموضوع فى مؤلفه ، عن « طبيعة الآلهة[٢٩] » التى يقصد بها الأرواح على النحو الذى كان معروفاً عند الإغريق ، والذى يبدو أنه انتقل إليهم من مصر. ويسلم شيشرون فى مؤلفه هذا بأن الإيمان بالآلهة أو بالأرواح شائع لدى جميع الفلاسفة ، بل لدى الجهال والأميين أيضاً ، وأنه مغروس فى عقولنا أو بالأدق فطرى فينا .

الروح فى العقيدتين الموسوية والمسيحية

كان الدين الموسوى زمان ظهوره ثورة روحية . وصاحبها ينقل الرسالة عن الرب لقومه ، وهكذا رسمت تعاليم معينة محددة يتعين مراعاتها ، وهى تجعل من الرسالة حقيقة واقعة وليس هناك حلقة مفقودة هى الروحانيات والخيالات ، بل الرسالة دعوة واقعية ، ينقل داعيها الرسالة من الرب ويبلغها لقومه[٣٠] . والإنسان فى نظر اليهودية له إرادة حرة مختارة ، وهى ترفض كل وسيط بين الله والإنسان ، فأهم ما ورد فى الرسالة الموسوية هو فكرة التوحيد . والفرد فيها

---

(٢٨) نكتفى بإيجاز رأى شيشرون باعتباره كما سبق القول خطيب الرومان ومشرعهم .

(٢٩) On the Nature of the Gods.

(٣٠) يروى الأستاذ Beck أستاذ العلوم العبرية بجامعة برلين فى كتاب أديان العالم بعض العبارات المقدسة فى العبرية يفيد المعنى ومنها : « وهكذا خاطبنى الخلود قائلا : لا تقل إنى صغير السن لأداء الرسالة ، ستذهب إلى كل مكان أبعث بك إليه وستقول ما آمرك بقوله » .

وحدة فى ذاته وعليه أن يخدم ربه بكل قواه ، فخالق العالم هو أقوى ما فى الوجود وهو فوق كل العوالم . كذلك فإن الخلود حقيقة ثابتة ، وتعبر إحدى الصلوات الإسرائيلية القديمة عن ذلك فتقول ما معناه : « ربى إن الروح التى منحتنى إياها طاهرة نقية وهى نفخة منك فى نفسى »(٣١) .

وفى المثل الموسوية ما يفيد أن الرب يخلق الروح طاهرة ، ثم تتلوث بعد ذلك بالذنوب والمعاصى . أما حين نتحدث عن الروح فى العقيدة المسيحية فنقول : إن العقائد القديمة كانت محلية تتعدد فيها الآلهة الوثنية ، حتى حاول الأباطرة تحويلها إلى عبادة الدولة ممثلة فى الإمبراطور . لكن اليهودية كان لها مع المسيحية شأن آخر عند نشأتها فمن فئة الفريسيين (إحدى الفئات الانفصالية اليهودية) كان أكثر أتباع المسيح كبولس وغيره ، وفى فترات الظلم والاضطهاد كان أمل الفريسيين فى مجىء المسيح يتزايد .. فقد كانوا يرجون تدخلا من الرب يمحق السلطة الرومانية الغاشمة ، ويقيم ملكوت الله الذى تبعث فيه اليهودية من جديد ، تحت حكم ملك من نسل داود .. وجاءت المسيحية بنظرية جديدة سفهت كل قيم الأشياء الأرضية إذا قورنت بالأشياء السماوية .. وما لبثت هذه العقيدة الجديدة بعد ثلاثة قرون ، أن كسبت قانوناً أصدره الإمبراطور قسطنطين سنة ٣١٣م ، أباح فيه لجميع رعايا الإمبراطورية -- ومن بينهم المسيحيون -- أن يعبدوا من يشاءون .. وما أن حل القرن الخامس حتى غَدَتْ الإمبراطورية مسيحية لحماً ودماً .. ولكن المطامع والأهواء جاءت مع الفوز ، فزعمت الدولة أن من حقها الإشراف على الكنيسة ، وأنها فى ذلك لا تطلب إلا ما كان

---

(٣١) كتاب مقدمة فى أصول النظم الاجتماعية والسياسية -- د . أحمد عبد القادر الجمال . ص ١٠٩ هامش .

لها من حق على العبادة الوثنية [٣٢] ، وانتهى النزاع بانتصار الكنيسة. لكن ذلك لم يدم طويلا إذ انقسمت المسيحية إلى كنيستين : الشرقية ومركزها اليونان ، والغربية ومركزها روما .

وفى سنة ٣٢٥م عقد مؤتمر دينى انتهى إلى القول بتأليه يسوع ، ونال البابوات ما كانوا يحلمون به من سيطرة وأفانين الطمع والخصومات ، فكانت حركة الإصلاح الدينى إلى أن تألف دستور الكنيسة فى مؤتمر ترانت الدينى سنة ١٥٥٠م .

ويقول حبيب سعيد فى كتابه مقدمة عشرون قرنا .

« جاء الدين النصرانى بآمال واسعة ، فقد وعد الضعفاء والمحرومين والبائسين فى هذه الدنيا بجنة ذات نعيم أبدى ، حيث يتساوى الفقير والغنى ، فبينما كانت الحياة الدنيوية أهم ما يعنى به الإغريق والرومان ، صارت الحياة الآخرة الغاية الوحيدة لآمال النصرانى الذى كان يعد الدنيا ممرًّا للحياة السماوية ، لذلك ملكت السعادة الأبدية أفكاره .. ولكى ينال النصرانى هذه السعادة ويتجنب جهنم فقد رضى بأسوأ زهد .. رضى بالفقر والرهبانية » .

وهذا الرضا بالفقر والرهبانية هما علامتا فشل المسيحية عند التطبيق العملى ، لأنها بذلك تتطلب من البشر فوق ما يطيقون احتماله ، ولأن كبت النوازع الفطرية على هذه الصورة أمر مستحيل ، كما أن قتل الغرائز وإرهاق الجسد بالحرمان والتعذيب الدائم خلاصا من الضغوط الملحة ليس له إلا أحد أمرين أن ينقطع الإنسان مترهبناً بعيداً عن الحياة والأحياء .. وما هكذا يريد الله ولا بهذا تعمر الأرض ، أو أن يسقط الإنسان من طول المقاومة فينحرف إلى غير عودة ..

---

(٣٢) من مقدمة عشرون قرناً ، للأستاذ حبيب سعيد .

ذلك أن المسيحية **فى تطبيقها العملى** مخالفة لطبيعة الحياة والأحياء[٣٣] : فالجسد فى المسيحية كما فى الهندوكية محتقر مهين ، ولا ينزع لغير الشر ولا ينتج عن إطاعة شهواته إلا الشقاء الأبدى ، ومن ثم فإن طريق السعادة الأوحد وهو قهر الجسد وكبت الشهوات .. فالطريقة المثلى للتطهر من غريزة الجنس فى المسيحية هى عدم الزواج ، والانقطاع عن هذه الشهوة التى تهبط بالروح .. لذا فإن الصبى المسيحى ينشأ وفى نفسه عقد تستنكر الجنس وتستقذره . فإذا بلغ مبلغ المراهقة بدأ الصراع ثم لا يكف أبداً . حتى لو تزوج الفتى وبداخله كل هذه العقد .. وأى كارثة كانت تصيب الإنسانية لو أن كل البشر اعتزلوا الحياة وسجنوا أنفسهم خلف الصوامع والأديرة .. إذاً لانقطعت الحياة بانقطاع النسل .. كذلك فإن التعاليم المثالية تقول : « إذا ضربك أحدهم على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » . و « إذا أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك ، فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك من أن يلقى بدنك كله فى جهنم » . وجميل حقًّا أن تنتشر هذه التعليمات ولكن أين هى فى الحياة .. وأين هى من سلوك البشر؟ حقًّا إنهم يستجيبون لها ولكن فى حدود الكنيسة ، حتى إذا انطلقوا للحياة انطلقوا بشراً ، لا يدير أحدهم خده الأيسر لمن لطمه على خده الأيمن ، ولا يقلع أحدهم عينه ويلقيها عنه لأنها تعثره ، ولا يرضى بأن يهلك عضو واحد من أعضائه تكفيراً عن إثم من الآثام . ومع إيماننا بالمسيحية كدين سماوى نزل على نبى من أنبياء الله هو عيسى عليه السلام ، فإننا نقول أن نسبة الروحانية الغالبة فيها إنما لأنها كانت (حقنة) مضادة للمادية اليهودية الرومانية ، علها تتعادل معها فتصلح النفوس .

---

(٣٣) الإنسان بين المادية والإسلام – محمد قطب – بتصرف .

البـاب الثـانى

الروح فى الفكر العربى والإسلامى

الروح فى الفكر العربى والإسلامى

وإذا كانت فكرة الروح قد شغلت العقل الإنسانى كله منذ فجر التاريخ ، فقد شغلت بصفة خاصة سكان البلاد العربية ، حيث كانت مهد النبوات ومهبط الرسالات ، فقد كان العربى القديم وهو سارٍ فى الصحراء بين السماء المجلوة والرمال الممتدة يتأمل فى انفعال حار عميق ، طبيعة الحياة فى هذا الكون : ليل ونهار .. ظلام ونور .. كواكب تتلألأ ثم تختفى .. وجود وفناء .. حياة تدب فى الأشياء فتزدهر وتكتمل ثم يدهمها العدم فتتبدد وتتلاشى .. فيهتف : لا يمكن أن يوجد كل هذا عبثاً وبلا غاية .. فلابد من قوة كبرى وراء هذا الكون .. قوة عليا لا يدركها فناء ولا يشوبها نقص ، تتحكم فى كل هذه الكائنات وتهيمن عليها وتسيِّرها على هذا النحو الدقيق ، ويبدو أن فكرة الإيمان بدأت على هذا النحو ، ثم اهتدى العقل الإنسانى بعد ذلك إلى أن كل هذه الكائنات من صنع الله ، وأن البشرية كلها نفحة من روح الله ، وأن هناك جوهرًا مجردًا يكمن فى باطن الأشياء ويمنحها الحياة .. فإذا تركها دبَّ إليها الفناء .. هذا الجوهر المجرد الذى يسرى فى كل هذه الكائنات هو الروح .

وتطورت البشرية عبر تاريخها الطويل وعرفت الرسالات السماوية ، وأبدعت الحضارات وتحكمت فى الطبيعة وسخرتها لصالح الحياة ، ولكن معرفتها بهذا العالم المحجوب ظلت أقل من القليل .. لذا كان من الطبيعى أن تشغل هذه الفكرة المحجوبة العقل العربى ، وأن تؤثر فى الضمير وتلهب الخيال وتترك بصماتها فى الفن والأدب .

ومن روائع ما سجل من نثر وشعر حول الروح والنفس نورد فى الصفحات التالية سطوراً قديمة من موعظة قس بن ساعدة الإيادى .. بليغ العرب فى الجاهلية .. وأبياتاً من قصيدة النفس للرئيس ابن سينا .. ثم قصيدة الشاعر أحمد شوقى أمير شعراء مصر فى العصر الحديث .

من موعظة قس بن ساعدة الإيادى قبل الإسلام[1]

« أيها الناس : اسمعوا وعوا .. من عاش مات .. ومن مات فات .. وكل ما هو آت آت » .

« ليل داج .. ونهار ساج . وسماء ذات أبراج »

« ونجوم تزهر . وبحار تزخر . وأرض مدحاة »

« وجبال مرساة .. وأنهار مجراة »

« إن فى السماء لخبراً . وفى الأرض لعبراً »

« ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون »

« أرضوا فأقاموا ؟ أم تركوا هناك فناموا ؟ »

ثم أنشد :

« فى الذّاهبين الأوَّلين من القرون لنا بصائر »

« لما رأيت مواردًا للموت ليس لها مصائر »

« ورأيت قومى نحوها تمضى . الأكابر والأصاغر »

« أيقنت أنِّى لا محالة حيث صار القوم صائر »

* * *

(١) الأوائل : أبى هلال العسكرى – مطبعة دار أمل – طنجة المغرب الأقصى .

ففيما ذكرناه من كلام قس بن ساعدة الإيادى سواء منه النثر أو الشعر ، نلمس الاهتمام بما وراء الحياة من أسرار وأخبار ، كان العربى قبل الإسلام يحسها ، وكأنه يلمسها بيديه حين يؤكد « إن فى السماء لخبراً » ثم إن قسا يتحدث عن البعث بعد الموت فى بلاغة حين يسأل : « أرضوا فأقاموا ؟ » أم تركوا هناك فناموا » والمفروض طبعا أن اليقظة تجىء بعد النوم ، كما سيأتى البعث بعد الموت .. وهو يتكلم عن حتمية الموت يقيناً فيقول : « أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر » . وكأنه يقرأ ما جاء بعد ذلك فى القرآن (كل نفس ذائقة الموت) . أو (كل من عليها فان) .

* * *

ومن قصيدة النفس للرئيس ابن سينا[2]

١ – هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
٢ – محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سفرت ولم تتبرقع
٣ – وصلت على كُرهٍ إليك وربما كرهت لقاءك وهى ذات تفجع
٤ – أنفت وما أنِست فلّما واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقع
٥ – وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ومنازلا بفراقها لم تقنع
٦ – تبكى إذا ذكرت دياراً بالحمى بمدامع تهمى ولما تقطع ..
٧ – وتظل ساجعة على الدمن التى درست بتكرار الرياح الأربع
٨ – إذ عاقها الشرك الكثيف وصدها قفص عن الأوج الفسيح الأربع
٩ – حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
١٠ – سجعت وقد كُشِفَ الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجع
١١ – وغدت مفارقة لكل مخلف عنها حليف الترب غير مشيع
١٢ – وغدت تغرد فوق ذروة شاهق سام إلى قعر الحضيض الأوضع
١٣ – إن كان أرسلها الإله لحكمة طويت عن الفطن اللبيب الأروع
١٤ – فهبوطها إن كان ضربة لازب لتكون سامعة بما لم تسمع
١٥ – وتعود عالمة بكل خفية فى العالمين فخرقها لم يرقع
١٦ – وهى التى قطع الزمان طريقها حتى لقد غربت بغير المطلع
١٧ – فكأنه برق تألق للحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

---

(٢) ابن سينا : هو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا ، أوسع أطباء المسلمين شهرة ، وأبعد فلاسفتهم ذكراً ، وهو فارسى الأصل ، حفظ القرآن ودرس الرياضيات والطبيعة والمنطق وعلم ما وراء الطبيعة ، ثم وجه عنايته كلها لدراسة الطب فذاعت شهرته كطبيب .. ومن كتبه القانون فى الطب الذى خلد ذكره فى أوربا . والشفاء والنجاة والإشارات والتنبيهات وتوفى سنة ٤٢٨ هـ .

النفس (٣)

لأحمد شوقى *

الملقب « أمير شعراء مصر »

ضمى قناعك يا سعاد أو ارفعى ... هذى المحاسن ما خلقن لبرقع
الضاحيات الضاحكات ودونها ... ستر الجلال وبعد شأو المطلع
يا دمية لا يستزاد جمالها ... زيديه حسن المحسن المتبرع
ماذا على سلطانه من وقفة ... للضارعين وعطفة للخشع
بل ما يضرك لو سمحت بجلوة ... إن العروس كثيرة المتطلع
ليس الحجاب لمن يعز مناله ... إن الحجاب لِهيِّنٍ لم يمنع
أنت التى اتخذ الجمال لعزه ... من مظهر ولسره من موضع
وهو الصناع يصوغ كل دقيقة ... وأدق منك بنانه لم تصنع
لمستك راحته ومسّك روحه ... فأتى البديع على مثال المبدع
الله فى الأحبار من متهالك ... يضنو ومهتوك المسوح مصرع
من كل غاوٍ فى طوية راشد ... عاصى الظواهر فى سريرة طيع
يتوهجون ويطفأون كأنهم ... سرج بمعترك الرياح الأربع
علموا فضاق بهم وشق طريقهم ... والجاهلون على الطريق المهيع
ذهب (ابن سينا) لم يَفُزْ بك ساعة ... وتولت الحكماء لم تتمتع
هذا مقام كل عز دونه ... شمس النهار بمثله لم تطمع

---

(٣) النفس : بمعنى الروح .

* أحمد شوقى : أمير شعراء مصر فى العصر الحديث ولد سنة ١٨٦٨م فى رحاب القصور الخديوية .

(فمحمد) لك . و (المسيح) ترجلا ... وترجلت شمس النهار (ليوشع)

ما بال (أحمد) عى عنك بيانه ... بل ما (لعيسى) لم يقل أو يدّع

ولسان (موسى) انحلّ إلا عقدة ... من جانبيك علاجها لم ينجع

لما حللت بآدم حلّ الحُبى ... ومشى على الملأ السجود الركع

وأرى النبوة فى ذراك تكرمت ... فى (يوسف) وتكلمت فى المرضع

وسقت (قريش) على لسان (محمد) ... بالبابلى من البيان الممتع

ومشت (بموسى) فى الظلام مشرقا ... وحدته فى قلل الجبال اللمع

حتى إذا طويت ورثت خلالها ... رفع الرحيق وسرّه لم يرفع

قسمت منازلك الحظوظ فمنزلا ... أترعن منك ومنزلا لم تترع

وخلية بالنحل منك عميرة ... وخلية معمورة بالشيع

وحظيرة قد أودعت غرر الدمى ... وحظيرة محرومة لم تودع

نظر (الرئيس) إلى كمالك نظرة ... لم تخل من بصر اللبيب الأروع

فرآه منزلة تعرض دونها ... قصر الحياة وحال وشك المصرع

لولا كمالك فى (الرئيس) ومثله ... لم تحسن الدنيا ولم تترعرع

الله ثبت أرضه بدعائم ... هم حائط الدنيا وركن المجمع

لو أن كل أخى يراع بالغ ... شأو (الرئيس) وكل صاحب مبضع

ذهب الكمال سدى وضاع محله ... فى العالم المتفاوت المتنوع

يا نفس مثل الشمس أنت أشعة ... فى عامر وأشعة فى بلقع

فإذا طوى الله النهار تراجعت ... شتى الأشعة فالتقت فى المرجع

لما نعيت إلى المنازل غودرت ... دكا ومثلك فى المنازل ما نعى

ضجت عليك معالما ومعاهداً ... وبكت فراقك بالدموع الهمع

آذنتها بنوى فقالت ليت لم ... تصل الحبال وليتها لم تقطع

ورداء جثمان لبستِ مرقم ... بيد الشباب على المشيب مبرقع

كم بنت فيه وكم خفيت كأنه ... ثوب الممثل أو لباس المرفع

أسأمت من ديباجة فنزعته ... والخز أكفان إذا لم ينزع

فزعت وما خفيت عليها غاية ... لكن من يرد القيامة يفزع

ضرعت بأدمعها إليك وما درت | أن السفينة أقلعت فى الأدمع
أنت الوفية لا الزمام لديك مذ | موم ولا عهد الهوى بمضيع
أزمعت فانهلت دموعك رقة | ولو استطعت إقامة لم تزمع
بان الأحبة يوم بينك كلهم | وذهبت بالماضى وبالمتوقع

الروح عند عدد من مفكرى المسلمين

ولسنا هنا بصدد الإحاطة بكل ما كان لفكرة الروح من تأثير على جوانب الفكر العربى والإسلامى ، وإنما سنحاول فقط أن نعرض لمحات من آراء عدد من مفكرى المسلمين فى هذه المسألة ، هم الفارابى ، وابن سينا ، والغزالى ، وابن رشد ، والرازى باعتبارهم ممن يمثلون العقل العربى على أرفع مستوى ، كما أنهم لم يقتصروا على الثقافة العربية وحدها .. بل كان لهم إلمام واسع بعلوم الأوائل (كما كانت تسمى فى زمانهم ثقافة اليونان والهنود والفرس) إلخ ، ثم نعرض لرأى الدكتور عبد الحليم محمود والكاتب / عباس محمود العقاد .

١ - الفارابى (٢٥٩ هـ / ٣٣٩ هـ) :

تناول أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابى هذه القضية فى أهم مؤلفاته ، وهى عنده جوهر بسيط مباين للجسد .. وهى مرادفة للنفس .. وهى نفس فاضلة ونفس جاهلة .. فالأولى تعمل الخير دائماً ، حتى تنطبع عليه ويصبح سجية لها ، وهذه هى النفس الخالدة المطمئنة فى رحاب الله .. ويقول فى كتابه (الثمرة المرضية) : إن الروح الذى لك من جوهر عالم الأمر ولا يتعين بإشارة ولا يتردد بين سكون وحركة ، ولذلك تدرك المعلوم الذى فات والمنتظر الذى هو آت وتسبح فى عالم الملكوت وتنتقش من خاتم الجبروت[٤] والفارابى

---

(٤) الثمرة المرضية للفارابى .

لا شك يذكرنا بأفلاطون وأرسطو وآراء الإغريق حول هذا الموضوع ، فهو يسبح فى جو قريب من الأجواء التى كانوا يسبحون فيها .. والنفس الخالدة عند الفارابى هى التى تبلغ مرتبة العقل المستفاد ، وتصبح فى غنى عن المادة قادرة على الاتصال بالعقل الفعال ، ويهتم الفارابى بهذا العقل الفعال ، فهو (الروح الأمين) أو روح القدس ، الذى يهب الصور للعقل الإنسانى .

٢ – ابن سينا :

هو أبو على الحسين عبد الله بن سينا ، فارسى الأصل توفى سنة ٤٢٨ هـ . وابن سينا كالفارابى وفلاسفة المؤمنين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، وحاولوا التوفيق بينها وبين قيم الإسلام الفكرية ، وربما كان تأثره فى هذه القضية أشد ، فهو يصطنع تعريف أرسطو المشهور للنفس فيعرفها بأنها كمال أول لجسم طبيعى إلى ذى حياة بالقوة [٥] .

وبهذا التعريف يحدد ابن سينا نظريته لطبيعة النفس والروح ، فهى صورة للجسد وبداية لوظائفه الحيوية ، ثم هى مرتبطة به توجد بوجوده وتفنى بفنائه ، وقد كان ابن سينا يرى هذا الرأى فى مرحلة من مراحل حياته ، ولكنه عاد بعد ذلك واهتدى إلى تصور مخالف فالنفس (جوهر مجرد مخالف للبدن مستقل عنه) . ثم هو يرى أن العقل قوة من قوى النفس ، والناس عنده صنفان صنف مؤيد النفس بشدة الصفاء وشدة الاتصال بالمبادئ العقلية إلى أن يشتعل حدساً .. وهؤلاء يتلقون الوحى عن العقل الفعال ويعلمون كل شىء وتتكشف لهم المعقولات دفعة واحدة ، ويصف ابن سينا طريق هؤلاء بأنه ضرب من

(٥) د . فؤاد الأهوانى ابن سينا ص ٦٢ .

النبوة . واهتمام ابن سينا بهذ الموضوع ناشئ عن نظريته فى السعادة .. سعادة النفس .. فهى حالة توصف بها بعد مفارقتها للجسد .. ولا ينالها إلا هؤلاء الذين تخلصوا من شواغل البدن . وخلصوا على عالم القدس والسعادة وانتقشوا بالكمال الأعلى وخلصت لهم اللذات العليا وصنف بخلاف ذلك .. كذلك يقسم ابن سينا النفوس إلى نفوس بله ، ونفوس قدسية . فالأولى التى لم تكتسب الشوق إذا فارقت البدن غير مكتسبة للهيئات البدنية الردية صارت إلى سعة من رحمة الله ، فإن اكتسبتها تتعذب عذاباً شديداً يفقد البدن . أما الأنفس القدسية ، فإنها تتبرأ عن مثل هذه الأحوال وتتصل بكمالها بالذات وتنغمس فى اللذة العقلية ، فالسعادة عند ابن سينا أن تتخلص النفس من شهوات البدن وتعيش حياة عقلية عليا .

٣ – الغزالى (٤٥٠ هـ / ٥٠٥ هـ) :

أما حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى (صاحب إحياء علوم الدين) فقد كان ظاهرة من أبرز ظواهر الفكر الإنسانى ، جاء فى الفكر الإسلامى كالإعصار ، فحرك كل شىء واقتلع فى طريقه كثيراً من الأشجار التى كانت قد غرستها الفلسفات الدخيلة فى التربة الإسلامية ، ودمر كثيراً من أفكار الفلاسفة وعزلهم عن التأثير فى الوجدان العربى لأعوام طويلة[٦] .

وموقفه من عالم الروح من أصدق المواقف وأعمقها فهو صورة فريدة للفكر الإنسانى العظيم .. الثقافة عنده مجاهدة ، والفكر عنده إشراق ، ووجود المعرفة عنده علم وسلوك .. ولقد توصل إلى كل أولئك من خلال تجربة ثقافية وروحية من أعمق التجارب التى مرت بمفكر فى العالم .. عانى خلالها المشقة الفادحة

(٦) أبو حامد الغزالى فى ذكراه المئوية التاسعة ص ١٠٧ .

التى أوهنت جسمه وأرهقت روحه وكادت تصل به إلى الجنون . ولذلك فهو عندما يتحدث عن الروح أو النفس أو القلب وكلها مترادفات عنده ، فإنما يتحدث عن تجربة شخصية ومعاناة حقيقية ، فهو يقول فى كتابه (كيمياء السعادة) :

(الإنسان من عالم الخلق من جانب ومن عالم الأمر من جانب .. فكل شىء يجوز عليه المساحة والمقدار والكيفية ، فهو من عالم الخلق .. وليس للقلب مساحة ولا مقدار ، فهو من عالم الأمر) .

والغزالى يقصد بعالم الأمر عالم الغيب ، فالقلب عنده أو الروح من عالم الغيب ، وأصل معدنه من الحضرة الإلهية من ذلك المكان جاء وإلى ذلك المكان يعود ، وللقلب باب يطل على الباطن يحصل الإنسان من خلاله كل المعارف دفعة واحدة فى حالة من حالات (الكشف) .

ويؤكد الغزالى أن أرباب القلوب يكاشفون بأسرار الملكوت ، تارة على سبيل الإلهام بأن يخطر لهم على سبيل الورود عليهم من حيث لا يعلمون ، وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة .. وتارة فى اليقظة على سبيل كشف المعانى بمشاهدة الأمثلة ، كما يكون فى المنام وهذا أعلى الدرجات . ويرى الغزالى أن الروح محجوبة فى هذا العالم المادى الصارم ، والأرواح الخيرة تجاهد وتجالد حتى تتخلص من هذا السجن ، ويزول الحجاب بالموت ، وتصعد هذه الأرواح الطاهرة لتنعم فى رحاب الله . واهتم الغزالى اهتماماً كبيراً بفكرة الثواب والعقاب فى العالم الآخر.

ومصير الروح فى هذا العالم ولقد ألحت هذه الفكرة على عقول الفلاسفة المسلمين وبعض الفلاسفة الماديين ، لأنها كانت تتصل بقضية البعث بعد الموت والحشر ، وهل تحشر الأجساد والأرواح وتعود كل روح إلى جسدها ؟ أو أن

الحياة فى العالم الآخر تقتصر على الأرواح ؟ أو أن كل شىء ينحل ويعود إلى التراب وتنتهى دراما الحياة فلا بعث ولا حشر كما يقول الماديون ؟ ولقد اشتبك الغزالى مع كل الفلاسفة الذين خاضوا فى هذا الأمر بعنف وفند آراءهم ، وسخر من تصوراتهم . يقول : (اعلم أن للناس فى حقيقة الموت ظنوناً كاذبة ، فظن بعضهم أن الموت هو العدم وأنه لا حشر ولا نشر ، وقال آخرون : إن الروح باقية لا تنعدم بالموت ، وإنما المثاب والمعاقب هى الأرواح دون الأجساد ، وأن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلا ، وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق ، بل تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها ، فإن الأعضاء آلات تستعملها حتى إنها لتبطش باليد ، وتسمع بالأذن ، وتبصر بالعين . وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب ، والقلب هنا عبارة عن الروح ، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة .. فكل ما هو وصف للروح بنفسها يبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد . والغزالى يقرر أن الإنسان ينكشف له بالموت ما لم ينكشف له بالحياة ، كما ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفا له فى النوم (والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من سيئاته وحسناته ، وقد كان ذلك مسطوراً ، فى جميع أعماله ، فلا ينظر إلى سيئة إلا تحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة ، وعند ذلك يقال له كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ..) أما هؤلاء الذين عاشوا فى الدنيا يزرعون للآخرة فهم الذين يتخلصون لذّات النعيم ، ويؤكد الغزالى أن أعظم اللذات الخالدة للشهداء

الذين قتلوا فى سبيل الله ، لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله .. وهكذا تختلط فى تصور الغزالى لعالم الروح الومضات الصوفية بالتأملات النفسية بالنظرات العلمية .. وهو لهذا من أهم مفكرى العرب والمسلمين الذين تناولوا هذا الموضوع الجليل بالدرس والتحليل .

٤ – ابن رشد (٥٢٥ هـ / ٥٩٥ هـ)(٧) :

أراد أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ، أكبر شراح أرسطو وأبعد فلاسفة الإسلام شهرة ، أن يوفق بين تعريف النفس لأرسطوطاليس وتعريفها لدى الرئيس ابن سينا ، فقال إنها صورة للبدن وجوهر مستقل فى نفس الوقت . فهى صورة للبدن بمعنى خاص وهو أنه لا وجود للبدن دونها ، ولا يمكن للعقل تصوره إلا بها ، كما أنه لا وجود للتمثال إلا بصورته . ومن هذا يتبين لنا أن الفيلسوف القرطبى أخذ عن أرسطو عبارته فى تعريف النفس فقال : إنها (هى التى تجرى منها مجرى الصورة لا مجرى الهيولى (المادة). ولكنه لم يكن أرسطوطاليسيا بمعنى الكلمة، فقد فسر أرسطو على نحو يقربه إلى حد كبير من آراء المسلمين فى طبيعة النفس، وقال فى تلخيص كتاب النفس(٨)

إنه يجب التفرقة بين نفوس ثلاث هى :

١ – النفس النباتية .

٢ – النفس الحيوانية .

٣ – النفس الإنسانية أو العاقلة .

أما النفسان الأوليان فليستا مفارقتين للبدن ولا يمكن أن تنفصلا عنه بحال

---

(٧) عن كتاب فى النفس والعقل للدكتور محمود قاسم .

(٨) مخطوط فى مكتبة باريس الأهلية تحت رقم Mns fonds hèbeu, 1009.

ما ، فهما توجدان بوجود النبات أو الحيوان وتفنيان بفنائهما ، أما النفس الإنسانية : فإنها من جنس آخر ، وابن رشد يميل إلى تفسير مذهب أرسطو فى النفس على نحو يتفق مع القول بروحانيتها ، ويدل على ذلك أنه يعرفها بأنها الجوهر الذى هو الصورة ، ومن يقول مثله بأنها جوهر يعترف ضمناً بأنها قائمة بذاتها ، وبأن الإنسان مركب من جوهرين : أحدهما نفسه ، والآخر بدنه . والذى دعا ابن رشد إلى تفسير أرسطو على هذا النحو أنه فطن إلى ما يجره تعريف أرسطو للنفس من صعوبات ، لأنها لا تتفق مع روح الإسلام وعقائده . ويرى ابن رشد أن حل هذه الصعوبات ليس باليسير ، فالكلام فى أمر النفس غامض جدًّا ، وإنما اختص الله به من الناس العلماء الراسخين فى العلم . ولذلك قال سبحانه مجيباً فى هذه المسألة الجمهور عندما سألوه بأن هذا الطور من السؤال ليس من أطوارهم فى قوله سبحانه : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

ولكن ابن رشد استطاع أن يوفق بين تعريف أرسطو للنفس الذى ينكر خلودها ، وبين رأى الرئيس ابن سينا الذى ينكر أن النفس صورة للبدن ، أى يفصل بين معنيين .. الكمال والصورة ، إذ قال ابن رشد إن النفس وإن كانت صورة للبدن كما يقول أرسطو ، إلا أنها صورة من جنس خاص ، فإنها ليست كباقى الصور التى لا تنفك عن أجسامها ، فلا يمكن تصورها مستقلة عنها وقائمة بذاتها ، بل إنها جوهر مستقل ، وهى فى الوقت نفسه صورة للبدن حلت فيه لحكمة إلهية ، وهى إلى جانب ذلك ذات روحية غير جسمية ، فابن رشد جعل النفس ذاتاً مستقلة تدبر الجسم ، وهى فى نفس الوقت صورته .

٥ – الرازى :

وقد أجمل الإمام الرازى أسباب الإعضال فى مسألة الروح فقال : (إنهم سألوا عن الروح وأنه صلوات الله وسلامه عليه أجاب على أحسن الوجوه . وبيانه أن المذكور فى الآية أنهم سألوه عن الروح والسؤال يقع على وجوه .

أحدها : أن يقال ماهيته ؟ هل هو متحيز أو حالّ فى المتحيز ، أو موجود غير متحيز ولا حالّ فيه ؟

وثانيها : أن يقال أهو قديم أم حادث ؟

وثالثها : أن يقال هل هو يبقى بعد فناء الأجسام أو يفنى ؟

ورابعها : أن يقال ما حقيقة سعادة الأرواح وشقاوتها ؟

وبالجملة : فالمباحث المتعلقة بالروح كثيرة وليست فى الآية دلالة على أنهم عن أى هذه المسائل سألوا . إلا أنه تعالى ذكر فى الجواب (قل الروح من أمر ربى) . وهذا الجواب لا يليق إلا بمسألتين :

إحداهما : السؤال عن الماهية ، أهو عبارة عن أجسام موجودة فى داخل البدن متولدة عن امتزاج الطبائع والأخلاط ؟ أم هو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب ، أو عن عرض آخر قائم بهذه الأجسام ، أو عن موجود يغاير هذه الأشياء ؟ فأجاب الله تعالى بأنه موجود مغاير لهذه الأشياء . بل هو جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث قوله : كن فيكون . فهو موجود يحدث من أمر الله ، وتكوينه وتأثيره فى إفادة الحياة للجسد ، ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة نفيه مطلقاً ، وهو المقصود من قوله تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

وثانيتهما : السؤال عن قدمها وحدوثها ، فإن لفظ الأمر قد جاء بمعنى الفعل

كقوله تعالى : (وما أمر فرعون برشيد) . فقوله : من أمر ربى ، معناه من فعل ربى ، فهذا الجواب يدل على أنهم سألوه عن قدمه وحدوثه ، فقال : بلى هو حادث . وإنما حصل بفعل الله وتكوينه . ثم احتج على حدوثه بقوله : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) يعنى أن الأرواح فى مبدأ الفطرة خالية من العلوم كلها ، ثم تحصل فيها المعارف والعلوم ، فهى لا تزال متغيرة من حال إلى حال ، والتغير من أمارات الحدوث . وتلخيص الإمام الرازى للمعضلة شامل لجوانبها المتعددة ، كما بدت للمفكرين من الفلاسفة الأقدمين وبخاصة علماء الكلام . ولا نظن أن المحدثين جاءوا بغرض من الأغراض فى تفسير الروح لم يسبقهم إليه الأقدمون . مع ملاحظة الفارق فى بحوث علم الحياة ووظائف الأعضاء بين علماء اليوم وعلماء الزمن القديم . فمن المفكرين الأقدمين من قال إن الروح أجسام لطيفة سارية فى البدن سريان ماء الورد فى الورد . باقية من أول العمر إلى آخره لا يتطرق إليه تحلل ولا تبدل ، حتى إذا قطع عضو من البدن انقبض ما فيه من تلك الأجزاء إلى سائر الأعضاء . ومنهم من قال : إنه جزء لا يتجزأ فى القلب . أو قال إنه جسم هوائى فى القلب ، أو قال إنه جسم هوائى فى الدماغ . أو قال إنه قوة تلى الدماغ وهو مبدأ الحس والحركة . أو قال إنه أجزاء نارية وهى المسماة بالحرارة الغريزية . أو قال إنه الدم المعتدل تقوى الحياة باعتداله وتفنى بفنائه . أو قال إنه جسم بخارى تكون من طاقة الأخلاط وبخاريتها كتكون الأخلاط من كثافتها .

وهو الحامل للقوى الثلاث وهى قوة الروح الحيوانى ، وقوة الروح النفسانى ، وقوة الروح الطبيعى .. ومنهم من قال بأن الروح جوهر مجرد يتفاوت فى التجرد والصفاء ، فهو فى العارفين الخالصين أصفى منه فى غيرهم من ذوى الأرواح .

ومنهم من قال غير ذلك ولم يخرج عن فحوى فرض من تلك الفروض ، كما أحصاها التهانوى صاحب كشاف اصطلاحات الفنون فى مادة الروح[٩] .

الروح والنفس ورأى بعض الصوفية

١ - القشيرى (٣٧٦ هـ / ٤٦٥ هـ) :

يحدثنا عبد الكريم أبو القاسم القشيرى ، بأن المراد بالنفس عند القوم هو ماكان معلولا من أوصاف العبد ، وماكان مذموماً من أخلاقه وأفعاله (كالمعاصى والمخالفات والأخلاق الدنيئة التى إذا عالجها بالمنازلة والمجاهدة انتفت عنه) .

ويذكر القشيرى فوق هذا الذى يحدد معناها بمتعلقاتها تعريفاً يمكننا أن نقول عنه : إنه يحدد معناها بجوهرها وطبيعتها الحقيقية ، فمن المحتمل عنده أن تكون النفس لطيفة مودعة فى هذا القالب الذى هو الجسم ، وأنها محل للأخلاق المذمومة ، كما أن الروح لطيفة فى هذا القالب وأنها محل للأخلاق المحمودة ، وأن جملة الروح والنفس والبدن تكون إنساناً واحداً بعضه مسخر لبعض . ويلاحظ القشيرى إلى جانب هذا أن حقيقة الروح مختلف فيها عند المحققين من أهل السنة : منهم من يقول إن الحياة تسرى فى القوالب ما دامت الأرواح مودعة فيها ، لأن الأرواح لطيفة ربانية ، وللأرواح ترق فى حال النوم ومفارقة للأبدان ثم رجوع إليها . والإنسان روح وجسد . ومن قال إن الأرواح قديمة غير مخلوقة فقد أخطأ خطأ عظيماً[١٠] .

فإذا نظرنا إلى هذه الآراء المختلفة نظرة فاحصة رأينا أنها تتفق من وجه

---

(٩) سبق الإشارة إليه فى مدخل الكتاب .

(١٠) الرسالة القشيرية ص ٤٤ / ٤٥ ألفها سنة ٤٤٣ هـ .

وتختلف من وجه ، ورأينا أن الاختلاف بينهما قوى إلى حد يؤدى إلى الخلط والاضطراب اللذين يؤديان بدورهما إلى أن نقف من المسألة موقف الحيرة والتردد ، لا ندرى هل الروح هى النفس أو غيرها ، وهل يصح أن نطلق خصائص الروح على النفس أو لا يصح :

فأما وجه الاتفاق فيظهر لك إذا لاحظت أن ابن حبيب وابن عباس والمحققين من أهل السنة مجمعون على أن الروح هى الحياة أو مصدر الحياة على أقل تقدير ، وأما وجه الخلاف فيبدو من أن ابن حبيب ينظر إلى النفس على أنها شهوية تلتذ وتتألم ، وابن عباس ينظر إليها على أنها عاقلة تدرك وتميز وتحكم ولا يقف الاتفاق والخلاف عند هذا الحد بل يتجاوزه إلى شىء آخر . فابن حبيب وابن عباس متفقان على أن النفس وحدها تتوفى فى حال النوم ، ويخالفهما فى ذلك بعض المحققين من أهل السنة ، إذ يذهبون إلى أن الروح هى التى تفارق البدن وتترقى فى حال النوم .

٢ – الجرجانى : [١١]

ومهما يكن من أمر هذا الخلاف فقد حاول الجرجانى التخلص من الخلط ، فى تحديد طبيعة الروح والنفس فى تعريفاته ، حيث كشف لنا عن حقيقة النفس والروح فقال عن الأولى ما نصه :

« هى الجوهر البخارى اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية . وسماها اللطيف الخبير الروح (الحيوانية) : فهو جوهر مشرف للبدن ، وعند الموت ينقطع ضوءه عن ظاهر البدن وباطنه ، وأما فى وقت النوم فينقطع عن ظاهر البدن دون باطنه . فثبت أن النوم والموت من جنس واحد ،

(١١) التعريفات للجرجانى مادة روح ص ٧٦ / ٧٧ ومادة ص ١٦٤ / ١٦٥ .

لأن الموت هو الانقطاع الكلى ، والنوم هو الانقطاع الناقص . وثبت أن الخالق جل وعلا دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أضرب : الأول إن بلغ ضوء النفس إلى جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه فهو اليقظة ، وإن انقطع ظاهره عن باطنه فهو النوم أو بالكلية فهو الموت » .

وقال عن الروح ما نصه :

« الروح الإنسانى هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان الراكبة على الروح الحيوانى نازل من عالم الأمر تعجز العقول عن إدراك كنهه ، وذلك الروح قد يكون مجرداً وقد يكون منطبقاً فى البدن » .

٣ – ابن الفارض (٥٧٧ هـ / ٦٣٢ هـ) :

لم يكن عمر بن أبى الحسن بن الفارض الحمدى الأصل المصرى المولد الصوفى الشاعر ، متحريا الدقة ، والوضوح فى لفظتى النفس والروح إلى الحد الذى نتمكن معه من معرفة حقيقة مذهبه ، فنحن نقرأ بعض شعره فنحس أن النفس عنده هى الروح ، أو أن الروح هى النفس حيث يستعملها كمترادفين لمعنى واحد . ثم نقرأ فنتبين أن النفس غير الروح والروح غير النفس . إذ ينتهى بنا إلى أن النفس بشرية مشوبة بشوائب الحس ورغبات البدن على عكس الروح، فإنها إلهية من عالم الأمر، فالنفس أقل مرتبة فى حبها ومعرفتها عن الروح ، لأن النفس محل الشهوات والحظوظ الباطلة والأمانى الحائلة ، أما الروح فإنها محل الحب الإلهى الذى منحته فى عالم الأمر ومركز الشهود الذى تدرك فيه الذات الإلهية إدراكاً عينيًّا لا مدخل للحواس فيه[١٢] .

ومن هنا يكون لابن الفارض مذهبان متناقضان فى مسألة هامة كهذه .

---

(١٢) ابن الفارض والحب الإلهى : د. محمد مصطفى حلمى – الطبعة الأولى ١٩٤٥ .

ومثال ذلك (فى قصيدته الغائية) :

مالى سوى روحى وباذل نفسه   فى حب من يهواه ليس بمسرف

وفى قصيدة أخرى :

أغار عليها أن أهيم بحبها   وأعرف مقدارى فأنكر غيرتى
فتختلس الروح ارتياحاً لها وما   أبرئ نفسى من توهم منية

فهو إن كان فى القسم الأول من شعره شاعراً أكثر منه صوفيًّا .. فهو فى قصيدته الثانية الكبرى صوفى بكل معانى الكلمة . وإذا نحن استثنينا من شعره الأبيات التى يقع فيها الخلط بين النفس والروح رأينا أن القاعدة العامة عنده هى التفرقة بينهما ، فهو يذهب إلى أن النفس مركز للصفات الحسية والشهوات البدنية والأخلاق المذمومة مما يحول بينها وبين الاتصال بالحق وشعورها باتحادها معه وشهودها له .

فإذا أردنا بعد معرفتنا لطبيعة النفس عند ابن الفارض أن نتعرف طبيعة الروح ، وكيف كان الشاعر يثبت لكل من الطبيعتين ما يميز إحداهما عن الأخرى ، رأينا أن أخص ما تمتاز به الروح سبقها فى الوجود على البدن ، فهى موجودة فى عالم الأمر قبل أن يوجد البدن فى عالم الشهادة ، وهى مستقلة فى حبها للذات وفى معرفتها لها استقلالا تامًّا عن البدن وحواسه .. ومما يدل على هذه التفرقة عند ابن الفارض قوله :

وبعد فحالى فيك قامت بنفسها   وبيّنتى فى سبق روحى بنيتى

وقال فى هذا المعنى :

منحت ولاها يوم لا يوم قبل أن   بدت عند أخذ العهد فى أوليتى
فنلت ولاها لا بسمع مناظر   ولا باكتساب واجتلاب جبِلّة
وهمت بها فى عالم الأمر حيث لا   ظهور وكانت نشوتى قبلَ نشأتى

كذلك ليس أدل عنده على التفريق بين النفس والروح من قوله :

فبالنفس أشباح الوجود تنعمت وبالروح أرواح الشهود تهنت

ولكن ما عسى أن يكون مكان البدن من النفس والروح وما ينكشف لهما من المعارف عند ابن الفارض ؟

ينظر ابن الفارض إلى البدن نظرة لا تقل فى قيمتها النفسية عن نظرة علماء النفس :

فالبدن عنده محل الإحساسات ، والروح محل المعانى الخفية المقابلة للمحسوسات الظاهرة . وبعبارة أخرى نقول مع ابن الفارض إن حواس البدن تدرك بواسطة النفس المتعلقة به صور الأشياء فى عالم الشهادة . على حين أن الروح بفضل تجردها عن البدن وحواسه تدرك معانى هذه الصور فى عالم الغيب .

ونستخلص من كل ما تقدم أن الإنسان فى نظر ابن الفارض روح ونفس وبدن ، وأن لكل من هذه الأشياء الثلاثة ما يميزه عن الآخر ، سواء فى موضوعه أم فى طبيعته . وليس معنى هذا أن فى الإنسان جزءاً مستقلا عن غيره من الأجزاء ، سمّى بالروح واختص بإدراك المعانى الخفية ، وجزءاً ثانيا مستقلاً سمى بالنفس واختص بتدبير البدن ، وجزءاً ثالثاً سمى بالبدن واختص بإدراك الصور المحسوسة ، بل الإنسان المؤلف من هذه الأجزاء عبارة عن وحدة بعضها مسخر لبعض ومتصل ببعض . فالإنسان عنده وحدة على الرغم من الإحساسات المختلفة التى تحسها نفسه بطريق الحواس المتعددة .

ونعرض إتماماً للفائدة من الكتب النادرة — ما تلقيناه من كنوز السلف عن « حقيقة الإنسان والروح الجوال فى العوالم » للإمام العلامة جلال الدين محمد بن سعد الدين أسعد الصديق الدوانى المتوفى سنة ٩٠٨ هـ . وقد عرف

الكتاب وترجم للمؤلف وعلق عليه المحقق الكبير الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثرى ، وكيل المشيخة الإسلامية فى الخلافة العثمانية سابقاً - وقد عنى بنشره ووقف على طبعه (الطبعة الأولى فى شهر شعبان ١٣٦٦ هـ الموافق يونية ١٩٤٧ م) السيد / السيد عزت العطار الحسينى وقد جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) .

« الحمد لله الذى جعل الروح سرًّا من الأسرار الخفية ، استأثر بعلمه وتعليمه لذاته العلية ، والصلاة والسلام على أشرف البرية نبينا محمد سيد الأنبياء والمرسلين ، المبعوث رحمة للعالمين ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين »[(١٣)] .

أما بعد : فإن شره العقول حمل الإنسان على الخوض فى كل مكان ، فى مباحث الروح التى صعبت مسالكها ، وعلت مداركها ، ولعلماء الإسلام قديماً وحديثاً بحوث مستفيضة فى ذلك معروفة ، بل لفلاسفة الغرب اشتغال طويل عريض فى المدة الأخيرة بمباحث النفس وأحوالها ، وبدراسة الروح الإنسانى وما إلى ذلك بمثابرة ، محاولين إدخال الأرواح البشرية تحت سلطان تصرفهم المادى ، بتجارب يتخيلون إمكان إجرائها فى إحضارها ومخاطبتها ، شأنهم فى مغامراتهم فى جميع التجارب المادية ، وستبدى الأيام عن مرد أمر هؤلاء الباحثين المندفعين بشره العقول .

والإنسان بطبعه إذا خلا بنفسه لا يخلو من التفكير فى شئون الروح ، وعجائب أسرار الله فيه فيرغب فى الاطلاع على ما قاله أساطين أهل العلم فى

(١٣) كلمة الناشر.

تلك المسائل العويصة . لتعرف صلة الروح بالجسد ، ووجه انقطاع تلك الصلة عند حلول الموت إلى غير ذلك من الشئون الروحية ، رغبة منه فى ازدياد العلم من هذه الناحية على وعورة هذه المسالك . ولقد شغلتنى هذه الأفكار مدة غير وجيزة ، وما زالت تشغلنى إلى الآن ، وهذا ما جعلنى أوالى السؤال والبحث عند من أثق بهم من أهل العلم والفضل ، عن علماء الإسلام الذين كتبوا فى هذا الموضوع وعن الكتب المدونة فيه المطبوع منها والمخطوط ، وممن استرشدت برأيهم صاحب الفضيلة العالم الجليل السيد محمد رشيد الحواصلى الدمشقى ، فأرشدنى حفظه الله تعالى إلى رسالة مخطوطة عنوانها « حقيقة الإنسان » للإمام جلال الدين الدوانى ، موجودة عند الأستاذ الكبير صاحب الفضيلة الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثرى ، وكيل المشيخة الإسلامية فى الخلافة العثمانية سابقاً ، ونزيل القاهرة الآن أمد الله فى عمره وأنها لرسالة على صغر حجمها تشفى غلة الباحث إلى أمد بعيد ، وتفتح أفقاً جديداً فى هذا الموضوع الخطير.

فقصدت ساحة مولانا الكوثرى وطرقت بابه لما لى من الدالة على فضيلته ، ورجوت منه أن يتكرم علىّ بالرسالة المذكورة ، ويسمح لى بنشرها لتغذية المكتبة العربية الإسلامية ، وأن يتكرم بكتابة تقدمة لها وترجمة لمؤلفها مع التعليق عليها فأجابنى حفظه الله تعالى وأبقاه إلى رغبتى ، كما هى عادته فى نشر العلوم وتثقيف العقول فكتب لها تقدمة وجيزة ، وعلق عليها تعليقاً علمياً مفيداً ، وها هى ذى الرسالة أقدمها لقراء العربية ، ورجال العلم ، والفلسفة راجياً أن تنال تقديرهم .

والله سبحانه وتعالى أسأل التوفيق فى الدنيا والرحمة والغفران فى الآخرة .

الناشر

السيد عزت العطار الحسينى

حقيقة الإنســان

رسالة بديعة للعلامة جلال الدين محمد بن سعد الدين أسعد الصديق الدوانى ، بتشديد الواو ، نسبة إلى دوان على وزن شداد . موضع فى كازرون بأرض فارس قرب شيراز ، وهو ممن جمع بين العلوم الشرعية والعلوم الفلسفية ، وكان يرحل إليه من أقاصى البلدان لتلقى العلم منه .

وحقيقة الإنسان كما هو موضوع هذه الرسالة له ناحيتان ناحية الهيكل الجسمانى وهو بطبعه يتهافت على الملذات السفلية ، وناحية الروح وهو لطيفة ربانية حثيثة الطيران إلى المعالى ، ويعجز أكثر العقول عن درك كنه حقيقة الروح ذلك الأمر الربانى العجيب ، وللروح والنفس والقلب والعقل إطلاقات فى اصطلاحات أهل العلم ، قد تتلاقى أو تتفارق وليس هذا موضع إيضاح ذلك ، وقد عنى الغزالى فى عجائب القلب بشرح تلك الاصطلاحات . وأفراد الإنسان على منازل متفاوتة فى صلتهم بالناحيتين ، فمن غلب عليه الانهماك فى الملاذ الجسمية فهو ملحق بالأنعام ، قال الله تعالى : (أولئك كالأنعام بل هم أضل) ، ومن خلص من سلطان الملاذ الجسدية وغلب عليه جانب تلك اللطيفة الربانية ، فهو ملحق بالملائكة على مدارج متصاعدة ، ومن تجاذبه الجانبان من غير أن يتغلب فيه أحد الجانبين على الآخر فهو المجاهد لنفسه وقد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وقد اختلف أهل العلم فى الروح الذى اعتبرناه لطيفة ربانية ، ثم بها سلطانه على الكون هل هو جسم لطيف يحل فى الجسم الكثيف الإنسانى – وهو

مذهب الجمهور – أو جوهر مجرد لا مكانى ، لا يوصف بالحلول والدخول ولا بالخروج والانفصال وغير ذلك من أوصاف الأجسام ، بل يوصف بالتعلق به تعلق تدبير ويقطع الموت تعلقه به ذلك التعلق ، والناس فى تفهم ذلك على أنحاء فالعامى لا يتصور موجوداً كهذا فى حين أن الخاصة لا ينكرونه وإن دقت مداركه ، ولهم فى تجرد الروح أدلة ليس الجمهور على قبولها ، وممن مال إلى تجرد الروح أبو منصور الماتريدى والحليمى صاحب (شعب الإيمان) والراغب الأصفهانى ، والغزالى ، والرازى ، والبيضاوى ، وكثير غيرهم ، ومن أحسن من تكلم فى ذلك البطليوسى فى الحدائق .

ومن أدلة القائلين بتجرد الروح الذى هو النفس الناطقة أن معلوماته لا تقف عند حد ، فلو كان الروح جسماً لكانت معلوماته واقفة عند حد لتعذر ارتسام ما لا نهاية له من الصور فى جسم محدود ، وتفهم تجرد الروح يعين كثيراً على فهم تنزه الإله جل شأنه من الزمان والزمانيات والمكان والمكانيات ، وهذا ما لا يرقى إليه فهم العامى أصلاً فالواجب الاكتفاء بالتنزيه العام فى إثبات الصفات العليا من غير خوض فى ذلك وهذا كاف للجميع فى النجاة . لكن شره العقول يحمل الإنسان على الخوض فيما لا قبل له به فيضل بسبب الخوض كثير من البشر فى وادى الحيرة ، بل قال الغزالى فى (النفخ والتسوية) : الناس قسمان عوام وخواص ، أما من غلبت على طبعه العامية فلا يقبل كون الله سبحانه لا داخل العالم ولا خارجه ، فضلاً عن أن يقبل ذلك فى الروح الإنسانى ، وأطال الكلام فى ذلك إلى أن قال : ومن كانت العامية غلبت عليه – كأكثر الكرامية والحنبلية – جعل الإله جسماً إذ لا يعقل موجوداً إلا متجسماً مشاراً إليه . ومن ترقى عن العامية قليلا نفى الجسمية ، وما أطاق أن ينفى عوارض الجسمية فأثبت الجهة ، وترقى عن هذه العامية الأشعرية والمعتزلة فأثبتوا موجوداً لا فى جهة

لكنهم أحالوا أن تكون هذه الصفة لغير الله ، حتى نفى جمهورهم تجرد الروح — ثم أفاض الغزالى فى ترجيح ما ارتآه فى هذا الصدد .

قال البدر العينى فى شرح البخارى (٢ — ٦٠١) عند الكلام فى الروح : هو جوهر لطيف نورانى ، يكدره الغذاء والأشياء الرديئة الدنيئة ، مدرك للجزئيات والكليات حاصل فى البدن متصرف فيه ، غنى عن الاغتذاء ، برىء عن التحلل والنماء ، ولهذا يبقى بعد فناء البدن إذ ليست له حاجة إلى البدن ، ومثل هذا الجوهر لا يكون من عالم العنصر بل من عالم الملكوت ، فمن شأنه ألا يضره خلل البدن ، ويلتذ بما يلائمه ويتألم بما ينافيه ، والدليل على ذلك قوله تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم) الآية ، وقوله ﷺ : إذا وضع الميت على نعشه رفرف روحه ويقول : (يا أهلى ويا ولدى) . فإن قلت كيف يفسر الروح وقد قال تعالى : (قل الروح من أمر ربى) قلت معناه من الإبداعات الكائنة يكون من غير مادة وتولد من أصل ا . هـ . وفى فيض البارى (٣ — ٤٢٥) عند الكلام فى حياة الشهداء : واعلم أن الحديث أسند الأكل والشرب إلى النسمة دون الجسد ، فإنه فى التراب فدل على أن النسمة غير الجسد ، وكذلك غير الروح ، لأن الروح لا يسند إليها الأكل والشرب ما لم تتصل بجسد مادى ا . هـ .

ومن اطلع على ما ألف فى الروح من الكتب ، ثم طالع رسالة الدوانى هذه يجدها على صغرها بديعة الأسلوب جمة الفوائد ، تطرق بحوثاً سكت عنها آخرون ، وتتعرض لبيان الروح الجوال فى العوالم بمغادرته الجسم فى أثناء النوم ، وللروح المحتفظة بصلة الهيكل الجسمانى الكثيف بالجسم اللطيف الذى ذكرناه بالروح الجوال ، وتصرفات الروح الخارقة للعادات وغير ذلك مما يفتح أفقاً واسعاً للباحثين ، وينير كثيراً من نواحى هذا البحث العويص المتشعب على

مذاق خاص مزيج بالتصوف والفلسفة يهتم به كثير من الناظرين . ففى نشرها فوائد للروحيين ، والله ولى النفع ، ومنه التوفيق والتسديد .

محمد زاهد الكوثرى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق آدم على صورته (١٤) ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد الذى ظهر بحقيقته ، وعلى آله وصحبه خزنة علومه وسلاك طريقته بشريعته . وبعد :

فهذه رسالة فى حقيقة الإنسان ، وما ركبه الله تعالى فيه ، واجب حفظها للأذكياء لكثرة فوائدها . ووفرة عوائدها ، وهى من مواهب الحق عز وجل ، تعبت فى تأليفها مدة خمسة أعوام لكونى أحببت أن أثبت معجزات الأنبياء ، وكرامات الأولياء ، بالدليل العقلى لأجل إلزام الخصماء . وهذا لا ييسر إلا بعد معرفة خواص الإنسان ، ومعرفة حقيقته . وما هو مركب منه ، والله الهادى لا إله غيره .

---

(١٤) الضمير راجع لآدم فيكون المؤلف حمد الله سبحانه على خلق آدم وبنيه فى أحسن تقويم ، على الشكل المختار لهم والصفات المتخيرة لآدم وبنيه ، لكون ذلك كله أبدع ما خلق عليه مخلوق مما يمكنه من وجوه التصرف ، وفيه إشارة إلى حديث البخارى ومسلم عند ذكرهما طول آدم فى أول الخلقة ، وجزم الخطابى برجوع الضمير إلى آدم لقربه ولاستحالة التخاطيط على الله ، وكذا فى حديث آخر فى اجتناب ضرب وجه الخادم لكون وجه هذا المضروب كوجه آدم أبى كل إنسان ، بحيث يجب عليه بره واحترامه .

وأما حديث (على صورة الرحمن) فى بعض الروايات فتغيير من بعض الرواة على فهمه المعوج ، وليس بلفظ الرسول ، وقد رد ابن خزيمة فى (كتاب التوحيد) هذه الرواية بعلل إرسال الثورى على خلاف الأعمش ، وعنعنة الأعمش ، وعنعنة حبيب بن أبى ثابت وهما مدلسان ، والمدلس إذا عنعن ترد روايته ، والله سبحانه هو مصور كل ذى صورة وليس بذى صورة على خلاف اعتقاد المجسمة كما هو مشروح فى دفع الشبه لابن الجوزى والسيف الصقيل للتقى السبكى والأسماء والصفات للبيهقى .

اعلم أن الإنسان مركب من ثلاثة أشياء . من جسم كثيف . وجسم لطيف . وروح ، وإن شئت زيادة إيضاح . فاعلم أن جسمك الكثيف هو الجسم الراقد فى الفراش حالة النوم ، وجسمك اللطيف هو الجسم الذى يسير فى النوم ، والروح هو الرابطة بين الجسم الكثيف والجسم اللطيف وهو الاستعداد[١٥] المودع فيه المسمى بالروح . ويحصل الموت بافتراق الجسمين إلى يوم القيامة كما ستقف عليه .

ثم اعلم أن الفناء للجسم الكثيف دون الجسم اللطيف والروح ، فإن قلت هل الفناء على الجسم الكثيف دونهما عام فى جملة الأجسام من الكفار ، والمؤمنين ، والأولياء وغيرهم أم لا ؟ قلت نعم عام فى جميعها إلا ما استثنى الشارع من أجسام الأنبياء والشهداء ، وبعض الأولياء . فإن قلت ما الدليل على بقائهما ؟ قلت : أما الكفار فقد ورد عن النبى ﷺ أنه مر بقليب بدر[١٦] فخاطب أموات الكفار بقوله : (إنى وجدت ما وعدنى ربى حقًّا ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا) ، فقيل للنبى ﷺ : أتخاطب عظاماً أرمت فقال ﷺ : (والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول لكنهم لا يجيبون » .

وأما المؤمنون فقد ثبت أيضاً أنه ، ﷺ ، خاطبهم وسلم عليهم وثبت أيضاً فى الحديث الصحيح النبوى علم الميت بمن يزوره ، فى قبره وفرحه بزائره ، ورده سلامه ، وتأذيه ممّن يجلس على قبره . وفى البخارى[١٧] أن أحد الصحابة جلس

---

(١٥) يريد ما به الاستعداد ، لا الاستعداد نفسه إذ لا شأن للعرض هنا .

(١٦) حديث قليب بدر أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما بألفاظ متقاربة فى المعنى .

(١٧) كلا بل أخرج الترمذى والحاكم والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ضرب بعض أصحاب النبى ، ﷺ ، خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة الملك ، حتى سمعها فأتى النبى ، ﷺ ، فأخبره فقال رسول الله ﷺ : هى المانعة هى المنجية تنجى من عذاب القبر .

على قبرٍ ، ولم يعلم أنه قبر فسمع قراءة الميت سورة الملك من داخل قبره .

وبالجملة فما ذكرنا من عدم فناء الأجسام اللطيفة ، والأرواح ، وعلم الأموات جميعاً بزوارهم ، وسماعهم أقوالهم ، ومخاطباتهم بل تميزهم بقوة العلم والسماع عن الأحياء صحيح ثابت ، بحيث يخشى على منكره الكفر . وناهيك دليلاً على ما قلنا قوله تعالى .

(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) ، والأحاديث التى سبقت وما ورد فى كتب الصحاح . فإن قلت : إذا كان أموات المؤمنين والكفار متساوين فى هذا الأمر فما الفرق بين أموات هؤلاء وهؤلاء ، قلت كما أن عالم الشهادة الذى هو عالم الدنيا فيه المسجون والمطلق ، والمنعم ، والمعذب ، وذو المناصب الرفيعة ، والأراذل ، والجنان ، والمزابل ، كذلك عالم البرزخ فالمؤمنون ، والأنبياء والأولياء يعلمون بالزوار ويسمعون كلامهم من مقاماتهم الجليلة ، وهم منعمون بأنواع النعم على قدر مراتبهم . وأما الكفار والعصاة فإنهم يسمعون من مقاماتهم السافلة السيئة المنتنة النجسة ، وهم معذبون بأنواع العذاب على قدر مراتبهم . فإن قلت فأين مقر هذه الأجسام اللطيفة وأين مقر الأرواح ؟ فاعلم أننا سمينا فى هذه الرسالة الاستعداد[18] المودع فى الأجسام الكثيفة لقبول الأجسام اللطيفة وحلولها فيها روحاً لكون العقل والنقل يحكمان بحياة النائم ، وأنه ليس بميت وذلك بما يشاهد من تنفس النائم وحركة نبضه فى حال نومه ، وإن كان جسمه اللطيف مفارقاً لجسمه الكثيف

---

(١٨) أى ما يحصل به إشراق الاستعداد على الجسم الكثيف لقبول حلول الجسم اللطيف فيه على أن يكون من قبيل ذكر المسبب ، وإرادة السبب ستراً لمرماه عن غير أهله فيكون المراد به الروح الإنسانى المعبر عنه بالأمر الربانى ، واللطيفة الربانية المدركة العالمة المعدودة جوهراً مجرداً تتصرف فى النسمة التى هى الجسم اللطيف ، وفى الجسم الكثيف فى آن واحد ولذا تعد النسمة مطية للروح الإنسانى .

سائراً فى عالم البرزخ بسبب ركود حواسه بالنوم الحاصل من الأبخرة المرطبة للجسم والدماغ ، أو بسبب الإغماء الحاصل من فساد المزاج فهذا الروح لا يعلم مقره ومكانه (١٩) . وعلم ذلك عند الله تعالى .

وأما الجسم اللطيف الحال فى الجسم الكثيف ما دام الكثيف مستعدًّا لحلول اللطيف فيه المفارق له فى حالة النوم إلى وقت الانتباه ، وفى حال الموت إلى وقت سؤال الملكين فى القبر ، وبعد السؤال إلى الحشر فهو يسمى بالروح أيضاً فى لسان الشرع : وجميع ما ورد من حياة الشهداء وعدم موت المؤمن وانتقاله من دار إلى دار ، وخلقه للأبد لا للموت ومقر أرواح الشهداء والمؤمنين ، ومقر أرواح الكفار فالمراد به هذا الجسم اللطيف الحال فى الكثيف وهو المسمى بالروح فى قوله ، ﷺ ، فى شهداء أحد « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش (٢٠) .

وأنت خبير بأن النبى ، ﷺ ، لو أراد بالأرواح الكائنة فى الأجسام الكثيفة التى سميناها بالاستعداد المودع فيها لحلول اللطيف فيها لجاز التناسخ (٢١) من هذه الأجسام اللطيفة ، وكذلك يدل على ما قلنا الحديث الذى رواه عمر ابن عبدالعزيز ، وهو ما أخرجه الحافظ أبو نعيم أنه قال : « إنما خلقتم للأبد لكنكم تنقلون من دار إلى دار » .

وأنت خبير بأن هذا الجسم الكثيف يفنى ويصير تراباً ، فتعين أن يكون المراد

---

(١٩) لأن الجمهور على أنه جسم لطيف أيضاً ، وسبق أنه جوهر مجرد عند طائفة .

(٢٠) أخرجه محمد بن إسحاق عن إسماعيل بن أمية عن أبى الزبير عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢١) وهو باطل فى الشرائع الإلهية ، وما به الاستعداد هو مدار الحياة فينتفى التناسخ بانتفاء قصد هذا الروح الإنسانى الذى هو مدار الحياة .

بها الأجسام اللطيفة . لا يقال إن الروح الذى سميتموه بالاستعداد المودع فى الكثيف هو المنتقل من دار إلى دار وهو المراد – والله أعلم – بقوله عز وجل : (قل الروح من أمر ربى) .

إذا علمت ذلك فاعلم أن مقر أرواح المؤمنين التى هى أجسامهم اللطيفة هو السماء السابعة ، على ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ، ﷺ ، أنه قال[٢٢] : « أن أرواح المؤمنين فى السماء السابعة ينظرون إلى منازلهم فى الجنة » . وروت أم بشر رضى الله عنها – وهى صحابية – قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن نسمة المؤمن تسرح فى الجنة حيث شاءت ونسمة الكافر فى سجين »[٢٣] .

فإن قلت كيف يعلم الميت الزائر ويسمع كلامه وهو فى السماء السابعة وجسمه الكثيف صار تراباً ، وكذا الكافر كيف يسمع وهو مسجون فى سجين ، قلنا : هذا محل بروز جواهر هذه الرسالة ، فكانت معدن الجواهر فاسمع لما نقول وانظر إلى ما أودعه الله تعالى فى الإنسان من الخواص التى تحير العقول . ثم تفطن أن الله تعالى لما جعل الإنسان مركباً من جسم كثيف وهو الجسد . وجسم لطيف وهو السائر فى حالة النوم ومن روح هو الرابطة بينهما جعل الكثيف مربوطاً بعادات بحيث لا يقطع المسافة إلا بالخطى ، ولا يستعلى إلا بالصعود ، ولا يشبع إلا بالأكل ، ولا يروى إلا بالشرب ، ولا ينفق إلا بالكسب إلى غير ذلك من العادات . وجعل الجسم اللطيف مربوطاً بخرق العوائد بحيث لا يستحيل عليه شىء فتراه إذا فارق هذا الكثيف فى حالة النوم ، يطير فى الهواء ، ويمشى على

---

(٢٢) أخرجه الديلمى وليس بذاك .

(٢٣) ولفظ ابن منده : أن أرواح المؤمنين نسمة تسرح فى الجنة حيث تشاء ، وأن نسمة الفاجر فى سجين .

الماء ، ويجتمع بالأنبياء ، ويقطع من المشرق إلى المغرب فى لحظة ، ويصعد بالطيران إلى العرش ولا يستحيل عليه شىء مما هو معروف من حال النائم ، ثم إنه إذا رأى نفسه عند العرش وأيقظه أحد يرجع ويحل فى الجسم ، ويستيقظ النائم مقدار طرفة عين ، ولا يحصل للجسم الكثيف انزعاج عند حلوله فيه بل يستيقظ ولا يعلم كيفية حلوله ، هذا مع بعد المسافة من العرش إلى الأرض . وكل هذه الأشياء إنما لا يستحيل عليه لكونه لطيفاً ، وهكذا الأجسام اللطيفة من الملائكة وغيرهم .

إذا علمت ذلك فاعلم أن الأنبياء ، والأولياء لما تحققوا بعدم استحالة خرق العوائد على الأجسام اللطيفة لطفوا أجسادهم الكثيفة أيضاً بأنواع الرياضات ، والمجاهدات ، ومخالفة النفس وترك الشهوات حتى تلطفت أجسادهم الكثيفة ، وصارت مضاهية لأجسامهم اللطيفة وظهرت منهم المعجزات ، والكرامات ، وجميع خوارق العوائد لعدم استحالة شىء على الأجسام اللطيفة .

ثم اعلم أن الأموات يعلمون بزوارهم ، ويسمعون كلامهم [٢٤] ، ويتأذون بمن يجلس على قبورهم بأجسامهم اللطيفة وإن كان ثمة مسافة . وقد أخرج ابن أبى الدنيا عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » [٢٥] .

---

(٢٤) قال سعد الدين التفتازانى فى شرح المقاصد (٢ - ٣٢) : « الظاهر من قواعد الإسلام أنه يكون للنفس بعد المفارقة إدراكات جزئية ، واطلاع على بعض جزئيات أحوال الأحياء سيما الذين كان بينهم وبين الميت تعارف فى الدنيا ، ولهذا ينتفع بزيارة القبور والاستعانة بنفوس الأخيار من الأموات فى استنزال الخيرات واستدفاع الملمات ، فإن للنفس بعد المفارقة تعلقاً ما بالبدن وبالتربة التى دفن فيها ، فإذا زار الحى تلك التربة وتوجهت تلقاء نفس الميت حصل بين النفسين ملاقاة وإفاضات .

(٢٥) فى سنده يحيى بن ريمان وعبد الله بن سمعان وهو ابن زياد .

« وأما الذين لا تأكل الأرض أجسادهم فلهم أحوال وأسرار تحير العقول[٢٦] ، ولا يجوز كشفها وإفشاؤها . ومن كان ذا ذهن وذكاء يتفطن لها بما رمزنا فى هذه الرسالة والله تعالى أعلم » .

تمت رسالة حقيقة الإنسان للإمام جلال الدين الدوانى رحمه الله تعالى .

(٢٦) بل أرواح هؤلاء الكمل كالسيوف المغمدة ما دامت فى أجسادها ، وعند انسلاخها من الأجساد تصبح كالسيوف المجردة فى قوة المضاء كما هو مشروح فى موضعه ، وترى ابن القيم يعزو إلى ذلك الروح هزم جيوش فليراجع كتاب الروح له .

البَابُ الثالث

يسألونك عن الروح

يسألونك عن الروح

يتساءل الناس .. ما الروح ؟ وما النفس ؟ ويتساءل الناس عن الغيب وعن الساعة .. لأن الروح من عالم الغيب ، ولأن الساعة موعدهم (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) .

ولقد تساءل الناس من قبل عن هذه المفاهيم على مر العصور ، وشهد كل جيل فريقاً من قادة الفكر يعرض لهذه القضايا ، حتى تناهى إلينا تراث كثير الركام شديد الزحام ، لا يكاد الباحث فيه يستبين وجه الحق بشيء يقيني .. ومن ثم يعمد الباحث بدوره إلى هذه القضايا فيبدئ فيها ويعيد .. ولسنا ممن يريدون أن يحكم العقل فى أمور الغيب التى يتلقاها المؤمنون من مصدر علوى مفارق لقدرات البشر.. ولسنا ممن يمجدون مصدر المعرفة الصحيح وهو الوحى .. ولكننا ممن شغفهم حب الله وبهرهم خلقه فقلبوا فيه النظر تقرباً إليه وتودداً .. وعملاً بقوله (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ..) فاللهم ها نحن أولاء ننظر فاهدنا وعلمنا من علمك ..

مادة « روح » فى القرآن الكريم

فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم[1]

تريحون : (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون)٦ / النحل

رواحها : (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر)١٢ / سبأ

روح : (ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) ٨٧ / يوسف

(فأما إن كان من المقربين.فروح وريحان وجنة نعيم) ٨٨ ، ٨٩ / الواقعة

روح : (وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) ٢٥٣ / البقرة

(وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) ١٧١ / النساء

(اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس) ١١٠ / المائدة

(ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) ٢ / النحل

(قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا) ١٠٢ / النحل

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى)٨٥ / الإسراء

---

(١) للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى .

(نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين .) ١٩٣ ، ١٩٤/ الشعراء

(يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق) ١٥ / غافر

(أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) ٢٢ / المجادلة

(تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ٤ / المعارج

(يوم يقوم الروح والملائكة صفًّا) ٣٨ / النبأ

(تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) ٤ / القدر

روحاً : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) ٥٢ / الشورى

روحنا : (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويًّا) ١٧ / مريم

(والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا) ٩١ / الأنبياء

(ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها . فنفخنا فيه من روحنا) ١٢ / التحريم

روحه : (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) ٩ / السجدة

روحى : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) ٢٩ /الحجر

(فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) ٧٢ / ص

ريح : (كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا
أنفسهم) ١١٧ / آل عمران
(حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح
طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف
وجاءهم الموج من كل مكان) ٢٢ / يونس
(ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح
يوسف) ٩٤ / يوسف
(أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم
عاصف) ١٨ / إبراهيم
(فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما
كفرتم) - ٦٩/ الإسراء
(ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره) ٨١ / الأنبياء
(فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان
سحيق) ٣١ / الحج
(ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر)١٢ / سبأ
(فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث
أصاب) ٣٦ / ص
(إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على
ظهره) ٣٣ / الشورى
(بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم)٢٤ / الأحقاف
ريح : (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) ٤١ / الذاريات
(وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) ٦ / الحاقة

ريحا : (ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرًّا لظلوا من بعده يكفرون) ٥١ / الروم

(إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها) ٩ / الأحزاب

(إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر) ١٩ / القمر

(فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات)١٦ / فصلت

ريحكم : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا) ٤٦ / الأنفال

الرياح : (وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) ١٦٤ / البقرة

(وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته) . ٥٧ / الأعراف

(وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه) ٢٢ / الحج

(فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح) ٤٥ / الكهف

(وهو الذى أرسل الرياح بشرًا بين يدى رحمته) ٤٨ / الفرقان

(ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته) ٦٣ / النمل

(ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته) ٤٦ / الروم

(الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء) ٤٨ / الروم

(والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت) ٩ / فاطر

(فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون) ٥ / الجاثية

ريحان : (والحَبّ ذو العصف والريحان) ١٢ / الرحمن

(فأما إن كان من المقربين. فروح وريحان وجنة نعيم) ٨٨ ، ٨٩ / الواقعة

معنى كلمة (الروح) فى القرآن الكريم

إذا نحن سعينا إلى كتاب الله عز وجل للتعرف إلى حديث الروح فيه نجد أن القرآن الكريم قد استعمل كلمة الروح فى أكثر من معنى :

(ا) استعملها للدلالة على ذلك **السر الإلٰهى الذى يودعه الله تعالى جسم الإنسان** فيحيا به ، فقال فى سورة السجدة : (وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) وقال فى سورة الحجر : (وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) . وقال عن مريم فى سورة الأنبياء : (والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) . وقال فى سورة التحريم : (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من

روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) .

(ب) واستعمل القرآن الكريم كلمة (الروح) **للدلالة على (جبريل عليه السلام)** وسماه (الروح الأمين) و (روح القدس) فقال فى سورة البقرة : (وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) . وقال فى سورة المائدة : (إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس) . وقال فى سورة النحل : (قل نزَّله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) .

وقال أهل التفسير إن روح القدس هو جبريل ، وهو روح الوحى ، الذى يؤيد به الله تعالى أنبياءه فى عقولهم ومعارفهم ، وسمى روح القدس لأن التعليم الذى يكون به مقدس ، أو لأنه يقدس النفوس أى يطهرها . وفى سورة الشعراء : (وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين) . وقال أيضاً عن جبريل وهو يتحدث عن مريم فى سورة مريم : (فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويًّا) .

(حـ) واستعمل القرآن الكريم كلمة الروح **للدلالة على بعض الملائكة ، أو على صنف منهم له مكانة وشرف** ، فقال فى سورة المعارج : (تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) وقال فى سورة النبأ : (يوم يقوم الروح والملائكة صفًّا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) . وفى سورة القدر : (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) .

(د) واستعمل القرآن كلمة الروح **للدلالة على القوة والتأييد من الله** ، فقال فى سورة المجادلة : (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) . وقال فى سورة النساء : (إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) . أى ذو روح ، أى ذو قوة وهبه الله إياها فاستطاع بفضل من الله

أن يصنع بها المعجزات . . .

(هـ) واستعمل القرآن الكريم كلمة الروح **للدلالة على وحى الله ، أو على كتابه المجيد ، وهو القرآن الكريم** ، فقال فى سورة النحل : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) . وقال فى سورة غافر : (رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق) . وقال فى سورة الشورى ، وهو يريد القرآن الكريم : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) . وقال فى سورة الإسراء : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) . ولعل هذه الآية الكريمة هى أكثر الآيات القرآنية ذكراً على الألسنة للدلالة على الروح بمعنى السر الإلهى الذى يودعه الله فى الانسان ، فتكون به الحياة والحركة مع أن المراد بالروح فى هذه الآية بمعنى السر الإلهى حسبما يلوح من سياقها – هو القرآن الكريم حيث جاءت هذه الآية وسط آيات تقول : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً . وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشركان يئوساً . قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً . ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً . ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً . إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً . قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً) .

هكذا مضت الآيات فى مسيرتها وهى فى أولها ووسطها وآخرها تتحدث عن

القرآن أو تشير إليه ، وهذا يرجح أن المراد بالروح الوارد هنا هو القرآن الكريم ، لأنه شبيه بالروح فى إحياء النفوس ، ولأنه سبب الحياة الأخروية السعيدة الباقية .

ويؤيد **الإمام الرازى** فى تفسيره أن المراد هنا بالروح هو القرآن المجيد ، فيقول فيما يقول : تسمية الله القرآن بالروح يدل عليه قوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) . وقوله : (ينزل الملائكة بالروح من أمره) . وأيضاً السبب فى تسمية القرآن بالروح أن به تحصل حياة الأرواح والعقول ، لأن به تحصل معرفة الله تعالى ومعرفة ملائكته ومعرفة كتبه ورسله ، والأرواح إنما تحيا بهذه المعارف وتمام تقرير هذا الموضوع ذكرناه فى تفسير قوله تعالى : (ينزل الملائكة بالروح من أمره) . ثم يضيف قوله : اللائق بهذا الموضع هو القرآن لأنه تقدمه قوله : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) . والذى تأخر عنه قوله : (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك) إلى قوله : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) . فلما كان ما قبل هذه الآية فى وصف القرآن وما بعدها كذلك وجب أيضاً أن يكون المراد من هذا الروح القرآن ، حتى تكون الآيات كلها متناسبة متناسقة .

الروح فى الأحاديث النبوية وكتب السلف

ونحن نقرأ فى كتاب الروح لابن القيم أن أكثر السلف بل كلهم على أن الروح المسئول عنها فى الآية ليست أرواح بنى آدم ، بل هو الروح الذى أخبر الله عنه فى كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم ، وقد ثبت فى

الصحيح من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة بن عبد الله قال : بينما أنا أمشى مع رسول الله ، ﷺ ، فى حرة المدينة وهو متكئ على عسيب فمررنا على نفر من اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم لا تسألوه عسى أن يخبر بشىء تكرهونه ، وقال بعضهم نسأله ، فقام رجل فقال : يا أبا القاسم ما الروح ؟ فسكت عنه رسول الله ، ﷺ ، فعلمت أنه يوحى إليه .. فقمت فلما تجلى عنه قال : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) . ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحى ، وذلك هو الروح الذى عند الله لا يعلمها الناس .

وأما أرواح بنى آدم فليست من الغيب ، وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم ، فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة .

فإن قيل فقد قال أبو الشيخ حدثنا الحسين بن محمد بن إبراهيم ، أنبأنا إبراهيم بن الحكم عن أبيه عن السدئ عن أبى مالك عن ابن عباس قال : بعثت قريش عقبة بن أبى معيط وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة يسألونهم عن النبى ، ﷺ ، فقالوا لهم : إنه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبى وليس على ديننا ولا على دينكم قالوا فمن تبعه ؟ قالوا : سفلتنا والضعفاء والعبيد ومن لا خير فيه ، وأما أشراف قومه فلم يتبعوه ، فقالوا : إنه قد أظل زمان نبى يخرج وهو على ما تصفون من أمر هذا الرجل فائتوه فاسألوه عن ثلاث خصال نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبى صادق ، وإن لم يخبركم بهن فهو كذاب ، سلوه عن الروح التى نفخ الله تعالى فى آدم فإن قال لكم هى من الله فقولوا : كيف يعذب الله فى النار شيئاً هو منه ؟ قيل فسأل جبريل عنها فأنزل الله عز وجل الآية (ويسألونك ...) يقول : « هو خلق من خلق الله ليس هو من الله » .. ثم ذكر باقى الحديث .. قيل مثل هذا الإسناد لا يحتج به فإنه من

تفسير السدى عن أبي مالك وفيه أشياء منكرة ، وسياق هذه القصة فى السؤال من الصحاح والمسانيد كلها تخالف سياق السدى ، وقد رواها الأعمش والمغيرة ابن مقسم عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : مر النبى ، ﷺ ، على ملأ من اليهود وأنا أمشى معه فسألوه عن الروح ، قال : فسكت فظننت أنه يوحى إليه فنزلت : (ويسألونك عن الروح ...) يعنى اليهود .. وكذلك هى فى قراءة عبد الله .. فقالوا كذلك نجد مثله فى التوراة ، أن الروح من أمر الله عز وجل .. رواه جرير بن عبد الحميد وغيره من المغيرة .

وروى يحيى بن زكريا عن أبي زائدة عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن أبي عباس رضى الله عنهما قال : أتت اليهود إلى النبى ، ﷺ ، فسألوه عن الروح فلم يجبهم النبى ، ﷺ ، بشىء فأنزل الله عز وجل الآية (ويسألونك ...) فهذا يدل على ضعف حديث السدى وأن السؤال كان بمكة فإن هذا الحديث وحديث بن مسعود صريح ، فى أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود ، ولوكان قد تقدم السؤال والجواب بمكة لم يسكت النبى ، ﷺ ، ولبادرهم بالإجابة بما تقدم من إعلام الله له وما أنزله عليه ..

وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية .أعظم اضطراب ، فإما أن تكون من قبل الرواة أو تكون أقواله قد اضطربت فيها ، ونحن نذكر ذلك فقد ذكرنا رواية السدى عن أبي مالك عنه ، ورواية داود بن أبي هند عن عكرمة عنه تخالفها ، وفى رواية بن أبي هند هذه اضطراب فقال مسروق بن المرزبان وإبراهيم بن أبي طالب عن يحيى بن زكريا عنه أن اليهود أتت النبى ، ﷺ ، .... الحديث .

وقال محمد بن نصر المروزى حدثنا إسحاق أنبأنا يحيى بن زكريا عن داود .. عن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود : اعطونا

شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح فنزلت الآية (ويسألونك ....) .

وهذا يخالف الرواية الأخرى عنه وحديث بن مسعود .

وعن ابن عباس رواية ثالثة قال هشيم حدثنا أبو بشر عن مجاهد عن ابن عباس قل : الروح من أمر الله عز وجل ، وخلق من خلق الله ، وصور مثل صور بنى آدم ، وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح وهذا يدل على أنها غير الروح التى فى ابن آدم .

وعن رواية رابعة قال ابن منده روى عبد السلام بن حرب عن حصيف عن مجاهد عن ابن عباس (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) قد نزل من القرآن بمنزلة كن . نقول كما قال الله تعالى : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) ثم ساق من طريق حصيف عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان لا يفسر أربعة أشياء : الرقيم والغسلين والروح .

وعنه رواية خامسة : رواها جويبر عن الضحاك عنه أن اليهود سألوا رسول الله ، ﷺ ، عن الروح فقال : قال الله تعالى (.... قل الروح من أمر ربّى) يعنى خلقاً من خلق (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) يعنى لو سئلتم عن خلق أنفسكم . وعن مدخل الطعام والشراب ومخرجها ، ما وضعتم ذلك حق صفته وما اهتديتم لصفتها .

وعنه رواية سادسة : روى عبد الغنى بن سعيد حدثنا موسى بن عبدالرحمن عن ابن جريج عن ابن عباس فى قوله تعالى : (ويسألونك عن الروح) وذلك أن قريشاً اجتمعت وقال بعضهم لبعض والله ما كان محمد يكذب ، ولقد نشأ فينا بالصدق والأمانة ، فأرسلوا جماعة من اليهود فاسألوهم عنه ، وكانوا مستبشرين به ويكثرون ذكره ويدعون نبوته ويرجون نصرته موقنين

بأنه سيهاجر إليهم ويكونون له أنصاراً ، فسألوهم عنه فقالت لهم اليهود : سلوه عن ثلاث : سلوه عن الروح ، وذلك أنه ليس فى التوراة قصته ولا تفسيره إلا ذكر اسم الروح فأنزل الله تعالى الآية .. وقد سبق أن رأينا أن الروح فى القرآن على عدة أوجه .

مادة « روح » فى معاجم اللغة العربية ومعاجم القرآن

ما مفهوم كلمة الروح ؟[2] .

أول ما يجب أن نعرفه ونحن بصدد البحث فى معرفة حقيقة الروح هو أن نعرف مفهومها ككلمة عربية ، باعتبار اللغة العربية هى لغة القرآن أولا ، ولغة البحث والتعبير ثانياً ، وإذا نحن رجعنا إلى المعاجم وجدناها غنية بالمعانى التى تعبر عنها كلمة (الروح) فمرة نراها فى المعاجم هى النفس .. وأخرى .. ما به حياة النفس .. وثالثة .. خلق من خلق الله لم يعط علمه لأحد .. ورابعة .. بمعنى (النفس) بفتح الفاء أى الذى يتنفسه الإنسان ..

ونحن مع كل ذلك نلاحظ أنها قريبة الألفاظ مع كلمة (ريح) ، وكذلك نلاحظ أن أصل مادة الروح فى لغة العرب يدل على الحركة والمسير ومن ذلك قولهم : راح .. يروح أى سار فى أى وقت كان ، ولعل ذلك يتصل باشتقاق كلمة الريح من المادة ، لأن الهواء متحرك فى الطبقات المحيطة بالأرض ، والحركة هى المظهر الأساسى للحياة .. واعتقادنا أنه من هنا أطلقت كلمة الروح على ما به حياة الإنسان ..

ويقول الأصفهانى : فى (مفردات القرآن) أن الروح اسم للجزء الذى

---

(٢) من بحث نشر بمجلة الهلال – العدد الحادى عشر – السنة الواحدة والسبعون .

تحصل به الحياة والتحرك واستجلاب المنافع واستدفاع المضار .

ويقول ابن الأثير : فى (النهاية) الروح هو الذى يقوم به الجسد وتكون به الحياة وقد حفلت المراجع والمصادر العربية بطائفة من التعريفات للروح فقيل .. هى جسم هوائى فى القلب ، أو هى جزء فى الدماغ لا يتجزأ .. وقيل هى جسم لطيف بخارى يتكون من لطافة الأخلاط وبخاريتها ، وقيل أن الروح لطيفة سارية فى البدن سريان ماء الورد باقية من أول العمر إلى آخره ، لا يتطرق إليها تحلل ولا تبدل ، حتى إذا قطع عضو من البدن انقبض ما فيه من الروح إلى سائر الأعضاء .

واختار بعضهم هذا التعريف : (الروح الإنسانى جوهر مجرد ليس بداخل العالم الجسمانى ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنه ، ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، يدركه العقل ولا يبلغه الحسّ ، وهذا الجوهر هو أكرم ما فى الإنسان) .

وأغلب التعريفات للروح – إن لم تكن جميعها – تعتمد على التعبير عن الخواص والآثار والمظاهر ، ولا تقدم الكنه أو الحقيقة .. وكأن العلماء بهذا يريدون أن يقولوا : إننا نستطيع أن نبحث فى الروح وسلطانها وبدئها ونهايتها ، وتأثيرها وآثارها ، وخصائصها وظواهرها ، ولكن حقيقة جوهرها مستورة محجوبة ، وإن ثار فينا حب البحث عنها والجرى وراء معرفتها ، ولعل هذا هو الذى جعل الواسطى يقول : « خلق الله الأرواح من بين الجمال والبهاء فلولا أنه سترها لسجد لها كل كافر » .

وفيما يلى نوضح هذه المفاهيم كما وردت بالمعاجم .

١ – فى (**إصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم للفقيه الدامغانى**)

أن الروح على ستة أوجه : الرحمة .. الملك .. جبريل .. الوحى .. عيسى .. الحياة .

فوجد منها : الروح : بمعنى الرحمة (وأيدهم بروح منه) (المجادلة) أى برحمة منه .

الثانى : الروح ملك من الملائكة فى السماء السابعة . وجهه على صورة الإنسان وجسده على صورة الملائكة ، وهو أعظم من كل خلق غير العرش يقوم على يمين العرش قوله تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفًّا) (النبأ) – يعنى بالروح ذلك الملك .

الثالث : جبريل عليه السلام قوله تعالى : (قل نزله روح القدس) (النحل) – وقوله تعالى (وأيدناه بروح القدس) (البقرة) .. و (تنزل الملائكة والروح فيها) (القدر) يعنى جبريل .

الرابع : يعنى الوحى . قوله تعالى : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) (النحل) وقوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) (حم عسق) .

الخامس : يعنى عيسى بن مريم عليه السلام – قوله تعالى : (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) (النساء) – يعنى قال لعيسى : (كن فكان) (وروح منه) (يعنى بالروح) أنه كان من شيء كقوله تعالى فى سورة السجدة (ونفخ فيه من روحه) .

السادس : الروح يعنى الحياة فى الحيوان وذوات الأرواح – قوله تعالى فى سورة الإسراء : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) .

٢ – أما فى القاموس المحيط للفيروزابادى :

الروح بالضم ما به حياة الأنفس ويؤنث .. والقرآن .. والوحى .. وجبريل .. وعيسى عليهما السلام والنفخ ، وأمر النبوة ، وحكم الله تعالى وأمره .. وملك وجهه كوجه الإنسان وجسده كالملائكة .

٣ – وفى مختار الصحاح للإمام محمد بن أبى بكر عبد القادر الرازى :

(الروح) يذكر ويؤنث والجمع (الأرواح) ويسمى : القرآن .. وعيسى .. وجبرائيل عليهما السلام روحاً . والنسبة إلى الملائكة والجن (روحانى) والجمع (روحانيون) وكذا كل شىء روح (روحانى) ومكان (روحانى) بفتح الراء .

أى مكان طيب وجمع الريح (رياح) و (أرواح) وقد تجمع على (أرواح) . والريح أيضاً الغلبة والقوة ومنه قوله تعالى : « وتذهب ريحكم » . والروح بفتح الراء من الاستراحة وكذا (الراحة) و (الروح) بفتح الراء أيضاً (الريحان) الرحمة والرزق .

٤ – وفى المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى :

والروح للحيوان مذكر وجمعه أرواح ، قال ابن الأنبارى وابن الأعرابى : الروح والنفس واحد ، غير أن العرب تذكر الروح وتؤنث النفس ، وقال الأزهرى أيضا : الروح مذكر ، وقال صاحب المحكم والجوهرى : الروح يذكر ويؤنث وكأن التأنيث على معنى النفس . قال بعضهم : الروح (النفس) فإذا انقطع عن الحيوان فارقته الحياة . وقالت الحكماء : الروح هو الدم ، ولهذا

تنقطع الحياة بنزفه وصلاح البدن وفساده بصلاح هذا الروح وفساده . ومذهب أهل السنة أن الروح هو النفس الناطقة المستعدة للبيان وفهم الخطاب ، ولا تفنى بفناء الجسد ، وأنه جوهر لا عرض ويشهد لهذا قوله تعالى : (بل أحياء عند ربهم يرزقون) – والمراد هنا الروح .

٥ – وفى معجم ألفاظ القرآن الكريم[١] :

روح

(رواحها – تريحون – روح الله – روح – الروح – روحاً – روحنا – روحه – روحى – ريح – الريح – ريحاً – ريحكم – الرياح – ريحان – الريحان) .

١ – راح يروح رواحاً : سار فى أى وقت كان ، فإذا ذكر مع الغد وكانت بمعنى الرجوع فى العشى رواحها : (ولسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر) ١٢ / سبأ .

٢ – أراح الراعى الماشية : ردها فى العشى إلى مراحها حيث تأوى إليه ليلاً .

تريحون : (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) ٦ / النحل .

٣ – الروح بفتح الراء : رحمة الله – والروح : نسيم الريح : والروح : الراحة والفرح والسرور روح الله (ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) ٨٧ / يوسف .

---

(١) (إعداد مجمع اللغة العربية) – المجلد الأول – ص ٥٠٣ وما بعدها.

روح الله : رحمته . روح : (فروح وريحان وجنة نعيم) ٨٩ / الواقعة أى راحة وفرح وسرور أو نسيم الروح أو رحمته من الله .

٤ – الروح : بضم الراء : ما به حياة الأجسام وقد يضاف إلى الله للملك والتشريف .

والروح : يطلق على كل أمر خفى لطيف كالوحى وأمر النبوة وهو ما به حياة النفوس وهداها والروح وروح القدس يطلق على جبريل عليه السلام .

روح (وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) ٨٧ / البقرة . هو جبريل وكذلك ما فى ٢٥٣ / البقرة ، ١١٠ / البقرة ، ١٠٢ / النحل . وفى قوله تعالى : (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) ١٧١ / النساء . سمى عيسى عليه السلام روح من الله لأنه نشأ بحياة ألقاها الله إلى مريم دون أن يمسها بشر . وفى قوله تعالى : (وأيدهم بروح منه) ٢٢ / المجادلة . أى بما به حياة نفوسهم وقوتها .

الروح : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) ٢ / النحل . هو الأمر الخفى اللطيف كالوحى وأمر النبوة وبهذا المعنى ما فى ١٥ / غافر . وفى قوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) ٨٥ / الإسراء يراد بها ما به حياة الأجسام وفى قوله تعالى : (نزل به الروح الأمين) ١٩٣ / الشعراء . هو جبريل وبهذا المعنى ما فى ٤ / المعارج ، ٣٨ / النبأ ، ٤ / القدر .

روحاً : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) ٥٢ / الشورى . الأمر الخفى اللطيف .

روحنا : (فأرسلنا إليها روحنا) ١٧ / مريم ، هو جبريل وإضافته لله للملك والتشريف وفى قوله تعالى : (التى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا)

٩١ / الأنبياء . أى بعثنا فى عيسى الذى هو فى بطنها ما به حياته وفى قوله تعالى : (فنفخنا فيه من روحنا) ١٢ / التحريم أى بعثنا فى رحمها ما به الحياة لعيسى .

روحه : (ونفخ فيه من روحه) ٩ / السجدة هو ما به الحياة .

روحى : (ونفخت فيه من روحى) ٢٩ / الحجر هو ما به الحياة . ومثله ما فى ٧٢ / ص .

٥ - الريح : الهواء المتحرك فى الطبقات المحيطة بالأرض . وأصلها بروح . والجمع أرياح ورياح والريح النصر والدولة . والريح . الرائحة .

ريح : (كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم) ١١٧ / آل عمران ، هو الهواء واللفظ بمعناه فى ٢٢ / يونس ، ٢٤ / الأحقاف ، ١٦ / الحاقة وفى قوله تعالى : (إنى لأجد ريح يوسف) ٩٤ / يوسف هى بمعنى الرائحة .

الريح : (أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف) ١٨ / إبراهيم . هو الهواء . وكذلك ما فى ٦٩ / الإسراء ، ٨١ / الأنبياء ، ٣١ / الحج ، ١٢ / سبأ ، ٣٦ / ص ، ٣٣ / الشورى ، ٣١ / الذاريات .

ريحاً : (ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرًّا لظلوا من بعده يكفرون) ٥١ / الروم هو الهواء وكذلك ما فى ٩ / الأحزاب ، ٦ / فصلت ، ١٩ / القمر .

ريحكم : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) ٤٦ / الأنفال هى النصر والدولة .

الرياح : (وتصريف الرياح) ١٦٤ / البقرة جمع ريح بمعنى الهواء وكذلك ما فى ٥٧ / الأعراف ، ٢٢ /الحجر ، ٤٥ / الكهف ، ٤٨ / الفرقان ،

٦٣ / النمل ، ٤٦ / ٤٨ / الروم ، ٩ / فاطر ، ٥ / الجاثية .

٦ – الريحان : كل مشموم طيب الريح – والريحان : الرزق .

ريحان : (فروح وريحان وجنة نعيم) ٨٩ / الواقعة : هنا بطيب الريح وبالرزق .

الريحان : (والحب ذو العصف والريحان) ١٢ / الرحمن ، كل مشموم طيب الريح أو هو الرزق .

البـــاب الرابـــع

الروح من نفختها إلى مستقرها

ولكن ما مراتب الروح ؟
وكيف تتعلق بالبدن ؟

أجاب حجة الإسلام الغزالى عن هذا السؤال قديماً فقال :

إن الروح البشرية تنقسم إلى خمس مراتب :

فالمرتبة الأولى :

هى مرتبة الروح الحساس وهو الذى يتلق ما تورده الحواس الخمس وكأنه أصل الروح الحيوانى وأوله .. إذ به يصير الحيوان كائناً حيًّا وهذا الروح موجود عند الصبى الرضيع .

والمرتبة الثانية :

هى مرتبة الروح الخيالى وهو الذى يستثبت ما أوردته الحواس ويخزنه لديه ويحفظه عنده ليعرض على الروح العقلى الذى يوجد فوقه عند الحاجة إلى ذلك وهذا الروح الخيالى لا يوجد عند الصبى الرضيع فى أول نشأته ، ولذلك نرى الرضيع يولع بالشىء ليأخذه فإذا غاب عنه نسيه ولم تنازعه نفسه إليه حتى يكبر قليلا فيصير بحيث إذا غاب عنه الشىء بكى وطلبه وذلك لبقاء صورته محفوظة فى خياله ، وهذا قد يوجد عند بعض الحيوانات دون بعض فهو لا يوجد فى الفراش المتهافت على النار ، ولذلك يقذف بنفسه على النار لشغفه بالضياء فيظن

أن السراج كوة مفتوحة إلى ضوء النهار ، فيلقى نفسه عليه فيتأذى به ولكنه يعاود ذلك مرة بعد أخرى ، ولو كان عنده ذلك الروح الحافظ للصور لما عاد ، ولكن الكلب إذا ضربه شخص بالعصا ورأى العصا مرة أخرى حاذرها وهرب منها .

والمرتبة الثالثة :

مرتبة الروح العقلى الذى يدرك به الإنسان المعانى الخارجة عن الحس والخيال وهو الجوهر البشرى الخاص ، ولا يوجد عند البهائم ولا عند الأطفال وتتسع مدركات هذا الروح ومعارفه الكلية إذا ترجح نور العقل على نور العين .

والمرتبة الرابعة :

هى مرتبة الروح الفكرى وهو الذى يحصل العلوم والمعارف العقلية المحض ، فيوجد بينها تأليفات وازدواجات ، ويستنبط منها معارف شريفة ويستنتج منها – معقولات جديدة ويظل يتزايد فى ذلك إلى ما شاء الله .

والمرتبة الخامسة :

وهى مرتبة الروح القدس النبوى وهو الروح الذى يختص به الأنبياء وبعض الأولياء ، وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض بل من المعارف الربانية التى يقصر عنها الروح العقلى والروح الفكرى وإليه الإشارة بقول الله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات

وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) .

وفى كتاب الروح لابن القيم[1] أن الروح خمسة أنواع من التعلق بالبدن متغايرة الأحكام .

١ – تعلق الروح بالبدن فى بطن الأم جنينا .

٢ – تعلق الروح بالبدن بعد خروجه إلى وجه الأرض .

٣ – تعلق الروح بالبدن فى حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه .

٤ – تعلق الروح بالبدن فى البرزخ فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كليا بحيث لا يبقى لها التفات إليه البتة .

٥ – تعلق الروح بالبدن يوم البعث وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً وأما قوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) . فإمساكه سبحانه التى قضى عليها الموت لا ينافى ردها إلى جسدها الميت فى وقت ما ردًّا عارضاً لا يوجب له الحياة المعهودة فى الدنيا .

وإذا كان النائم روحه فى جسده وهو حى وحياته حياة المستيقظ فإن النوم شقيق الموت وهكذا الميت إذا أعيدت روحه إلى جسده كانت حالا متوسطة بين الحى وبين الميت الذى لم ترد روحه إلى بدنه كحال النائم المتوسطة بين الحى والميت ..

وأما ما يتعلق بذلك من إخبار النبى ﷺ عن رؤية الأنبياء ليلة أسرى به

---

(١) تجدر بنا الإشارة هنا إلى أن كتاب الروح لابن قيم الجوزية كان من أهم المراجع التى حصلت الاستفادة بها وبخاصة فى الحديث عن الروح والنفس .

فقد زعم بعض أهل الحديث أن الذى رآه أشباحهم وأرواحهم قال : فإنهم أحياء عند ربهم .. وقد رأى إبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ورأى موسى قائماً فى قبره يصلى وقد نعت الأنبياء لما رآهم نعت الأشباح فرأى موسى أدماً ضرباً طوالا كأنه من رجال شنوءة ورأى عيسى يقطر رأسه كأنما أخرج من ديماس ورأى إبراهيم فشبهه بنفسه .

ونازعهم فى ذلك آخرون فقالوا هذه الرؤية إنما هى لأرواحهم دون أجسادهم ، والأجساد فى الأرض قطعا إنما تبعث يوم بعث الأجساد ولم تبعث قبل ذلك ، إذ لو بعثت قبل ذلك لكانت قد انشقت عنها الأرض قبل يوم القيامة وكانت تذوق الموت عند نفخة الصور وهذه موتة ثالثة ، وهذا باطل قطعاً ولو كانت قد بعثت الأجساد من القبور لم يعدهم الله إليها بل كانت فى الجنة ، وقد صح عن النبى ﷺ أن الله حرم الجنة على الأنبياء حتى يدخلها هو ﷺ وهو أول من يستفتح باب الجنة، وهو أول من تنشق عنه الأرض على الإطلاق، لم تنشق عن أحد قبله..

ومعلوم بالضرورة أن جسده ، ﷺ ، فى الأرض طرى مطرا وقد سأله الصحابة كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ فقال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء .

ولو لم يكن جسده ﷺ ، فى ضريحه لما أجاب بهذا الجواب .

وقد صح عنه ﷺ ، أن الله وكل بقبره ملائكة يبلغونه عن أمته السلام .

وصح عنه ، ﷺ ، أنه خرج بين أبى بكر وعمر وقال هكذا نبعث ..

هذا مع القطع بأن روحه الكريمة فى الرفيق الأعلى فى أعلى عليين ومعها أرواح الأنبياء ، وقد صح عنه أنه رأى موسى قائما يصلى فى قبره ليلة الإسراء ورآه فى السماء السادسة أو السابعة ، فالروح كانت هناك ولها اتصال بالبدن فى

القبر وإشراف عليه وتعلق به ، بحيث يصلى فى قبره ويرد سلام من سلم عليه وهى فى الرفيق الأعلى .

ولا تنافى بين الأمرين فإن شأن الروح غير شأن البدن ، وأنت تجد الروحين المتماثلتين المتناسبتين فى غاية التجاور والقرب وإن كان بينهما بعد المشرقين وتجد الروحين المتنافرتين المتباغضتين بينهما غاية البعد وإن كان جسداهما متجاورين متلاصقين . وقد صح أن النبى ﷺ .

قال : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » .

وليس نزول الروح وصعودها وقربها وبعدها من جنس ما للبدن فإنها تصعد إلى ما فوق السموات ثم تهبط إلى الأرض ما بين قبضها ووضع الميت فى قبره ، وهو زمن قصير لا يصعد البدن وينزل فى مثله ، وكذلك صعودها وعودها إلى البدن فى النوم واليقظة ، وقد مثلها بعضهم بالشمس وشعاعها ، فإنها فى السماء وشعاعها فى الأرض . قال شيخنا : وليس هذا مثلا مطابقاً فإن الشمس ذاتها لا تنزل من السماء ، والشعاع الذى على الأرض ليس هو الشمس ولا صفتها بل هو عرض حصل بسبب الشمس والجرم المقابل لها والروح نفسها تصعد وتنزل .. وأما قول الصحابة للنبى ، ﷺ ، فى قتلى بدر ، كيف تخاطب أقواماً قد جيفوا مع إخباره ، ﷺ ، بسماعهم كلامه فلا ينافى ذلك ردّ أرواحهم إلى أجسادهم فى ذلك الوقت ردًّا يسمعون به خطابه والأجساد قد جيفت ، فالخطاب للأرواح المتعلقة بتلك الأجساد التى قد فسدت .

هل الروح قديمة أو محدثة ؟
وما الدلائل على خلق الروح ؟

وإذا كانت محدثة مخلوقة وهى من أمر الله فكيف يكون أمر الله محدثاً مخلوقاً ، وقد أخبر الله سبحانه أنه نفخ فى آدم من روحه فهذه الإضافة إليه هل تدل على أنها قديمة أو لا ؟ وما حقيقة هذه الإضافة ؟ فقد أخبر عن آدم أنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه ، فأضاف اليد والروح إليه إضافة واحدة ، فهذه مسألة زلّ فيها عالم وضل فيها طوائف من بنى آدم ، وهدى الله أتباع رسوله فيها للحق المبين والصواب المستبين ، فأجمعت الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم ، على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة . وهذا معلوم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث ، وأن معاد الأبدان واقع ، وأن الله وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق له ، وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون الفضيلة على ذلك من غير اختلاف بينهم فى حدوثها وأنها مخلوقة ، حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه فى الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة غير مخلوقة واحتج بأنها من أمر الله وأمره غير مخلوق ، وبأن الله تعالى أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده .. وتوقف آخرون وقالوا : لا نقول مخلوقة ولا غير مخلوقة .

وسئل عن ذلك حافظ أصبهان أبو عبد الله بن منده فقال : أما بعد فإن سائلا سألنى عن الروح التى جعلها الله سبحانه قوام نفس الخلق وأبدانهم وذكر أقواماً تكلموا فى الروح وزعموا أنها غير مخلوقة ، وخص بعضهم منها أرواح

القدس وأنها من ذات الله قال : وأنا أذكر اختلاف أقاويل متقدميهم وأبين ما يخالف أقاويلهم من الكتاب والأثر وأقاويل الصحابة والتابعين وأهل العلم .. وأذكر بعد ذلك وجوه الروح من الكتاب والأثر وأوضح خطأ المتكلم فى الروح بغير علم وأن كلامهم يوافق قول جهم وأصحابه ، فنقول وبالله التوفيق إن الناس اختلفوا فى معرفة الأرواح ومحلها من النفس.

فقال بعضهم الأرواح كلها مخلوقة وهذا مذهب أهل الجماعة والأثر واحتجوا بقول النبى ، ﷺ ، « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف» والجنود المجندة لاتكون إلا مخلوقة .

وقال بعضهم : الأرواح من أمر الله أخفى الله حقيقتها وعلمها عن الخلق واحتجوا بقول الله : (قل الروح من أمر ربى) .

وقال بعضهم : الأرواح نور من نور الله وحياة من حياته واحتجوا بقول النبى ، ﷺ : إن الله خلق خلقه فى ظلمة وألقى عليهم من نوره . ثم ذكر الخلاف فى الأرواح هل تموت أو لا ، وهل تعذب مع الأجساد فى البرزخ وفى مستقرها بعد الموت ؟ وهل هى النفس أو غيرها ؟ ؟

وقال محمد بن نصر المروزى : فى كتابه : « تأول صنف من الزنادقة وصنف من الروافض فى روح آدم ما تأولته النصارى فى روح عيسى وما تأوله قوم من أن الروح انفصل من ذات الله فصار فى المؤمن ، فبعد صنف من النصارى عيسى ومريم جميعاً لأن عيسى عندهم روح من الله صار فى مريم من غير مخلوق عندهم » .

وقال صنف من الزنادقة وصنف من الروافض إن روح آدم مثل ذلك أنه غير مخلوق وتأولوا قوله تعالى : (ونفخت فيه من روحى) وقوله تعالى : (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) فزعموا أن روح آدم ليس بمخلوق كما تأول من قال

إن النور من الرب غير مخلوق قالوا : ثم صاروا بعد آدم فى الوصى بعده ، ثم هو فى كل نبى ووصى إلى أن صار فى علىّ ثم فى الحسن والحسين ، ثم فى كل وصى وإمام فيه يعلم الإمام كل شيء ولا يحتاج أن يتعلم من أحد .

ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التى فى آدم ونبيه وعيسى ومن سواه من بنى آدم كلها مخلوقة لله خلقها وأنشأها وكونها واخترعها ، ثم أضافها إلى نفسه كما أضاف إليه سائر خلقه قال تعالى : (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : روح الآدمى مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة ، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة . غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد بن نصر المروزى الإمام المشهور الذى هو من أعلم أهل زمانه بالإجماع والاختلاف ، وكذلك أبو محمد بن قتيبة قال فى كتاب (اللفظ) لما تكلم على الروح قال : النسم : الأرواح . قال : وأجمع الناس على أن الله تعالى هو فالق الحبة وبارئ النسمة أى خالق الروح . وقال أبو إسحاق ابن شاقلا فيما أجاب به فى هذه المسئلة : سألت رحمك الله عن الروح مخلوقة هى أو غير مخلوقة ؟ قال وهذا مما لا يشك فيه من وفق للصواب أن الروح من الأشياء المخلوقة ، وقد تكلم فى هذه المسئلة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة وصنف الحافظ أبو عبد الله بن منده فى ذلك كتاباً كبيراً ، وقبله الإمام محمد بن نصر المروزى وغيره ، والشيخ أبو سعيد الخراز وأبو يعقوب النهر جورى والقاضى أبو يعلى ، وقد نص على ذلك الأئمة الكبار واشتد نكيرهم على من يقول ذلك فى روح عيسى بن مريم فكيف بروح غيره كما ذكره الإمام أحمد فيما كتبه فى مجلسه فى الرد على الزنادقة والجهمية ، ثم إن الجهمى ادعى أمراً فقال : أنا أجد آية فى كتاب الله مما يدل على أن القرآن

مخلوق . قوله تعالى : (إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) وعيسى مخلوق ..

قلنا : إن الله تعالى منعك الفهم للقرآن .. إن عيسى تجرى عليه ألفاظ لا تجرى على القرآن . لأنا نسميه مولوداً وطفلا وصبيًّا وغلاماً يأكل ويشرب وهو مخاطب بالأمر والنهى يجرى عليه الخطاب والوعد والوعيد ، ثم هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم فلا يحل لنا أن نقول فى القرآن ما نقول فى عيسى ، فهل سمعتم الله يقول فى القرآن ما قال فى عيسى ؟ ونكن المعنى فى قوله تعالى : (إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) فالكلمة التى ألقاها إلى مريم حين قال له : كن . فكان عيسى بكن . وليس عيسى هو كن .. ولكن كان بكن . فكن من الله .. قول .. وليس كن .. مخلوقاً .

وكذبت النصارى والجهمية على الله فى أمر عيسى ، وذلك أن الجهمية قالوا : روح الله وكلمته إلا أن كلمته مخلوقة ، وقالت النصارى عيسى روح الله وكلمته من ذاته كما يقال : هذه الخرقة من هذا الثوب .. قلنا نحن .. إن عيسى بالكلمة كان . وليس عيسى هو الكلمة ، وإنما قول الله تعالى كن وقوله : (وروح منه) يقول من أمره كأن الروح فيه كقوله : (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه) يقول من أمره ، وتفسير روح الله إنما معناها بكلمة الله خلقها كما يقال عبد الله وسماء الله وأرض الله ، فقد صرح بأن روح المسيح مخلوقة فكيف بسائر الأرواح ، وقد أضاف الله إليه الروح الذى أرسله إلى مريم وهو عبده ورسوله ولم يدل على ذلك أنه قديم غير مخلوق فقال تعالى : (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويًّا . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًّا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيًّا) . فهذا الروح هو روح الله وهو عبده ورسوله .

فالروح حادثة وليست بقديمة بإجماع المسلمين .. فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً . ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك . ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك . ثم يرسل الله تعالى الملك فينفخ فيه الروح . ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد . فوالذى لا إله غيره . إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ». (رواه مسلم) .

ومنه يتضح أن الروح محدثة ويظهر أنها تحدث بعد تسوية الجسم وتتصل به وتحل فيه وهو جنين . والله ورسوله أعلم .

أما ما يراه الإمام شمس الدين أبى عبد الله بن القيم من تأكيد ذلك فى كتابه فيسوق على صحته الدلائل فيقول : الذى يدل على خلقها وجوه :

الوجه الأول : قول الله تعالى : (الله خالق كل شىء) . فهو لفظ عام لا تخصيص فيه بوجه ما ولا يدخل فى ذلك صفاته فإنها داخلة فى مسمى باسمه ، فالله سبحانه هو الإله الموصوف بصفات الكمال فعلمه وقدرته وحياته وإرادته وسمعه وبصره وسائر صفاته داخل فى مسمى اسمه ليس داخلا فى الأشياء المخلوقة ، كما لم تدخل ذاته فيها فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق . وما سواه مخلوق .

ومعلوم قطعاً أن الروح ليست هى الله ولا صفة من صفاته وإنما هى مصنوع من مصنوعاته ، فوقوع الخلق عليها كوقوعه على الملائكة والجن والإنس .

الوجه الثانى : قوله تعالى لزكريا : (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) وهذا الخطاب لروحه وبدنه وليس لبدنه فقط ، فإن البدن وحده لا يفهم

ولا يخاطب ولا يعقل وإنما الذى يفهم ويعقل ويخاطب هو الروح .

الوجه الثالث : قوله تعالى : (والله خلقكم وما تعملون) .

الوجه الرابع : قوله تعالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)، وهذا الإخبار إمَّا أنه يتناول أرواحنا وأجسادنا كما يقول الجمهور، وإما أن يكون واقعًا على الأرواح قبل خلق الأجساد كما يقوله من يزعم ذلك. وعلى التقدير فهو صريح فى خلق الأرواح.

الوجه الخامس : النصوص الدالة على أنه سبحانه وتعالى ربنا ورب آبائنا الأولين ورب كل شىء . وهذه الربوبية شاملة لأرواحنا وأبداننا فالأرواح مربوبة له مملوكة كما أن الأجسام كذلك وكل مربوب مملوك فهو مخلوق .

الوجه السادس : أول سورة فى القرآن وهى الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة أوجه : (أحدها : قول الله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) والأرواح من جملة العالم فهو ربها .

والثانى : قوله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين) فالأرواح عابدة له مستعينة ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعاناً بها .

الثالث : أنها فقيرة إلى هداية فاطرها وربها تسأله أن يهديها صراطه المستقيم .

الرابع : أنها منعم عليها مرحومة ومغضوب عليها وضالة شقية ، وهذا شأن المربوب والمملوك لا شأن القديم غير المخلوق .

الوجه السابع : النصوص الدالة على أن الإنسان عبد بجملته وليست عبوديته واقعة على بدنه دون روحه بل عبودية الروح أصل وعبودية البدن تبع ، كما أنه تبع لها فى الأحكام وهى التى تحركه وتستعمله وهو تبع لها فى العبودية .

الوجه الثامن : قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) . فلو كانت روحه قديمة لكان الإنسان لم يزل شيئاً مذكوراً ،

فإنه إنما هو إنسان بروحه لا ببدنه فقط .

الوجه التاسع : النصوص الدالة على أن الله سبحانه كان ولم يكن شيء غيره كما ثبت فى صحيح البخارى من حديث عمران بن حصين ، أن أهل اليمن قالوا : يا رسول الله جئناك لنتفقه فى الدين ونسألك عن أول هذا الأمر . فقال ﷺ : كان الله ولم يكن شيء غيره . وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شيء ، فلم يكن مع الله أرواح ولا نفوس قديمة يساوى وجودها وجوده تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ، بل هو الأول وحده لا يشاركه غيره فى أوليته بوجه .

الوجه العاشر : النصوص الدالة على خلق الملائكة وهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها ، وهم مخلوقون قبل خلق الإنسان وروحه ، فإذا كان الملك الذى يحدث الروح فى جسد ابن آدم بنفخته مخلوقا فكيف تكون الروح الحادثة بالنفخة .. قديمة ؟ وهؤلاء الغالطون يظنون أن الملك يرسل إلى الجنين بروح قديمة أزلية ينفخها فيه كما يرسل الرسول بثوب إلى الإنسان يلبسه إياه ، وهذا ضلال وخطأ ، وإنما يرسل الله سبحانه إليه الملك فينفخ فيه نفخة تحدث له الروح بواسطة تلك النفخة فتكون النفخة هى سبب حصول الروح وحدوثها له، ولمَّا كان الوطء والإنزال سبب تكوين جسمه، والغذاء سبب نموه. فمادة الروح من نفخة الملك ومادة الجسم من صب الماء فى الرحم ، فهذه مادة سماوية وهذه مادة أرضية فمن الناس من تغلب عليه المادة السماوية فتصير روحه علوية شريفة ، ومنهم من تغلب عليه المادة الأرضية فتصير روحه سفلية مهينة تناسب الأرواح السفلية ، فالملك أب لروحه والتراب أب لبدنه وجسمه .

الوجه الحادى عشر : حديث أبى هريرة رضى الله عنه الذى فى صحيح البخارى وغيره عن النبى ، ﷺ : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف

وما تناكر منها اختلف » والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة ، وهذا الحديث رواه عن النبي ، ﷺ ، أبو هريرة وعائشة أم المؤمنين ، وسلمان الفارسى وعبد الله ابن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعلى بن أبي طالب وعمرو ابن عبسة رضى الله عنهم أجمعين .

هل الروح ذات قائمة بنفسها ؟

هذه مسألة لا نكاد نجد من تكلم فيها ولا يظفر فيها من كتب الناس بطائل ولا غير طائل ، ولا سيما على أصول من يقول إنها مجردة عن المادة وعلائقها وليست بداخل العالم ولا خارجه ولا لها شكل ولا قدر ولا شخص ، وكذلك من يقول هى عرض من أعراض البدن فتميزها عن غيرها مشروط بقيامها ببدنها فلا تميز لها بعد الموت ، بل لا وجود لها على أصولهم ، بل تعدم وتبطل باضمحلال البدن كما تبطل سائر صفات الحى ، ولا يمكن جواب هذه المسئلة إلا على أصول أهل السنة التى تظاهرت عليها أدلة القرآن والسنة والآثار والاعتبار والعقل ، والقول إنها ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجىء وتتحرك وتسكن وعلى هذا أكثر من مائة دليل فى كتاب معرفة الروح والنفس[1] .

وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بالدخول والخروج والقبض والإرسال والتوفى والرجوع وصعودها إلى السماء وفتح أبوابها لها وغلقها عنها فقال تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم) وقال تعالى : (يأيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) . وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد

(١) ذكره ابن قيم الجوزية فى كتابه « الروح ».

وقال تعالى : (ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها) فأخبر أنه سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه بل سوى بدنه قالباً لنفسه فتسوية البدن تابعة لتسوية النفس . والبدن موضوع لها – كالقالب لما هو موضوع له .

ومن هنا نقول إن الروح تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها فإنها تتأثر وتنتقل عن البدن كما يتأثر البدن وينتقل عنها فيكتسب البدن الطيب من الروح الطيب والخبيث من الخبيث ، كذلك يكتسب الروح الطيب والخبث من البدن فأشد الأشياء ارتباطاً وتناسباً وتفاعلا وتأثراً من أحدهما بالآخر الروح بالبدن ، ولذلك يقال لها عند المفارقة اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب النفس . واخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث .

وقال الله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) فوصفها بالتوفى والإمساك والإرسال كما وصفها بالدخول والخروج والرجوع والتسوية ، وقد أخبر النبى ، ﷺ ، أن بصر الميت يتبع نفسه إذا قبضت ، وأخبر أن الملك يقبضها فتأخذها الملائكة من يده فيوجد لها كأطيب نفحة مسك على وجه الأرض أو كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، والأعراض لا ريح لها ولا تمسك ولا تؤخذ من يد إلى يد .

وأخبر ، ﷺ ، أنها تصعد إلى السماء ويصلى عليها كل ملك لله بين السماء والأرض ، وأنها تفتح أبواب السماء فتصعد من سماء إلى سماء حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل فتوقف بين يديه ويأمر بكتابة اسمه فى ديوان أهل عليين أو ديوان أهل سجين ثم ترد إلى الأرض ، وأن روح الكافر تطرح طرحاً وأنها تدخل مع البدن فى قبرها للسؤال .

وقد أخبر النبى ، ﷺ ، بأن نسمة المؤمن وهى روحه طائر يعلق فى شجرة

الجنة حتى يردها الله إلى جسدها .

وأخبر ﷺ ، أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وأخبر أن الروح تنعم وتعذب فى البرزخ إلى يوم القيامة .

كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن أرواح قوم فرعون أنها تعرض على النار غدوًّا وعشيًّا قبل يوم القيامة ، وقد أخبرنا سبحانه وتعالى أيضا عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون. وهذه حياة أرواحهم، ورزقها جارٍ وإلا فالأبدان قد تمزقت ، وقد فسر رسول الله ، ﷺ ، هذه الحياة بأن أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا . فعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من السؤال قالوا : نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى .

وصح عنه ﷺ ، أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تعلق من ثمر الجنة وتعلق بضم اللام أى تأكل العلقة .

وقال ابن عباس . قال ، ﷺ ، لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ ، (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) رواه الإمام أحمد وهذا صريح فى أكلها وشربها وحركتها وانتقالها وكلامها ، وإذا كان هذا شأن الأرواح فتميزها بعد المفارقة يكون أظهر من تميز

الأبدان ، والاشتباه بينها أبعد من اشتباه الأبدان ، فإن الأبدان تشتبه كثيراً أما الأرواح فقلّ ما تشتبه .

يوضح هذا أنا لم نشاهد أبدان الأنبياء والصحابة والأئمة وهم متميزون فى علمنا أظهر تميز وليس ذلك التميز راجعاً إلى مجرد أبدانهم وإن ذكر لنا فى ذلك ما يختص به أحدهم من الآخر بل التميز الذى عندنا بما علمناه وعرفناه من صفات أرواحهم وما قام بها ، وتميز الروح عن الروح بصفاتها أعظم من تميز البدن عن البدن وصفاته . فبدن المؤمن والكافر قد يشتبهان كثيرا ولكن بين روحيهما أعظم التباين والتميز ، فإذا تجردت الأرواح كان التميز فى غاية الوضوح .

ويقول ابن القيم إن من تأمل أحوال الأنفس والأبدان يرى أن كل شكل حسن وصورة جميلة وتركيب لطيف غالباً ما يكون له ما يناسب ذلك الحسن والجمال واللطف من الروح .. ونادراً ما يقع غير ذلك .

وإذا كانت الأرواح العلوية (الملائكة) متميزاً بعضهم عن بعض من غير أجسام تحملهم .. وكذلك الجن .. فإن التميز بين الأرواح البشرية أولى .

هل الروح جسد أو لا ؟

وقد توسع الإمام الرازى فى بحث طبيعة الروح : أهى جسد أم لا ؟ فأقام حججاً عقلية وسمعية على أن الروح ليست جسداً .. ومما قاله فى هذا الشأن وهو لا يفرق بين الروح والنفس .

الحجة الأولى : قوله تعالى : (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) ومعلوم أن أحداً من العقلاء لا ينسى . هذا الهيكل المشاهد ، فدل

ذلك على أن النفس التى ينساها الإنسان عند فرط الجهل هى شىء آخر بخلاف البدن .

الحجة الثانية : قوله تعالى : (أخرجوا أنفسكم) . وهذا صريح فى أن النفس غير البدن وقد أوضحنا ذلك فى هذا الكتاب .

الحجة الثالثة : أنه تعالى ذكر أطوار ومراتب الخلقة الجسمانية فقال : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) إلى قوله (فكسونا العظام لحما) وقد أوضحنا أن جميع هذه المراتب اختلافات واقعة فى الأحوال الجسمانية . ثم إنه تعالى لما أراد أن يذكر الروح قال : (ثم أنشأناه خلقاً آخر) ، وهذا صريح بأن ما يتعلق بالروح جنس مغاير لما سبق ذكره من التغيرات الواقعة فى الأحوال الجسمانية ، وذلك يدل على أن الروح شىء مغاير للبدن .

الحجة الرابعة : قوله (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى) ميز تعالى بين التسوية وبين نفخ الروح ، فالتسوية عبارة عن تخليق الأبعاض والأعضاء وتعديل المزاج والأشباح ، فلما ميز نفخ الروح عن تسوية الأعضاء ثم أضاف إلى نفسه بقوله : (من روحى) دل ذلك على أن جوهر الروح مغاير لجوهر الجسد .

الحجة الخامسة : قوله تعالى : (ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها) وهذه الآية صريحة فى وجود شىء موصوف بالإدراك والتحريك معاً ، لأن الإلهام عبارة عن الإدراك . وأما الفجور والتقوى فهو فعل وهذه الآية صريحة فى أن الإنسان شىء واحد ، وهو موصوف بالإدراك والتحريك وموصوف أيضاً بفعل الفجور تارة وفعل التقوى تارة أخرى . ومعلوم أن جملة البدن غير موصوف بهذين الوصفين فلابد من إثبات جوهر آخر يكون موصوفاً بكل هذه الأمور .

الحجة السادسة : قوله (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيراً) فهذا تصريح بأن الإنسان شيء واحد وهو المبتلى بالتكاليف الإلٰهية والأمور الربانية ، والموصوف بالسمع والبصر ومجموع البدن ليس كذلك وليس عضوا من أعضائه كذلك ، فالنفس شيء مغاير لجملة البدن ومغاير لأجزاء البدن وهو موصوف بكل هذه الصفات . وقد سبق أن أوضحنا أن الروح تتعلق بالبدن فهى جوهر غيره . وعجيب بعد كل هذا أن نسمع من يقول : توفى رسول الله ، ﷺ ، وما كان يعرف الروح .

ويقرر الغزالى والرازى وغيرهما أن أصحاب الرياضات النفسية والمجاهدات الروحية كلما أمعنوا فى قهر القوى البدنية وتجويع الجسد قويت قواهم الروحانية ، وأشرقت نفوسهم بالمعارف الإلهية .. وأنه كلما أمعن الإنسان فى الأكل والشرب وقضاء شهواته الجسدية صار كالبهيمة محروماً من آثار العقل والفهم والمعرفة والإشراق الروحى .

جسمية الروح وتحيزها

قال أبو الحسن الأشعرى فى مقالاته اختلف الناس فى الروح والنفس والحياة -- وهل الروح هى الحياة أو غيرها -- وهل الروح جسم أو لا ؟ فقال النظّام : الروح (هى) جسم . وهى النفس وزعم أن الروح حى بنفسه وأنكر أن تكون الحياة والقوة معنى غير الحى القوى .. وقال آخرون الروح عرض ، وقال فريق ثالث (جعفر بن حرب) لا ندرى أهى جوهر أم عرض فهى من أمر ربنا . . وتعددت الآراء والمزاعم .. ونعرض الآن للرأيين الشائعين (من قالوا بجسمية الروح -- ومن قالوا بغير ذلك) .

أولا : القائلون بأن الإنسان عبارة عن جسم مخصوص موجود فى داخل البدن :

وقد اختلفوا فى تعيين ذلك الجسم على وجوه :

١ - أنه عبارة عن الأخلاط الأربعة التى يتولد منها البدن .

٢ - أنه الدم .

٣ - أنه الروح اللطيف الذى يتولد فى الجانب الأيسر من القلب وينفذ فى الشريانات إلى سائر الأعضاء ..

٤ - أنه الروح الذى يصعد فى القلب إلى الدماغ .

٥ - أنه جزء لا يتجزأ فى القلب .

٦ - أنه جسم بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نورانى علوى .

٧ - قوله تعالى : (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون) إلى قوله تعالى : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) .

وفيها أربعة أدلة « إمكان تناولها (أخرجوا أنفسكم) - وصفها بالإخراج والخروج - الإخبار عن عذابها فى ذلك اليوم - الإخبار عن مجيئها إلى ربها » .

٨ - (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم) إلى قوله تعالى : (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) . وفيها ثلاثة أدلة : (توفى الأنفس بالليل - بعثها إلى أجسادها بالنهار - توفى الملائكة له عند الموت) .

٩ - (يأيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) وفيها ثلاثة أدلة : « وصفها بالرجوع - وصفها بالدخول - وصفها بالرضا » .

١٠ – قوله ﷺ : « الروح إذا قبض تبعه البصر » فيه دليلان « وصفه بالقبض – أن البصر يراه » .

١١ – قوله ﷺ ، « إن الله قبض أرواحكم وردها إليكم حين شاء » فيه دليلان « القبض – الرد » .

١٢ – قوله ﷺ : « نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة » فيه دليلان « طائر – يعلق » .

١٣ – قوله ﷺ : « أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش فاطلع إليهم ربك اطلاعة فقال : أى شىء تريدون ؟ » الحديث وفيه ستة أدلة «كونها مودعة فى جوف طير – تسرح فى الجنة – تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها – تأوى إلى قناديل – الله سبحانه خاطبها واستنطقها فأجابته وخاطبته – طلبت الرجوع إلى الدنيا .. فهى مما يقبل الرجوع » . « فإن قيل » هذا كله صفة الطير لا صفة الروح (قيل) بل الروح المودعة فى الطير قصد وعلى الرواية التى رجحها أبو عمر وهى قوله : (أرواح الشهداء كطير .. ينفى السؤال بالكلية) .

١٤ – قوله ﷺ ، فى حديث طلحة بن أبى عبيد الله أردت مالى بالغابة فأدركنى الليل، فأويت إلى قبر عبدالله بن عمر و بن حرام، فسمعت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها فقال ، ﷺ : ذاك عبد الله .. ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها فى قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقها وسط الجنة ، فإذا كان الليل ردت إليهم أرواحهم فلا تزال كذلك ، حتى إذا طلع الفجر ردت أرواحهم إلى مكانها التى كانت[2] .. وفيه أربعة أدلة سوى ما تقدم « جعلها فى

---

(٢) الروح لابن القيم من ص ٢٦٦ – ٢٩٣ – ١٩٧٣م – مكتبة صبيح .

القناديل – انتقالها من حيز إلى حيز – تكلمها وقراءتها فى القبر – وصفها بأنها فى مكان » .

١٥ – حديث للبراء بن عازب فيه عشرون دليلا .

وقد استطرد ابن القيم فى ذكر مائة وستة عشر دليلا – فى كتاب الروح – لمن يقولون بجسميتها وتحيزها نكتفى منها بما ذكرناه لضيق المقام ، ومن شاء الاستزادة فليرجع إلى الكتاب الذى ذكرنا .

وفيما يلى ذكر بعض أدلة المنازعين لهم والقائلين :

« الروح ليس جسما وليس متحيزا » .

١ – اتفاق العقلاء على قولهم : « الروح والجسم – النفس والجسم فيجعلونها شيئاً غير الجسم فلو كانت جسماً لم يكن لهذا القول معنى » .

٢ – من المعلوم أن فى الموجودات ما هو غير قابل للقسمة كالنقطة والجوهر الفرد ، بل ذات موجد الوجود (الله) فوجب أن يكون العلم بذلك غير قابل للقسمة ، فوجب أن يكون الموصوف بذلك العلم وهو محله غير قابل للقسمة وهو النفس ، فلو كانت جسمًا لكانت قابلة للقسمة : ويقرر هذا الدليل على وجه آخر وهو أن محل العلوم الكلية لو كان جسماً أو جسمانيًّا لانقسمت تلك العلوم ، لأن الحال فى المنقسم وانقسام تلك العلوم مستحيل .

٣ – أن الصور العقلية الكلية مجردة بلا شك وتجردها إما أن يكون بسبب المأخوذ عنه أو بسبب الأخذ ؛ والأول باطل لأن هذه الصور إنما أخذت عن الأشخاص الموصوفة بالمقادير المختلفة والأوضاع المعينة ، فثبت أن تجردها إنما هو بسبب الأخذ لها والقوة العقلية المسماة بالنفس .

٤ – أن القوة العاقلة تقوى على أفعال غير متناهية فإنها تقوى على إدراكات لا تتناهى والقوة الجسمانية لا تقوى على أفعال غير متناهية ، لأن القوة الجسمانية

تنقسم بانقسام محلها ، فالذى يقوم عليه بعضها يجب أن يكون أقل من الذى يقوى عليه الكل . فالذى يقوى عليه الكل يزيد على الذى يقوى عليه البعض أضعافاً متناهية « والزائد على المتناهى بمتناه .. متناه » .

٥ – لو كانت القوة العقلية جسدانية لضعفت فى زمان الشيخوخة دائماً .. وليس كذلك الأمر دائماً .

٦ – لو كانت النفس جسماً لكانت منقسمة ولصح عليها أن يعلم بعضها كما يعلم كلها ، فيكون الإنسان عالماً ببعض نفسه جاهلا بالبعض الآخر وذلك محال .

٧ – لو كانت النفس جسماً لوجب أن يثقل الجسد بدخولها فيه ، لأن شأن الجسم الفارغ إذا ملأه غيره أن يثقل به كالزق الفارغ والأمر بالعكس ، فأخف ما يكون البدن إذا كانت فيه النفس وأثقل ما يكون إذا فارقته .

٨ – لو كانت النفس جسماً لكانت على صفات سائر الأجسام التى لا يخلو شىء منها ، من الخفة والثقل والحرارة والبرودة والنعومة والخشونة والسواد والبياض وغير ذلك من صفات الأجسام وكيفياتها ، ومعلوم أن الكيفيات النفسانية إنما هى الفضائل والرذائل لا تلك الكيفيات الجسمانية فالنفس ليست جسماً .

٩ – لو كانت جسماً لوجب أن تقع تحت جميع الحواس أو تحت حاسة منها أو حاستين أو أكثر ، فإنا نرى الأجسام كذلك منها ما يدرك بجميع الحواس ومنها ما يدرك بأكثرها ، ومنها ما يدرك بحاستين منها أو بواحدة والنفس بريئة من ذلك كله ، وهذه الحجة التى احتج بها جهم على طائفة من الملاحدة حين أنكروا الخالق سبحانه وقالوا : لو كان موجوداً لوجب أن يدرك بحاسة من الحواس فعارضهم بالنفس وأنى تتم المعارضة إذا كانت جسما . وإلا لو كانت

جسماً لجاز إدراكها ببعض الحواس .

١٠ - لو كانت جسماً لكانت ذات طول وعرض وعمق وسطح وشكل ، وهذه المقادير والأبعاد لا تقوم إلا بمادة ومحل ، فإن كانت مادتها ومحلها نفساً لزم اجتماع نفسين .. وإن كانت غير نفس كانت النفس مركبة من بدن وصورة وهى فى جسد مركب من بدن وصورة ، فيكون الإنسان إنسانين ، لذا تحتم أنها ليست جسماً ..) .

ومضى هذا الفريق يدلل على رأيه حتى ساق اثنين وعشرين دليلا ولكن هناك من رد عليهم حججهم فأبطلها ، وأيد الفريق الأول فى حججه مركزاً على أنها جسم لطيف فى جسم كثيف . غير أن الأسئلة فى موضوع الروح لا تنتهى وإنما كلما غاص سؤال طفا على السطح سؤال ولكن السؤال الذى يلح علينا الآن هو :

هل سبقت الأجسادُ الأرواح فى خلقها ؟
أو سبقت الأرواحُ خلق الأجساد ؟

وللناس فى هذه المسألة قولان معروفان ، ففريق ذهب إلى تقدم خلق الأرواح على الأجساد وفريق قال بعكس ذلك .. فأما الفريق الأول ومنهم محمد بن نصر المروزى وأبو محمد بن حزم فيسوق حججاً منها :

١ - (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) .. قالوا : ثم للترتيب والمهلة فقد تضمنت الآية أن خلقها مقدم على أمر الله للملائكة بالسجود لآدم ، ومن المعلوم قطعاً أن أبداننا حادثة بعد ذلك فعلم أنها الأرواح .

٢ - (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) قالوا : وهذا الاستنطاق والاستشهاد إنما كان لأرواحنا إذ لم تكن الأبدان حينئذ موجودة .

٣ - احتجوا أيضاً بما رواه أبو عبد الله بن منده أخبرنا محمد بن صابر البخارى ، حدثنا محمد بن المنذر بن سعد الهروى ، حدثنا عن جعفر بن محمد ابن هارون المصيصى ، حدثنا عتبة بن السكن ، حدثنا أرطأة بن المنذر ، حدثنا عطاء بن عجلان عن يونس بن حلبس عن عمرو بن عبسة قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « إن الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفى عام فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » .

أما الذين قالوا بخلق الأرواح بعد الأبدان فقد ذكروا ما يلى :

١ - (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) هذا خطاب للإنسان الذى هو روح وبدن ، يدل على أن جملته مخلوقة بعد خلق الأبوين وأصرح منه قوله تعالى : (يأيـها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) وهذا صريح فى أن خلق جملة النوع الإنسانى بعد خلق أصله .

٢ - (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ..) الآية . قال ابن الأنبارى مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم فى هذه الآية ، أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم فى صور الذر ، فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون ، فاعترفوا بذلك وقبلوا ذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم ، كما جعل للجبل عقلا حين خوطب وكما فعل ذلك بالبعير لما سجد والنخلة حتى سمعت وانقادت حين دعيت .

٣ - القرآن والحديث والآثار تدل على أنه سبحانه نفخ فى آدم من روحه .

بعد خلق جسده ، فمن تلك النفخة حدثت فيه الروح .

فهذا بعض كلام السلف والخلف ممن قالوا بسبق خلق الروح على خلق البدن ، وكذا من قالوا بتقدم البدن على خلق الروح ٠٠ ونحن نخبر بما أخبر به الرسول ، ﷺ ، فى الحديث الصحيح : أن خلق ابن آدم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح .. فالملك وحده يرسل إليه فينفخ فيه فإذا نفخ فيه كان ذلك سبب حدوث الروح فيه ، ولم يقل يرسل الملك إليه بالروح فيدخلها فى بدنه ، وإنما أرسل إليه الملك فأحدث فيه الروح بنفخته فيه .. وفرق بين أن يرسل إليه ملك ينفخ فيه الروح وبين أن يرسل إليه روح مخلوقة قائمة بنفسها مع الملك .. والله الموفق[٣] .

هل الروح سبب الحياة ؟

نطالع فى كتاب الروض الأنف (شرح السيرة النبوية) لابن هشام فصلا فى أن الروح سبب الحياة فى الجزء الأول يقول : فإذا ثبت أن الروح سبب الحياة عادة أجراها الله تعالى ، فهو كالماء الجارى فى عروق الشجرة صعدا حتى تحيا به عادة ، فنسميه ماء باعتبار أوليته ونسمى أيضا هذا روحا باعتبار أوليته واعتبار النفخة التى هى ريح ، فما دام الجنين فى بطن أمه حيًّا فهو ذو روح ، فإذا نشأ واكتسب ذلك الروح أخلاقاً وأوصافاً لم تكن فيه وأقبل على مصالح الجسم كلفاً به وعشق مصالح الجسد ولذّاته ودفع المضار عنه سمى نفساً ، كما يكتسب الماء الصاعد فى الشجرة من الشجرة أوصافاً لم تكن فيه ، فالماء فى العنبة مثلا هو ماء باعتبار الأصل والبدأة . ففيه من الماء

---

(٣) من أراد الاستزادة والاستفاضة فعليه بكتاب الروح لابن القيم ففيه تفصيل .

الميوعة والرطوبة ، وفيه من العنبة الحلاوة وأوصاف أخر ، فتسميه مصطارا إن شئت أو خمراً إن شئت أو غير ذلك مما أوجبه الاكتساب لهذه الأوصاف ، فمن قال إن النفس هى الروح على الإطلاق من غير تقييد فلم يحسن العبارة ، وإنما فيها من الروح الأوصاف التى تقتضيها نفخة الملك والملك موصوف بكل خلق كريم، ولذلك قال : فى الحديث فمن الروح عفافه وحلمه وذكاؤه وفهمه، ومن النفس شهوته وغضبه وطيشه وذلك بنجاسة الدم لسر لعله أن يفهم مما نحن بسبيله ، فمن يعرف جوهر الكلام وينزل الألفاظ منازلها لا يسمى روحاً إلا ما وقع به الفرق بين الجماد والحى ، والذى كان سبباً للحياة كما فى الكتاب العزيز عند ذكر إحياء النطفة ونفخ الروح فيها ولا يقال نفخ النفس فيها إلا عند الاتساع فى الكلام ، وتسمية الشىء بما يؤول إليه ، ومن هنا سمى جبريل عليه السلام روحاً والوحى روحاً لأن به تكون حياة القلوب قال الله سبحانه (أو من كان ميتاً فأحييناه) وقال عن الكفار : (أموات غير أحياء) وقال النفس ما تقدم وقال : (إن النفس لأمارة بالسوء) ولم يقل : إن الروح لأمارة ، لأن الروح الذى هو سبب الحياة لا يأمر بسوء ، ولا يسمى أيضاً نفساً كما قدمنا حتى يكتسب من الجسد الأوصاف المذكورة وما كان نحوها ، والماء النازل من السماء جنس واحد ، فإذا مازج أجساد الشجر كالتفاح والفرسك والحنظل والعشر وغير ذلك اختلفت أنواعه ، كذلك الروح الباطنة التى هى من عند الله هى جنس واحد ، وقد أضافها إلى نفسه تشريفاً لها حين قال : (ونفخ فيه من روحه) ثم يخالط الأجساد التى خلقت من طين ، وقد كان فى ذلك الطين طيب وخبيث فينزع كل فرع إلى أصله ، وينزع ذلك الأصل إلى ما سبق فى أم الكتاب وإلى ما دبره وأحكمه الحكيم الخبير ، فعند ذلك تتنافر النفوس أو تتقارب وتتحاب أو تتباغض على حسب التشاكل فى أصل الخلقة ، وهى معنى

قول النبي ﷺ : فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، وقد كتب بعض الحكماء إلى صديق له ، إن نفسي غير مشكورة على الانقياد إليك بغير زمام ، فإنها صادفت عندك بعض جواهرها والشيء يتبع بعضه بعضا .

هل تموت الروح أو لا ؟

يقول ابن القيم : اختلفوا فى الأرواح هل تموت بموت الأبدان والأنفس أو لا تموت ؟

فقالت طائفة : الأرواح لا تموت ولا تبلى .

وقالت جماعة : الأرواح على صور الخلق لها أيد وأرجل وأعين وسمع وبصر ولسان .

وقالت طائفة : للمؤمن ثلاثة أرواح وللمنافق والكافر روح واحدة .

وقال بعضهم : للأنبياء والصديقين خمس أرواح .

وقال بعضهم : الأرواح روحانية خلقت من الملكوت فإذا صفت رجعت إلى الملكوت .

قلت : أما الروح التى تتوفى فهى روح واحدة وهى النفس .. وأما ما يؤيد الله به أنبياءه من الروح فهى روح أخرى غير هذه الروح ، كما قال تعالى : (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) وكذلك الروح الذى أيد به روحه المسيح بن مريم كما قال تعالى : (إذ قالَ الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس) . وكذلك الروح التى يلقيها على من يشاء من عباده وهى غير الروح فى البدن . وأما القوى التى فى البدن فإنها تسمى أيضا أرواحاً فيقال : الروح الباصر والروح السامع والروح

الشام فهذه الأرواح قوى مودعة فى البدن تموت بموت الأبدان وهى غير الروح التى لا تموت بموت الأبدان ولا تبلى كما تبلى .. ويطلق الروح على أخص من هذا كله وهو قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته ، ونسبة هذه الروح إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن ، فإذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه ، وهى الروح التى يؤيدها أهل ولايته وطاعته .. فللعلم روح وللإحسان روح وللإخلاص روح وللتوكل والصدق روح .. وللإنابة والمحبة روح .. إلخ والناس متفاوتون فى هذه الأرواح أعظم تفاوت .. فمنهم من تغلب عليه الأرواح فيصير روحانيًّا ، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضيًّا بهيميًّا ..

وفيما يلى نعرض بتفصيل للرأى القائل بأن الروح مخلوقة حادثة ولذا فإنها توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال (وهذا شأن المخلوق المحدث المربوب) قال الله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون). والأنفس ها هنا هى الأرواح قطعاً وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن أبى قتادة الأنصارى عن أبيه قال : سرينا مع رسول الله ﷺ فى سفر ذات ليلة فقلنا يا رسول الله ، لو عرست بنا فقال : إنى أخاف أن تناموا فمن يوقظنا للصلاة ؟ فقال بلال : أنا يا رسول الله : فعرس بالقوم فاضجعوا وأسند بلال إلى راحلته فغلبته عيناه فاستيقظ رسول الله ﷺ وقد طلع جانب الشمس فقال : يا بلال أين ما قلت لنا ؟ فقال والذى بعثك بالحق ما ألقيت على نومة مثلها . فقال رسول الله ﷺ : « إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء » فهذه الروح المقبوضة هى النفس التى يتوفاها الله حين موتها وفى منامها التى يتوفاها ملك الموت ، وهى التى تتوفاها رسل الله

سبحانه وهى التى يجلس الملك عند رأس صاحبها ويخرجها من بدنه كرهاً ، ويكفنها بكفن من الجنة أو النار ، ويصعد بها إلى السماء فتصلى عليها الملائكة أو تلعنها ، وتوقف بين يدى ربها فيقضى فيها أمره ثم تعاد إلى الأرض فتدخل بين الميت وأكفانه فيسأل ويمتحن ويعاقب وينعم ، وهى التى تجعل فى أجواف الطير الأخضر تأكل وتشرب من الجنة ، وهى التى تعرض على النار غدوًّا وعشيًّا . وهى التى تؤمن وتكفر وتطيع وتعصى وهى الأمارة بالسوء ، وهى اللوامة وهى المطمئنة إلى ربها وأمره وذكره ، وهى التى تعذب وتنعم وتسعد وتشقى وتحبس وترسل وتصح وتسقم وتلذ وتألم وتخاف وتحزن وما ذاك إلا سمات مخلوق مبدع وصفات منشئ مخترع وأحكام مربوب مدبر . تحت مشيئة خالقه وفاطره وبارئه .

وكان رسول الله ﷺ يقول عند نومه « اللهم أنت خلقت نفسى وأنت توفاها ، لك مماتها ومحياها ، فإن أمسكتها فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » وهو تعالى بارئ النفوس كما هو بارئ الأجساد . قال تعالى : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) قيل .. من قبل أن نبرأ المصيبة .. وقيل .. من قبل أن نبرأ الأرض . وقيل من قبل أن نبرأ الأنفس ، وهو أولى لأنه أقرب ما ذكر إلى الضمير . ولو قيل يرجع إلى الثلاثة أى من قبل أن نبرأ المصيبة والأرض والأنفس لكان أوجه .

وكيف تكون قديمة مستغنية عن خالق محدث مبدع لها وشواهد الفقر والحاجة والضرورة أعدل شواهد على أنها مخلوقة مربوبة مصنوعة ، وأن وجود ذاتها وصفاتها وأفعالها من ربها وفاطرها ليس لها من نفس إلا العدم ، فهى لا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً . لا تستطيع أن تأخذ من الخير إلا ما أعطاها وتتقى من الشر إلا ما وقاها ولا تهتدى إلى شيء من

مصالح دنياها وأخراها إلا بهداه وتصلح إلا بتوفيقه لها وإصلاحه إياها ، ولا تعلم إلا ما علمها ولا تتعدى ما ألهمها ، فهو الذى خلقها فسواها وألهمها فجورها وتقواها ، فأخبر سبحانه أنه خالقها ومبدعها وخالق أفعالها من الفجور والتقوى خلافاً لمن يقول إنها ليست مخلوقة ، ولمن يقول إنها وإن كانت مخلوقة فليس خالقاً لأفعالها بل هى التى تخلق أفعالها .

ومعلوم أنها لو كانت قديمة غير مخلوقة لكانت مستغنية بنفسها فى وجودها وصفاتها وكمالها وصلاحها هو من لوازم ذاتها ليس معلّلاً بعلة فإنه أمر ذاتى لها كما أن غنى ربها وفاطرها ومبدعها من لوازم ذاته ليس معللا بعلة ، فهو سبحانه الغنى بالذات وهى الفقيرة إليه بالذات فلا يشاركه فى ملكه أو غناه مشارك .. كما لا يشاركه فى قدمه وربوبيته أحد . فشواهد الخلق والحدوث على الأرواح كشواهده على الأبدان .

قال تعالى : (يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد) وهذا الخطاب بالفقراء موجه للأرواح والأبدان معاً ، وقد أرشد الله سبحانه عباده إلى أوضح دليل على ذلك بقوله : (فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين) . أى فلولا إن كنتم غير مملوكين ومقهورين ومربوبين ومجازين بأعمالكم تردون الأرواح إلى الأبدان إذا وصلت إلى هذا الموضع (الحلقوم) أو لا تعلمون بذلك أنها مدينة مملوكة مربوبة محاسبة مجازاة بعملها ..

هذا ما أردنا أن نسوقه لقارىء الكتاب من الأدلة على أن الروح حادثة ومخلوقة وليست قديمة مستغنية بنفسها كما يقول الضالون من أدعياء التصوف وأهل البدع – كما ذكرنا أن الروح تموت إذ هى مخلوقة حادثة[4] .

---

(٤) الروح : ابن قيم الجوزية .

الروح بعد مفارقتها للجسد

والروح بعد مفارقتها للجسد يكون الموت وتبقى هى مدركة تسمع من يزورها وتعرفه وترد عليه السلام وتحس لذة النعيم وألم الجحيم .

يقول ابن تيمية : « وقد استفاضت الأخبار بمعرفة الميت بحال أهله وأصحابه فى الدنيا وأن ذلك يعرض عليه وأنه يرى ويدرى ما يفعل عنده ويسر بما كان حسناً ويتألم بما كان قبيحاً » .

وروى عن عائشة رضى الله عنها : « بعد أن دفن عمر رضى الله عنه » أنها كانت تستتر وتقول : « كان أبى — وزوجى .. أما عمر فأجنبى » .. تعنى أنه يراها .

وروى أن الموتى يسألون الميت عن حال أهليهم فيعرفهم أحوالهم وأنه ولد لفلان ولد ، وتزوجت فلانة .

وروى ابن عبد البر فى الاستذكار والتمهيد من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ، ﷺ : « ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن — كان يعرفه فى الدنيا — فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام » . وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور له بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فيسلم عليه رد عليه السلام وعرفه ، وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام .

وروى ابن أبى الدنيا فى كتابه المذكور أيضاً بسنده عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس

عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » ويؤيد ذلك ما ورد فى البخارى ومسلم من مخاطبته عليه السلام لقتلى قليب بدر بعد أن قذفوا فيه بأمره ﷺ ، وقوله للصحابة لما تعجبوا من ذلك : « والذى بعثنى بالحق ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .. ولكنهم لا يستطيعون جواباً » .

ومعلوم أن معرفة الأموات لزوارهم الأحياء معرفة ورؤية روحانية لا قلبية ولا بصرية لذهاب مجال الحواس البدنية منهم بمجرد الموت .. « ولو بقيت أجسام الأنبياء كرامة لهم » .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فإن كان خيراً استبشروا وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا » .. وروى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن أبى أيوب الأنصارى حديثاً طويلاً وفيه قال : إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من أهل الآخرة ، فإن كان خيراً فرحوا واستبشروا وقالوا اللهم هذا فضلك ورحمتك فأعم نعمتك عليه وأمته عليه ، ويعرض عليهم عمل المسيئين فيقولون : اللهم ألهمهم عملاً صالحاً ترضى به وتقربهم إليك . وروى الترمذى الحكيم فى نوازل الأصول من حديث عبد الغفور بن محمد العزيز عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ تعرض الأعمال يوم الاثنين ويوم الخميس على الله وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة فيفرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بياضاً وإشراقاً .. فاتقوا الله ولا تؤذوا موتاكم .

وروى ابن أبى الدنيا فى كتابه المثليات بسنده عن أبى هريرة قال : قال

رسول الله ﷺ « لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أولئكم من أهل القبور » .

السؤال فى القبر

اتفق أهل السنة والجماعة على أن كل إنسان يسأل بعد موته قُبِرَ أو لم يقبر.. فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً أو نسف فى الهواء أو غرق فى البحر لسئل عن أعماله وجوزى بالخير خيراً وبالشر شرًّا وأن النعيم أو العذاب على النفس والبدن معاً .

ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون فى نعيم أو عذاب ، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة ، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ، ويحصل له معها النعيم أو العذاب ، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين ، ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى .

وفى مسند الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه وصحيح أبى حاتم : أن النبى ﷺ قال : « إن الميت إذا وضع فى قبره يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه ، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه والصيام عن يمينه والزكاة عن شماله.. وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان عند رجليه.. فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة : ما قِبَلى مدخل.. ثم يؤتى من يمينه فيقول الصيام ما قِبَلى مدخل.. ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة ما قبلى مدخل.. ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان ما قبلى مدخل ، فيقال له اجلس..

فيجلس .. قد مثلت له الشمس وأخذت للغروب .. فيقال له : هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه ؟ وماذا تشهد به عليه ؟ فيقول : دعونى أصلى . . فيقولان : إنك ستصلى أخبرنا عما نسألك عنه ؟ أرأيت هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه : ؟ وما تشهد عليه ؟ فيقول : محمد - ﷺ - أشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله ، فيقال له : على ذلك حييت وعلى ذلك مت .. وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ، ثم يفتح له باب إلى الجنة ، فيقال له : هذا مقعدك . وما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً ، ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه ويعاد الجسد لما بدئ منه وتجعل نسمته فى النسم الطيب ، وهى طير معلق فى شجر الجنة » قال : فذلك قول الله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) وذكر فى الكافر ضد ذلك إلى أن قال : ثم يضيق عليه فى قبره إلى أن تختلف فيه أضلاعه فتلك المعيشة الضنك التى قال الله تعالى : (فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى) .

وقال الحافظ فى الفتح : ذهب ابن حزم وابن هبيرة إلى أن السؤال يقع على الروح فقط من غير عود إلى الجسد ، وخالفهم الجمهور فقالوا : تعاد الروح إلى الجسد أو بعضه كما ثبت فى الحديث . ولو كان على الروح فقط لم يكن للبدن من ذلك اختصاص ، ولا يمنع من ذلك كون الميت قد تتفرق أجزاؤه ، لأن الله قادر على أن يعيد الحياة إلى جزء من الجسد ، ويقع عليه السؤال ، كما هو قادر على أن يجمع أجزاءه .. والذى يحمل القائلين بأن السؤال يقع على الروح فقط ، هو أن الميت قد يشاهد فى قبره حال المسألة لا أثر فيه من إقعاد ولا غيره ولا ضيق فى قبره ، ولا سعة وكذلك غير المقبور كالمصلوب .

وجوابهم أن ذلك غير ممتنع فى المقدرة ، بل له نظير فى العادة وهو

النائم ، فإنه يجد لذة وألماً لا يدركه جليسه بل اليقظان قد يجد لذة وألماً لما يسمعه أو يفكر فيه ولا يدرك ذلك جليسه .. وإنما أتى الغلط من قياس الغائب على الشاهد وأحوال ما بعد الموت على ما قبله ، والظاهر أن الله تعالى صرف أبصار العباد وأسماعهم عن مشاهدة ذلك وستره عنهم إبقاء عليهم لئلا يتدافنوا ، وليست للجوارح الدنيوية قدرة على إدراك أمور الملكوت إلا من شاء الله . وقد ثبتت الأحاديث بما ذهب إليه الجمهور كقوله : « إنه ليسمع خفق نعالهم » وقوله « تختلف أضلاعه لضمة القبر » وقوله : « يسمع صوته إذا ضربه بالمطراق » وقوله : « يضرب بين أذنيه » . وقوله : « فيقعدانه » ، وكل ذلك من صفات الأجساد .

مستقر الأرواح

عقد ابن القيم فصلاً ذكر فيه أقوال العلماء فى مستقر الأرواح ، ثم ذكر القول الراجح فقال : « الأرواح متفاوتة فى مستقرها فى البرزخ أعظم التفاوت » .

– فمنها أرواح فى أعلى عليين فى الملأ الأعلى ، وهى أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .. وهم متفاوتون فى منازلهم .. كما رآهم النبى ﷺ ، ليلة الإسراء .

ومنها : أرواح فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت . وهى أرواح بعض الشهداء لا جميعهم ، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره ، كما فى المسند عن محمد بن عبد الله ابن جحش : « أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ ، فقال يا رسول الله ، ما لى إن

قتلت فى سبيل الله ؟ قال : الجنة . فلما ولّى قال : إلا الدَّين سارنى به جبريل آنفاً » .

– ومنهم من يكون محبوساً على باب الجنة ، كما فى الحديث : « رأيت صاحبكم محبوساً على باب الجنة » .

ومنهم من يكون محبوساً فى قبره كحديث صاحب الشملة التى غلّها « سرقها من الغنيمة قبل القسمة » .

ثم استشهد فقال الناس هنيئاً له الجنة . فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده إن الشملة التى غلها لتشتعل عليه ناراً فى قبره » .

– ومنهم من يكون مقره باب الجنة ، كما فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية » .

وهذا بخلاف جعفر بن أبى طالب حيث أبدله الله عن يديه جناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء .

– ومنهم من يكون محبوسا فى الأرض لم تعل روحه إلى الملأ الأعلى ، فإنها كانت روحاً سفلية أرضية فإن الأنفس الأرضية لا تجامع الأنفس السماوية ، كما لا تجامعها فى الدنيا، والنفس التى لم تكتسب فى الدنيا معرفة ربّها ومحبته وذكره والتقرب إليه والأنس به ، تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية المناسبة لها فالمرء مع من أحب فى البرزخ ، ويوم القيامة . والله تعالى يزوج النفوس بعضها ببعض فى البرزخ ويوم المعاد – ويجعل روحه (يعنى المؤمن) مع النسم الطيب (يعنى الأرواح الطيبة المشاكلة لروحه) فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وإخوانها وأصحاب عملها فتكون معهم هناك .

ومنها أرواح تكون فى تنور الزوانى والزناة ، وأرواح فى نهر الدم تلتقم الحجارة وتسبح فيه . فليس للأرواح شقيها وسعيدها مستقر واحد ، بل روح فى أعلى عليين وروح أرضية سفلية . لا تصعد عن الأرض .

وأنت إذا تأملت السنن والآثار فى هذا الباب .. وكان لك بها فضل اعتناء عرفت حجة ذلك .. ولا تظن أن بين الآثار الصحيحة فى هذا الباب تعارضاً فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضاً ، لكن الشأن فى فهمها ومعرفة النفس وأحكامها .. وأن لها شأناً غير شأن البدن .

وأنها مع كونها فى الجنة فهى فى السماء ، وتتصل بفناء القبر والبدن فيه .. وهى أسرع شىء حركة وانتقالاً وصعوداً وهبوطاً ، وأنها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسة وعلوية وسفلية ، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ولذة ونعيم وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير ، فهنالك الحبس والألم والعذاب والمرض والحسرة .. وهناك اللذة والراحة والنعيم والإطلاق وما أشبه حالها فى هذا البدن بحال الطفل فى بطن أمه .. حالتها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن فى هذه الدار فلهذه الأنفس أربع دور : كل دار أعظم من التى قبلها :

الدار الأولى : فى بطن الأم .. وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث .

الدار الثانية : هى الدار التى نشأت فيها وألفت واكتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة .

الدار الثالثة : دار البرزخ .. وهى أوسع من هذه الدار وأعظم بل نسبتها إليها كنسبة هذه الدار إلى الأولى .

الدار الرابعة : دار القرار .. وهى الجنة والنار فلا دار بعدها .

والله ينقلها فى هذه الدور طبقاً بعد طبق ، حتى يبلغها الدار التى لا يصلح لها غيرها ولا يليق سواها ، وهى التى خلقت لها وهيئت للعمل الموصل لها إليها .. ولها فى كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى ، فتبارك الله فاطرها ومنشئها ومميتها ومحييها ومسعدها ومشقيها .

البَابُ الخامِسُ

الروح فى فكر بعض المحدثين

أقوال المحدثين

أما المفكرون المحدثون[1] فهم فى الجملة بين قولين ، قول بنشوء الحياة من جوهر مجرد ، وقول بنشوئها من استعداد فى المادة يظهر مع التطور والتركيب .

وليس بين القائلين بالجوهر المجرد من الأقدمين والمحدثين اختلاف كبير فى غير أسلوب التعبير .

فالمحدثون يقولون إن الجسم لا ينشئ الحياة ، ولا طاقة للمادة بتوليد القوة الحيوية ، ولكنها إذا بلغت مبلغا معلوماً من الاستعداد صلحت لحلول الروح فيها ، وتهيأت لخدمتها مثلها فى ذلك مثل الموتور يصلح بالتركيب لقبول الكهرباء ، فإن أجزاءه المتفرقة لا تتحرك ولا تقبل العمل الكهربائى إذا بقيت على تفرقها أو اجتمعت على نحو غير النحو الصالح لاستقبال التيار وتلبية حركاته .

وكذلك الأعضاء الجسدية لا تخلق الحياة ، ولكنها تصلح لاستقبالها وتلبية حركاتها متى تم تركيبها على النحو المعروف .

والأقدمون يقولون بمثل ذلك، ولكنهم يعبرون عنه بأسلوبهم المنطقى الذى يستخدمونه للتميز بين الصور والأجسام (فالروح عندهم كمال أول لجسم طبيعى آلى) والكمال عندهم هو الذى تتحقق به ماهية الشىء وهو قسمان :

قسم يصدر منه الفعل وهو الكمال الأول ، وقسم الفعل نفسه وهو الكمال الثانى . والإنسان جسم آلى لا تتحقق له الإنسانية إلا بحلول الروح فيه .

(١) الفلسفة القرآنية / العقاد م. نهضة مصر.

فلا تتحقق له الإنسانية بمجرد وجود الأعضاء فيه ، بل باستقبال هذه الأعضاء لمصدر فعلها وحركتها وهو الروح ، فالروح إذن هى الكمال الأول لتركيب جسم الإنسان .

ودليل الأقدمين على أن الروح جوهر مجرد يلخصه الشهر ستانى فى كتاب نهاية الاقدام فى علم الكلام إذ يقول : (إن العلم المجرد الكلى لا يجوز أن يحل فى جسم ، وكل ما لا يجوز أن يحل فى جسم ، فإذا حل ففى غير جسم ، فالعلم المجرد الكلى إذا حل .. حل فى غير جسم ويؤيد ذلك أنه غير قابل للانقسام) .

ويوشك الأقدمون والمحدثون أن يتلاقوا فى توضيح المشكلة التى تنجم عن القول بتجرد الروح ، ثم القول بتأثيرها فى الأجسام . فالأقدمون يجعلون الجواهر المجردة درجات فى التلبس بالمادة وقابلية الاشتراك معها فى عملها . فلا يؤثر الجوهر المجرد فى المادة مباشرة ، بل يؤثر فيها بواسطة جوهر يقاربه من جهة ، ويقارب المادة من جهة أخرى .

والمحدثون يقيمون هذه القنطرة بين العالمين — عالم الروح وعالم المادة — بفروض كثيرة منها أن الغدة الصنوبرية فى الدماغ هى ملتقى الروح بالجسد ، ومنها أن يرتفعوا بالمادة الجسدية إلى غايتها من الصفاء لكى تتقبل الأثر من عالم الروح . ومنها أن يزيلوا العجب من تأثير الأرواح فى الأجسام بقولهم أن تأثير الروح فى الجسد ليس بأعجب من هذه المؤثرات التى نراها تقع من الأجسام ، فلا داعي للجزم بامتناع أثر الجوهر المجرد فى صور المادة على اختلافها بين الجوامد والأحياء .

وكل فرض من هذه الفروض لا يزعم صاحبه أنه قال فى معضلة الروح قولاً يغنيه عن التمثيل فى هذه المعضلة بالآية القرآنية الكريمة :

(قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)

رأى المرحوم الدكتور / عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر[٢] :

الإنسان خلق كرمه الله بقدرات تؤهله للخلافة فى الأرض . وهو خلق مميز عن الممالك الثلاث (مملكة الجماد / مملكة النبات / مملكة الحيوان) فالآية (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) الخطاب فيها موجه إلى بنى آدم ، وهى آية تحدد لنا عالم الأحياء بأبعاد ثلاثة : بيانها :

١ - الإنسان سيد على المادة والطاقة وجملة النبات والحيوان وشرط سيادته (الإيمان)

٢ - الإنسان أخ لكل إنسان .

٣ - الإنسان عبد لمن خلق كل شىء .

والتراث الإنسانى غنى بالنظرات الصادقة إلى النفس ففى مَعراج السالكين أن **الإنسان تنقسم جملته إلى ثلاثة أشياء (نفس ، وروح ، وجسم) فالجسم : هو المؤلف من المواد والعناصر الحاملة لروحه ونفسه ، وهو الشكل المنتصب - ذو الوجه واليدين والرجلين - وأما الروح : فهو الجارى فى العروق الضوارب والشرايين .. وأما النفس : فهو الجوهر القائم بنفسه الذى ليس هو فى موضع ولا يَحل شيئا .**

(٢) من حديث لفضيلته فى دمشق سنة ١٩٦١ ميلادية بمناسبة الاحتفال بذكرى الغزالى المئوية التاسعة .

رأى المرحوم عباس محمود العقاد :

ومسألة الروح[٣] هى أعضل مسائل العلم والفلسفة ومذاهب التفكير على التعميم منذ فكر الإنسان فى حقائق الأشياء بين جميع أصحاب النحل والآراء فى جميع العصور.

وسواء فهمنا من الروح أنها جوهر مجرد تقوم به حياة الأجساد .. أو فهمنا كما يفهم الماديون أنها ظاهرة الحياة فى تركيبة من تراكيب المادة – فلا يزال العلم بحقيقتها قليلاً أو أقل من القليل[٤] .

لأن الماديين الذين يعتبرونها قوة من قوى المادة لم يخرجوا بها عن تسجيل الحى ، كما يرونه ولم يستطيعوا فقط تعليل الفارق بين الخلية المادية والخلية الحية بعلة من العلل المادية نفسها ، فضلاً عن العلل التى تتجاوز المادة إلى ما وراءها ولم ينكروا أن الفارق عظيم وأنه أبعد فارق بين شيئين من هذه الأشياء التى تقع فى الكون المحسوس أو الكون المعقول .

فمن المعجزات القرآنية أنه وضعها هذا الموضع الصحيح من الفلسفة والعلم وجعلها أعضل المعضلات التى يتساءل عنها الناس بغير استثناء .

ويزيد فى تقدير هذه المعجزة أن القرآن لم يستكثر على الفكر الإنسانى أن يخوض فى المسألة الإلهية . وأن يصل إلى الإيمان بالله عن طريق البحث والاستدلال ، والنظر فى آيات الخلق وعجائب الطبيعة .

فالعقل يهتدى إلى وجود الله من النظر فى وجود الأشياء ووجود الأحياء ،

---

(٣) ذكرت فى القرآن بلفظها ١٨ مرة .

(٤) من كتاب العقاد : الفلسفة القرآنية ص ٩٨ .

ولكنه لا يهتدى إلى حقيقة الروح من هذا الطريق ولا يذهب فيها مذهباً أبعد ولا أعمق من الإحالة إلى مصدر الموجودات جميعاً . وهى إرادة الله أو أمر الله . وقد عجب بعض المفسرين لذلك وراحوا يتساءلون أتكون مسألة الروح أكبر من المسألة الإلهية وهى غاية الغايات فى سبح العقول ؟

ولكنهم فى الواقع يرجعون بالعجب إلى غير مرجعه الأصيل . لأن المعضلة الفكرية لا تبلغ مبلغ الإعضال بقدر عظمتها واتساعها . بل بمقدار دقتها وخفائها ..

المؤلفـــان :

وفى رأينـا أن النفس جوهـر مشرق ربّـانى، إذا خالط البـدن أكسبه قـدراتٍ، بعضها يطفو والبعض الآخر يغوص. فأما الذى يطفو فيتعطل بالنـوم، وأما الـذى يغوص فلا يتعطل بالنوم ولا بغيره ما بقى الآدمى على قيد الحياة . وقد ورد هذا التأويل فى أقوال بعض المفسرين حين عرضوا لقوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) . وجدير بالذكر هنا أن بعض الأساتذة الدارسين لعلوم الطب الحديث يؤكدون أن مراكز الأعصاب التى تتحكم فى الإبصار والسمع والنطق تتعطل بالنوم ، على حين أن مراكز الأعصاب التى تتحكم فى الدورة الدموية وانتظام التنفس واستمرار القلب فى وظيفته ، ويقظة الأعصاب اللا إرادية (التى تمنع النائم من أن يبول مثلا) تقع كلها فى مواقع تغوص فى البدن فمنها ما يقع تحت تلافيف المخ ومنها ما يسرى فى السلسلة الفقرية من أعلاها إلى أدناها (وهو قول يؤكد أقوال السلف الصالح) .

- والروح خلق فى عالم الغيب لم يرد فى كتاب الله إلا بصيغة الإفراد دون الجمع فلا ذكر فى القرآن الكريم للأرواح أبداً (وأما النفس ففيها المفرد والجمع) . أما ذكر بعض الأحاديث النبوية للأرواح بصيغة الجمع فقد عرض له الفقهاء ، وقالوا أن الأنفس أصلها من الروح ، ومن ثم جازت تسمية الفرع بما يطلق على الأصل (من قبيل المجاز) وفى فهمنا أن الإنسان يتكون من عنصرين :

أحدهما : أرضى خالص هو البدن ، وهو جسم كثيف أصله من التراب ومآله إلى التراب ، ولا تصلح حاله فى الدنيا إلا على شىء من تراب كالنبات والأداة والطاقة .

والعنصر الثانى : هو الجوهر المشرق الذى تقدم ذكره ، ويعرف بالنفس وقد تأتى لفظة النفس مرادفة للفظة نسمة (على سبيل المجاز) فالحياة إذن ظاهرة موقوتة تجد علتها فى ائتلاف العنصرين السابقين وحين يفترقان فإن هذه الظاهرة تتوقف ولا يبقى لذاتها من أثر .. هذا عن الحياة الأولى أما الحياة الأخرى فشىء آخر نؤمن به وبتفصيلاته التى وردت فى الكتاب والسنة ، وسوف نعرض لها فى نهاية كتابنا الثالث فى سلسلة حقيقة الإنسان.. (حقيقة النفس).

الماديون والروح

والماديون الذين يقولون بنشأة الحياة من المادة لا ينيبون بطبيعة الحال إلى علم الله فى معضلة من المعضلات . ولكنهم ينيبون على الرغم منهم إلى رأى فى تعليل الحياة هو أعجز وأبلغ فى التسليم من إنابة المؤمنين ، لأن قصارى ما ذهبوا إليه أن الحياة حصلت لأنها قابلة للحصول .. فهم يعترفون بالفارق بين الذرة المادية

والخلية الحية ، ولكنهم يقولون أن الخلية الحية قد تترقى بالتطور والتركيب المتلاحق إلى اكتساب خصائص الحياة ، ويمثلون لذلك بالعناصر التى تتركب فتظهر فيها بعد التركيب خصائص لم تكن لعنصر من عناصرها على انفراد .

وهكذا يترقى التركيب بالمادة إلى مرتبة النبات فالحيوان . فالإنسان العاقل فما فوق الإنسان مع تطاول الزمان .

ولكنهم لا يذكرون دليلاً واحداً على حدوث الحياة من مثل هذا التركيب .. ولا يذكرون سبباً ماديًّا معقولاً لالتزام المادة سلم الارتقاء طبقة فوق طبقة منذ الأزل الذى لا يعرف له ابتداء ؟ ولا يذكرون سبباً ماديًّا واحداً يوجب أن تنفرد بعض الوجود ، ولا يشعرون بقصور هذا الغرض عن تفسير الخصائص التى تتوزع بين ألوف الخلايا التى تتولد منها الأنواع الحية ، وفى كل خلية منها قدرة على التجدد والتعويض ونقل طبائع النوع كله ، وهى فى دقتها أخفى من أن تتراءى الألوف منها للعين بغير منظار .

فإن الناسلات التى تنشئ النوع الإنسانى كله يمكن أن تجمع فى قمع صغير من أقماع الخياطة ، وفى هذا القمع الصغير تكمن جميع الخصائص التى يختلف بها ملايين البشر فى الأفكار والعادات والأعضاء والألوان . وتكمن جميع الموروثات التى تلقاها سكان الكرة الأرضية عن آبائهم وأجدادهم منذ مئات الألوف من السنين ، وجميع الموروثات التى يخلفونها لأعقابهم إلى مئات ألوف أخرى بغير انتهاء . فإذا كانت للحياة معان تقوم على الوعى الذى لا يوجد فى المادة ويكفيها مثل هذا الحيز من الامتداد وهو أقرب إلى المعقولات منه إلى المحسوسات فماذا أبطل الماديون من القول بقوة الروح المعنوية ؟ أو ماذا أبطلوا من القول بتوسط هذه المعانى بين المجرد والوجود المحسوس ؟

إذا كانت الحياة لا توجد فى كل مادة وكانت المادة الخاصة التى توجد فيها

تتلقاها بمعانى لا يحصرها الحس وتأخذ منها كل هذه الأجسام التى تملأ فضاء الكرة الأرضية فهل هذا هو تفسير السر المغلق أو هذا هو السر المغلق الذى يدق عن العقول ؟ وأى الأجسام بل أى آكام من الأجسام . أهى أجسام وكفى تتساوى فى جميع الأشكال والأحجام ؟

كلا بل هى أجسام تختلف كل ذرة منها عن كل ذرة ، ولا تنوب واحدة منها عن الأخرى أو تختلط شخصية منها بشخصية سواها ، فأين يبتدئ التلغز والتخمين إذا كان هذا نهاية التفسير والتبيين . ؟

وإذا كان الماديون قد بلغوا بتجريد قوة الحياة أقصى ما يستطيعه المادى من صفات التجريد – فإن القول بالتجريد المطلق لا يقطع الكلام فى مسألة الروح، ولا يتركه بغير بقية طويلة تستتبع الأسئلة الكثيرة بغير جواب.

فهل الجوهر المجرد البسيط يقبل الفناء ؟ وهل كان معدوماً قبل أن يوجد ؟ إن فريقاً من الفلاسفة يقول إن الجوهر البسيط لا يتغير ولا يفنى . لأن الانحلال إنما يأتى من جهة التركيب ، وليس فى الجوهر البسيط مركب ، وليس بقابل للفناء غير قابل للإيجاد بعد عدم وليس له ابتداء ولا انتهاء .

وبعض المتدينين يقول بقدم العالم كله لأنه لا يخلق فى زمان والجواهر البسيطة من باب أولى قديمة على هذا الاعتبار . وقد يستشهد هؤلاء على قدم الروح بأنها من روح الله (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون) .

فالروح من روح الله ، وهو أزلى أبدى بلا أول ولا آخر ، ولا زمان

ولا مكان ، ومنهم من يقول بحدوث الروح ، ويعنى بذلك أنها غير قديمة وينكر قدم العالم على الإجمال .

وهنا يرد على الخاطر سؤال عن تساوى الأرواح فى القدم أو تساويها فى الحدوث .

فهل وجدت أرواح الآباء والأبناء والأحفاد فى وقت واحد ؟ أو وجدت على تفاوت فى الترتيب ، وهل تنقطع صلة الأبوة بين الأرواح ، أو هناك أرواح توصف بالنبوة على النحو الذى نشهده فى الحياة ؟ وما الفارق بين أرواح الآباء والأمهات وأرواح الذكور والإناث .

ويرد على الخاطر سؤال آخر عن علاقة الروح بالجسد بعد دخوله والامتزاج بأعضائه هل تأتى بالمعرفة معها من عالم الأرواح أو هى تتلقى المعرفة من ملامسة الأعضاء وحسن الحواس التى تتألف من البصر والسمع واللمس والشم والذوق وما إليها . وهل تحمل معرفتها معها بعد فراق الجسد أو تتركها وراءها بعد انقطاع الصلة بينها وبين الإحساس بالحواس ؟ ويرد على الخاطر سؤال غير هذين السؤالين فى مسألة الثواب والعقاب : فهل تخلص الروح من الجسد ، كما دخلته مبرأة من الذنوب ؟ وهل يلصق شىء من الجسد بشىء من الروح ، وإذا كانت قبل نزولها فيه وخروجها منه خالصة من تلك الذنوب فكيف يكون العقاب ؟ أو كيف تعاقب الأجساد بمعزل عن الأرواح ؟ أو كيف تعاقب الأرواح بمعزل عن الأجساد ؟

والذين قالوا بدخول الروح فى الأجساد أكثر من مرة يسألون ، لماذا ينسى الروح حياته الأولى فى الجسد القديم بعد دخوله فى الجسد الجديد ؟ وهل يعود إلى التذكر بعد التجرد من الحياة الجسدية ؟ أو هو فى كل مرة يرجع إلى ما كان

عليه قبل الحياة الجسدية ، كأنه لم يتلبس قط بالأجساد وماذا تفيد الروح من تكرر الحياة إذا كانت تبقى بعد موت كل جسد ، كما كانت قبل حياتها فيه ؟

الروح والنفس والعقل

ولا يقل عن هذه الأسئلة فى الإعضال سؤال السائلين : هل الروح والنفس والعقل شىء واحد أو هى أشياء مختلفات ، وهل هى فردية أو عامة فى جميع الأحياء العاقلة ؟

فمنهم من يقول إن العقل والروح والجسد كلها هى قوام العنصر المجرد فى الإنسان ، وإن ما عداها عنصر جسدى قابل للانحلال .

ومنهم من يقول إن العقل وحده هو العنصر المجرد ، وإن النفس درجات والروح فى أعلى هذه الدرجات ، ثم تنحدر درجات النفس فتلتقى بالجسد فى الحياة الحيوانية ، ولا يختلف شأنها فى هذه الحالة عن شأن الدم الذى ينبعث منه حركة الأعضاء أو شأن الأبخرة اللطيفة التى تتخلل تلك الأعضاء .

والقائلون بذلك يقولون إن العقل عام فى جميع العقلاء وإنه غير متوقف على الأفراد ، لأن أحكامه واحدة فى جميع العقول وقضاياه ثابتة فى جميع الأحوال وذلك على خلاف النفس [٥] التى تختلف بأذواقها ومشتهياتها بين فرد وفرد وبين حال وحال .

فالعقل إذَنْ هو الخالد الباقى الذى لا يفنى بفناء أجساد الأحياء ، أما

---

(٥) ذكرت النفس بلفظها فى القرآن ٢٧١ مرة وهى جمع للجسد والروح معاً ، ويرى كثير من الأطباء أن هناك رباطا قويا بين الأمراض الجسدية والأحوال النفسية للمريض .

النفس فشأنها شأن الجسد فى التميز والتحيز وقبول الفناء .

ومن الماديين من يأتى وسطاً بين المجردين والمجسدين ، فعندهم أن وجود الروح لاحق لوجود الجسد ، وأن الجسد إذا ترق فى التركيب نشأت من تركيبه وجهة معنوية أو شخصية مستقلة صالحة للبقاء ، بمعزل عنه وكانت وجوداً جديداً لا ينعدم ، لأن الموجود لا يقبل العدم . ولا فرق فى ذلك بين وجود الكيفية ووجود الكم أو المقدار .

وأقرب ما يمثلون به لذلك وجود القصيدة فى قريحة الشاعر أو وجود اللحن الموسيقى فى قريحة الموسيقار أو وجود الفكرة فى قريحة الفيلسوف .. فهذه الوحدات المعنوية من عمل الشاعر والموسيقار والفيلسوف ، ولكنها استقلت بوجود قابل للبقاء بعد زوال من خلقوها وانفردوا بخلقها بين أصحاب القرائح التى لا تحصى .

وتمثيلهم هذا تمثيل تقريب وليس بتمثيل تحقيق . لأنهم يقصدون أن الشخصية الروحية التى يتمخض عنها تركيب الجسد أو تركيب الدماغ خاصة هى كيان قائم بذاته ، وليس بالكيان الذى يتوقف على غيره كقصيدة الشاعر ولحن الموسيقار وفكرة الفيلسوف ، وكل منها لا يقوم إلا بسامع أو معين .

تحضير الأرواح

وإذا أردنا أن نشمل بالكلام فى الروح أحاديث القائلين بتحضير الأرواح فالأسئلة هنا تتوارد من أصحاب الدين ، كما تتوارد من أصحاب العلم وأصحاب الفلسفة . فلك أن تسأل هل السيطرة على الأرواح مسألة قدسية إلهية ؟ أو هى مسألة آلية صناعية ؟

فإن كانت قدسية إلهية فما هذه الآلات والأشعة والمصورات والمحركات ؟ وما هذا الارتباط بين تحضير الأرواح الحديث والمخترعات الحديثة ؟ وما هذه السيطرة على الأرواح بسلطان تلك الآلات والمخترعات فى أيدى قوم لم تعرف عنهم قداسة ضمير أو رياضة نسك وصلاح ؟

وإن كانت آلية صناعية فأى تغليب للمادة على الروح أقوى من هذا التغليب الذى ينوط كشف الأرواح بتقدم الصناعات والمخترعات ؟ ويجعل عالم الروح كعالم المادة تابعاً لآلة تدار أو مخترع جديد لم يكن معروفاً قبل القرن العشرين ؟ وكيف نفسر أن عالم الروح كله لم يستطع بجهوده وبواعثه أن ينفذ إلى عالم المادة ، وأن عالم المادة استطاع ببعض الأجهزة أن ينفذ إلى عالم الروح ؟ وهل سعت الأرواح إلينا فعجزت فى مسعاها ، أو هى لم تسع قط ونحن الذين أرغمناها على الظهور لنا والتحدث إلينا ؟ وما معنى قدرتنا وعجزها فى هذه الجهود التى لا قوة لنا فيها بغير أرواح التحضير ؟ .

الروح : اصطلاحات ومعان

وإلى هنا نكون قد خصصنا الـروح بالمعنى الـذى يقصد بـه قوام الحيـاة، أو قوام الحياة والعقل فى الشخصية الإنسانية.

ولكن الروح عُمّمت فى القرآن لغير هذا المعنى . وارتفعت بمعانيها فى القرآن من الوجود المادى إلى الوجود المنزه عن المادة وخصائصها . وقد تلحق بالوجود الإلهى الذى لا شبيه له فى الموجودات .

ولكن الاصطلاح الذى لا يتعرض أصحابه للحصر والتحقيق يطلق الروح أحياناً على معنى الحياة فى كل ذى حياة فيقولون (كل ذى روح) ويقصدون به

عالم الحيوان ويجمعون بين الروح والنفس فى معنى واحد . ثم ينحلون النبات نفساً ، ويفرقون بينها وبين نفس الحيوان ونفس الإنسان ببعض الخصائص التى تجعل معنى الكائنات النفسية أحياناً بمعنى الكائنات العضوية فى اصطلاح العلم الحديث .

والذين يطلقون الاصطلاح هذا الإطلاق منهم المؤمنون بالدين ومنهم من تقدم الأديان الكتابية ، ومنهم من ظهر بعدها وأنكرها كما ينكرها الدهريون الذين قالوا إنها حياتنا الدنيا نموت فيها ونحيا .

فصاحب الهدية السعيدية المولوى محمد فضل الماتريدى يلخص معانى النفوس فيقول : « إن المركب الذى له مزاج وليس من المعدنيات ذا نفس أرضية .. والنفس الأرضية إما نفس نباتية أو نفس حيوانية أو نفس ناطقة .. وعرفوا النفس النباتية بأنها كمال أول لجسم طبيعى آلى من حيث يتغذى وينمو » .

ثم يقول عن النفس الإنسانية .. إن النفس جوهر مجرد واحد ولها وجه إلى البدن ويجب أن يكون هذا الوجه غير قابل لأثر من جنس مقتضى طبيعة البدن .. ووجه إلى المبادئ العالية ويجب أن يكون دائم القبول عما هناك . والتأثير منه ، فمن الجهة السفلية تتولد الأخلاق ، لأنها تؤثر فى البدن الموضوع لتصرفها مكملة إياه تأثيراً اختياريا وتسمى قوة عملية وعقلاً عمليًّا .. ومن الجهة الفوقانية تتولد العلوم لأنها تتأثر عما فوقها مستكملة فى جوهرها بحسب استعدادها وتسمى قوة نظرية وعقلاً نظريًّا .. فالقوة النظرية من شأنها أن تنطبع بالصورة الكلية المجردة من المادة .. فإن كانت مجردة فلا تحتاج فى أخذها إلى تجريدها .. وإن لم تكن فتصير النفس مجردة بتجريدها حتى لا يبقى فيها من علائق المادة . فإذا أغضينا عن فوارق الأسلوب ففى هذا الكلام مواطن اتفاق كثيرة بين

الأقدمين والمحدثين ، وبين الفلاسفة والعلماء ، وبين أصحاب الدين وغيرهم من المفكرين .

فجميع هؤلاء متفقون على التفرقة بين الجسد العضوى ، والجسد الذى لا تعضى فيه .. وجميع هؤلاء متفقون على إلحاق النبات بعالم الحياة فى خصائصها التى تميزها من المادة على الإطلاق .

وجميع هؤلاء متفقون على النطق أو العقل خاصة إنسانية تميز الإنسان من الحيوان ، ولكنهم إذا جاءوا إلى الصفة التى تكسب الحى قدرة المعرفة وقع بينهم أكبر اختلاف يقع بين مختلفين .

فتوزع القوى المدركة فى النفس على حسب الاتجاه العلوى أو السفلى كلام يسيغه بعض الفلاسفة وبعض المتكلمين ولا يسيغه الآخرون .

وتدرج القوة العاقلة من الحيوان إلى الإنسان كلام ينكره الدينيون ولا يتفق عليه علماء الطبيعة الذين يجعلون العقل من عنصر غير عنصر الغريزة أو البداهة الحيوانية .

وينتهون جميعا إلى (علم قليل) فى هذا المبحث العويص الذى لا يدانيه فى اعتياصه مبحث آخر من مباحث الطبيعة أو ما وراء الطبيعة[٦] .

وقبل أن نسترسل فى تفصيل ما أوضحناه إجمالاً نلفت النظر إلى أننا لسنا نسرد هذه الخلافات ، لنقطع فيها بقول فصل لا خلاف عليه ، ولسنا نسردها للفصل فى مكان الروح من الجسد أو الادعاء بالإحاطة بأسرارها وأسرار النفس ، وفك ما تلغز علينا من الأسرار .. فليس إلى ذلك من سبيل .. بل إن العلم المتجدد مهما بلغ به الترقى ، فإنه لن يصل إلى تفسير عمل الروح . ولسوف

(٦) الفلسفة القرآنية / العقاد .

يبقى ذلك مكنوناً عنا تأكيدا لمعنى (الروح من أمر ربى) .. (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .) .

والروح أرضية فى رأى طائفة
وعند قوم تُرقّى فى السموات
تمضى إلى هيئة الشخص الذى سكنت
فيه إلى دار نعمى أو شقاوات
وكونها فى صفيح الجسم أحوجها
إلى ملابس عنها وأقوات

(المعرى)

البَابُ السَادِسُ

الروح والنشاط الروحى

الجمعيات الروحية

فى سنة ١٧٣٥م صدر فى انجلترا قانون يعتبر الاشتغال بالروحية شعوذة يستحق فاعلوها العقوبة من الدولة.. ثم صدر قانون آخر فى سنة ١٨٢٤م يعتبر الوسطاء والمساعدين الروحيين متشردين لا عمل لهم ، ولكن مجلس العموم البريطانى قد ألغى هذين القانونين بإجماع الآراء .. ومنذ ذلك الحين نهضت حركة الدراسات الروحية فى إنجلترا حتى تم تأسيس جمعية المباحث الروحية فى انجلترا سنة ١٨٨٢م بلوندرة بعد أن كان المذهب المادى قد أوغل وأخذ يعلن أنه ليس هناك عالم سوى هذا العالم المنظور وأنه ليس شىء سوى المادة وأنه لا مكان للروح فى هذا الوجود .. وقد جاء فى كتاب الشخصية الإنسانية للعلامة الأستاذ (هـ . و . ميرس) مدرس السيكولوجيا فى جامعة كمبردج أن شلة من الزملاء اجتمعوا سنة ١٨٧٣م، وأجمعوا رأيهم على ضرورة بذل الجهود الجادة فى مجال المباحث الروحية لا بالتأمل فيما وراء الطبيعة ، بل بالتجربة والمشاهدة وبمعارفنا عن العالم المرئى المحسوس .. وأن تؤسس على البحث العلمى بالمعنى الدقيق بإجراء تجارب يمكن تكرارها كل يوم ..

وقد جمعت جمعية المباحث الروحية من التجارب الروحية ما وقع فى نحو أربعة وخمسين مجلداً .. وقد كتب عنها الأستاذ (وليم جيمس)[1] فى كتابه

---

(١) وهو مدرس علم النفس بجامعة هارفارد ويعتبر من أعظم علماء النفس فى القرن ١٩.وتلميذه وليم مكدوجل أستاذ علم النفس بجامعة ديوك ويعد عمدة علم النفس الاجتماعى ، ومن أعظم علماء النفس فى القرن ٢٠ .

إرادة الاعتقاد يقول :

هذه الجمعية فى إنجلترا وأمريكا قد سمحت بأن يتلاقى العالمان (العلمى والروحانى فى مجال واحد وسوف يكون لها نصيب كبير فى ترتيب المعارف الإنسانية ..)

وكان الرأى العام قد حمل المجمع العلمى الإنجليزى -- قبل أن تتألف هذه الجمعية -- على تأليف لجنة لفحص الظواهر الروحية وتمحيصها فندبت ثلاثة وثلاثين علماً من أعلامها لهذه المهمة العلمية ، وبذلوا فى تحقيق هذا الموضوع ثمانية عشر شهراً ثم حرروا تقريراً إجماعيًّا وقع فى ٥١٤ صفحة وطبع بأكثر من لغة حية جاء فى آخره ما نصه[٢] :

(اكتفت اللجنة فى تقريرها بذكر المشاهدات التى كانت مدركة بالحواس وحقيقتها مستندة إلى الدليل القاطع .. وقد اقتنعت اللجنة .. التى بدأت عملها بإنكار صحة هذه الظواهر بشدة ، وأن مشاهداتها خلال البحث هى مشاهدات حقة لا غبار عليها .. إلخ)

ولقد كان لهذا التقرير أثر علمى عام فاهتم العلماء فى كل مكان ببحث هذه الخوارق وتألف مئات الجمعيات لذلك ، وصدرت المجلات الروحية وأقيمت خمس مؤتمرات عالمية فى لوندرة وباريس أصدرت تقارير هامة ترجمت إلى اللغات الحية .

ذلك ما كانت عليه مرحلة العلم بالناحية الروحية إلى أواخر العقد الثانى من القرن العشرين ، حتى إذا استثارت هذه المباحث عقل وليم مكدوجل ورأى أن ندرة تلك الظواهر الروحية التى أشرنا إليها سابقا والتى اعتمد عليها العلماء السابقون فى تقريرهم وهى الظواهر التى تعتمد على الوساطة الروحية ، نادرة

---

(٢) عن كتاب من عالم الفكر والروح للأستاذ / السيد كمال الشورى .

الوجود بين الأفراد مما يجعل من المستحيل لتلك التجارب أن تنكر بالانتظام العلمى المطلوب فى إثبات الظواهر الكونية والقوانين الطبيعية .

فطلب مكدوجل من صديقه الدكتور (راين) وكان أستاذا للنبات وعضواً فى جمعية المباحث الروحية أن ينظم فى بحث علمى تجريبى يخضع لكل الاشتراطات العلمية من القابلية للتكرار والتحكم العلمى الدقيق ، وأن يقوم مكدوجل بإنشاء معامل تخصص لهذا النوع من البحث فقط .. وفعلاً أنشئت معامل الباراسيكولوجى (ما وراء علم النفس) بجامعة ديوك بولاية كارولينا الشمالية بالولايات المتحدة الأمريكية ودخل فيها (راين) وزوجته (أستاذة علم النبات) وبدأوا فى أوائل العقد الثالث يوالون أبحاثهم التجريبية فى معامل تجريبية أدخلت إليها ، وفيها جميع أساليب الضبط والتحكم العلمى الدقيق لدرجة أن القيود العلمية التجريبية التى أدخلت على بعض هذه التجارب كانت أكثر من كل قيود فرضت على أى تجربة علمية سابقة .

وكان من نتيجة هذه الأبحاث التجريبية الوصول إلى النتائج التالية :

١ - درس (راين) ومعاونوه ظاهرة انتقال الفكر (التلبثى) وأثبتوا وجودها علميًّا .

٢ - درسوا ظاهرة الاستشفاف أو الجلاء البصرى ، وهى الإحساس بالحوادث التى تحدث على مسافات بعيدة ، وأثبتوا وجودها .

٣ - أثبتوا أن انتقال الفكر أو الجلاء البصرى مظهران لظاهرة واحدة أطلقوا عليها اسم : (الإدراك خارج الحواس) .

٤ - أثبتوا أن ظاهرة الإدراك خارج الحواس لا تخضع للرقابة المكانية والزمانية التى تخضع لها جميع الظواهر المادية ، وظواهر الطاقة سواء أكانت كهربائية أم حرارية أم ضوئية أم غيرها ، بمعنى طاقة الجاذبية ، أو طاقة الضوء

التى تخضع لقانون التربيع العكسى أى أن شدة الجاذبية أو شدة الإضاءة تتناقص بنسبة تتناسب مع مربع البعد عن مكان مصدر الضوء ، أى أن قوة إضاءة الشمعة إذا أبعدت عن الرائى – الذى يراها على بعد متر إلى مترين – أى ضعف المسافة نزلت قوة الإضاءة إلى الربع أى عكس مربع ٢ وهو ٤ فتصير (ربع) .

هذا من ناحية العلاقة المكانية التى تخضع لها كل أنواع الطاقة .

كذلك العلاقة الزمانية التى يعبر عنها فى العلوم الطبيعية بقانون (السببية) أو العلة والمعلول ، أى أن السبب يسبق النتيجة دائماً ، ولكن هذا القانون انكسر فى تجارب الإدراك خارج الحواس بمعنى أنه يحدث تنبؤ فيحدث الإدراك العقلى للحادثة ، وهى نتيجة قبل أن تحدث الحادثة فى الكون وهى المؤثر أو السبب .

٥ – أثبت هؤلاء الباحثون أن العقل الذى يتأثر بالقانون العام المعروف فى علم النفس وهو قانون (المؤثر والاستجابة له أو الرد عليه) كذلك العقل يستطيع أن يحس وأن يتأثر بالمادة عن طريق الإدراك الخارج عن الحواس ، وكذلك يؤثر فى المادة بالطاقة التى سموها الطاقة النفسية المحركة ، أى أن العقل يؤثر فى المادة دون اتصال مادى مباشر.

٦ – فإذا كان هناك إدراك خارج الحواس وطاقة نفسية محركة فهذا دليل على أن للشخصية الإنسانية شقًّا لا يخضع للقوانين الطبيعية المعروفة فى علم الفيزياء والكيمياء . أى أنه شق روحى .

ولقد أصبحت هذه النتائج فى موقف علمى فوق النقد أو الجدل وبخاصة أن هذه البحوث التجريبية قد عرضت على مؤتمرين لكل علماء الرياضة

الإحصائية وعلم النفس فى الولايات المتحدة الأمريكية وأخذت إقرارهم جميعًا[1]..

أربع مقالات هامة

وقد نشرت مجلة (سايكك نيوز) سلسلة من المقالات التى كتبها لها العالم الروحى (توى وارنر ستبلز Joye Warner-Staples) فى موضوع الوساطة الروحية عند المسلمين[2] « تحدث فيها عن النبى محمد ، ﷺ ، وهل كان وسيطاً روحيًا – وعن جبريل (الوحى) وعمن تحدث إليهم الرسول فى الأحلام – وعن كرامات الأولياء – وتضارب الأرواح المهيمنة – وعمن رأوا النبى ﷺ – وعن الجلاء البصرى وتسخير الجان والحسد » وهى آراء تعبر عن فكر كاتبها ، وهى ليست بالضرورة متفقة مع رأينا أو مع الرؤية الإسلامية وإنما نعرضها كنموذج للمباحث الروحية التى أشرنا إليها ونافذة على وجهات النظر الغربية ..

يقول ستيبلز فى مقاله الأول :

بحثت كثيراً من حالات الوساطة الروحية عند المسلمين ولنضرب لذلك بعض الأمثلة التى تثبت انتشار الوساطة الروحية عند المسلمين بوجه عام وعند النبيين بوجه خاص :

---

(١) ومن أراد الاستزادة من هذه الأبحاث فليرجع إلى كتاب العقل وسطوته تـأليف (ح . ب . راين) وترجمة الدكتور محمد الحلوجى.

(٢) عن كتاب من عالم الفكر والروح للمؤلف السيد كمال الشورى.

ويفرق الأستاذ بين الوساطة الروحية عند النبيين وبينها عند الأولياء والقديسين والجان وبين ما يراه النائم فى نومه وبين ما يفعله الساحر من سحر وطلاسم .. وسأنقل فى هذا المقال قبساً من ترجمة عن المصادر العربية كما يذكرها فى كتابه المسمى « الأديان والوساطة الروحية عند المسلمين » مبتدئاً بالكلام عن النبى محمد ، ﷺ عندما سئل كيف كان ينزل عليه الوحى فقال : « كصلصلة الجرس » ثم أضاف يقول : « كان الملك يأتينى فى بعض الأحوال كصلصلة الجرس وهذه أشق حالاته علىّ ، ثم ينصرف عنى وقد حفظت عنه ما أوحى إلى . وفى أحوال أخرى كان يأتينى فى هيئة رجل يحدثنى فأحفظ عنه ما يقول » .

وتقول عائشة زوجة النبى ، ﷺ ، إذا نزل الوحى على النبى فى الليالى القارسة البرد تصبب العرق من جبينه .

فمثل هذا الوحى لا يمكن أن يكون مزعوماً -- ويترتب على ذلك أن الرسول كان وسيطاً قويًّا[٤] للغاية -- فكان ذا جلاء بصرى وسمعى فضلاً عن أنه كان ﷺ كثيراً ما يقع فى الغيبوبة . وليس أدل على ذلك من قوله تعالى فى سورة القيامة آية ١٦ ، ١٧ : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه) .

ويضيف ستيبلز : وعندما وصف الرسول الموت قال : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » . وهذا حق لا ريب فيه والدليل على ذلك انتشار هذا المعنى وتحققه فى حياتنا العادية . ولقد علق الإمام الغزالى (المتوفى سنة ١١١١ م) على هذا الحديث بقوله : « ربما كانت الحياة فى هذه الدنيا كالنوم بالنسبة للحياة الأخرى ، فإذا مات الإنسان تراءت له الأشياء على حقيقتها ، وعند ذلك يقال

---

(٤) رأى ماكدونالد .

له كما جاء فى سورة ق آية ٢٢ : (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) ، أى : فبصرك نفاذ يخترق الحجب » وهذا ما يتفق مع الروحية الحديثة ..

ثم يتحدث ستيلز عن الملك جبريل (الوحى) فيقول : ذكروا أن النبى محمدا ﷺ : رأى الملك جبريل مرتين فى صورته الحقيقية .. المرة الأولى .. حين نشر الملك جناحيه فملأ بهما الأفق من الشرق إلى الغرب .. والمرة الثانية .. فى ليلة الإسراء عند سدرة المنتهى وهى آخر ما وصل إليه المرسلون .. وفى غير هاتين المرتين كان النبى ، ﷺ ، يراه فى هيئة رجل .. وقد قيل إنه ليس فى مقدور البشر أن يروا الملائكة والشياطين فى صورهم الحقيقية إلا إذا أعطوا النبوة ، فإنهم حينذاك يرونهم على حقيقتهم ، وهذا ما نسميه بالجلاء البصرى . ومثال ذلك تنبؤ سيدة من قريش تدعى سودة بنت زهراء بميلاد الرسول فقد قالت عندما مرت أمامها بنات قريش : أن إحدى هذه البنات ستحمل رجلا ينذر البشر (تقصد النبى ﷺ) فلما مرت امامها آمنة بنت وهب قالت : ها هى ذى التى ستحمله) .

ويصف ابن خلدون المؤرخ العربى الوحى بأنه كان شديد التأثير على الرسول ﷺ لدرجة كانت تنعدم فيها إرادته فيقع فى الغيبوبة ويسمع لنومه شخير ثم لا يلبث أن يغمى عليه .. فى هذه اللحظة كانت تتم (مقابلة الرسول مع الروح الأمين) وهذا معناه أن الرسول كان يقع تحت تأثير الملك جبريل فإذا أفاق من غيبوبته استعاد كل ما قيل له مما يقطع أن حواس النبى ، ﷺ ، كانت معدة لتلقى العلم عن ربها كأن شخصاً يحدثها به ، وفى اللغة الروحية الحديثة نقول إنه كان صاحب جلاء بصرى وسمعى ، ويميز ابن خلدون بين الرسل أصحاب الكتب والنبيين الذين لم يبعثوا بكتب منزلة : أما الأولون فكانوا يرون الروح الأمين ويكلمونه ومن ثم فهم الروحانيون حقًّا .. أما الآخرون فكانوا يتلقون

الرسالات الروحية بالسمع وحده فهم أصحاب جلاء سمعى فقط .. أما الصوفيون فقد ذاعت بينهم حالات الغيبوبة ومن ذلك (أبو الخير الأقطع) الذى قيل إنه مرض بـ (غرغرينة) فى قدمه ورفض أن تبتر قدمه فأشار تلاميذه على الطبيب أن يبترها فى أثناء صلاته ، لأنه إذ ذاك يكون فى غير وعيه ، ومن ثم قطعت قدمه ولم يشعر هو بشىء .. مما يدل فى رأى (ستبلز) أنه كان فى الغيبوبة وهى حالة روحية كذلك ظهر الجلاء البصرى أيضاً على الولى أبو الحسن الخرقانى (المتوفى سنة ١٠٣٣م) فقد أخبر بجرح عدد معين فى مكان معين (وتبين بعدها صحة الواقعة) وعلى الرغم من صدق هذا التنبؤ فقد قتل ابنه ووضعت رأسه عند عتبة بيته دون أن يعرف عنها شيئاً .. فقد كشف بصره فى الأولى وأسدل الغطاء على بصره فى الثانية .

وفى المقال الثانى : يقول (ستيبلز) فى مجلة سايكك نيوز :

يروى المؤرخ الشهير ابن خلدون وقائع عن الأحلام ظنًّا منه أن الأحلام بطبيعتها كالوحى للرسل مع بعض الفروق بينهما .. ويعلل ذلك بأن الله خلق الإنسان بطريقة يمكن معها كشف الحجاب عن حواسه أثناء النوم فإذا استيقظ النائم من نومه عاد إليه علمه بالأشياء من عالم الحقيقة ذلك العالم الذى نستمد منه النور فى علومنا الحديثة . من أجل ذلك كان الرسول وأصحابه يفسرون الأحلام معتقدين فى حقيقة أمرها وفى أن الصادق منها هو جزء من النبوة .

وعن الرمزية فى الأحلام يستطرد قائلاً : ولما كانت لى أحلام تحققت عدة مرات وفى ظروف عديدة هامة فإنى أشعر بأحقية ما ذكر عنها ، فضلاً عن ذلك فقد رأى سيدنا محمد ، ﷺ ، أحلاماً رمزية كثيرة كأن لها أثرا كبيرا فى تفسير الأحلام من بعده ومن ذلك أن (اللبن) مثلاً كان رمزاً على الإسلام .. والحبل

رمزاً على القرآن .. لأن اللبن يغذى كما يغذى الإسلام الروح ، والحبل يجذبنا إلى النجاة كما يحملنا القرآن إلى بر الأمان .. وهناك روايات كثيرة عن أحلام صادقة يرويها العلامة ابن خلكان .. ونصر بن خسرو .. والأشعرى (زعيم دينى) .. إلخ .

ويقول الأستاذ ماكدونالد : أن كافة المسلمين فى العالم يعتقدون فى الأحلام ويحيل إلى (ستيبلز) أنهم لم يعتقدوا فيها إلا بعد أن تحقق جانب كبير منها . أما عنى فقد أمرت أن أسترشد بهذه الأشياء فى تفسير أحلامى ، لأنه خلال النوم يستطيع أصدقاؤنا غير المتجسدين أن يتصلوا بنا على هذا النمط .

وفى المقال الثالث : يتحدث الروحى (توى وارنر ستيبلز) إلى مجلة سايكك نيوز عن كرامات الأولياء ، فيقول :

إن مراتب الكرامات عند الأولياء من المسلمين كما رواها دكتور نيكلسون هى السير على الماء والطيران فى الهواء (بمصاحبة الغير أو بدونه) وإنزال المطر من السماء ، والظهور فى أماكن مختلفة فى وقت واحد ، ومعالجة المرض بالنفخ ، وإحياء الموتى ، والتنبؤ بالأمور المستقبلة ، وقراءة الأفكار ، وتحريك الأشياء دون وسيلة مادية ، وشل حركة الأشرار بكلمة أو بإشارة ، والتحدث مع الحيوانات أو النباتات ، أو جعل التراب ذهباً أو أحجاراً ثمينة ، وإحضار الطعام أو الشراب .. إلخ . وفى الواقع أن هناك تماثلا عجيبا بين الأعمال السحرية والظواهر الروحية الحديثة ، وإنى لأقرر بأن الطيران كرفع الأجسام أو نقلها دون وسيلة مادية شبيهة بالظواهر التى كان يحدثها الوسيط (هوم) .. و (سان فرنسيس) و (سان فيليب) الإنجيليان وغيرهم مِمَّنْ وهبوا الوساطة الروحية .

والعلاج بالنفخ نوع من العلاج المغناطيسى وهو علاج قديم يرجع فى اعتقاد (ستيبلز) إلى قدماء المصريين كما ذكر فى (كتاب الموتى) ولا يزال المعالجون الروحانيون يستخدمونه إلى اليوم .. فى حين أن التنبؤ وقراءة الأفكار من صيغ الاستشفاف والجلاء البصرى .. أما تحريك الأجسام بغير وسيلة مادية فشائع فى حجرات تحضير الأرواح .. ومن الثابت أن السيد المسيح عالج فى حياته مثل هذه الحالات . ومن الضرورى أن أتباعه قادرون على اتباع طريقته فى علاج المرضى اليوم .. أما المسلمون فإنهم فى تنميتهم للوساطة بالروحية يكلون الوسيط لعناية روح مرشد طيب ، هو روح ولى توفى من زمن بعيد أو إمام من أئمة الدين ، وعندئذ يكتسب الوسيط كل قوى الولى الروحية ، أو هو كما نقول يكون خاضعاً لهيمنة هذا الولى .. وقد ترقى قوة الإبصار الباطنية عن طريق الحواس الروحية عند المتعبد بحيث يصبح ذا جلاء بصرى فيرى المناظر بعينيه سواء أكانتا مغلقتين أم مفتوحتين .. ويصف (توكل بيج) كيف مرت السيدة فاطمة بمثل هذه الحالة التى قالت فيها :

« إنى وصلت إلى حالة روحية كنت معها لا أنام ولا أصحو حتى تتمثل أمامى روح الرسول ، ﷺ ، وأصحابه والمؤمنون المتقدمون وسائر الأولياء » ..

ويحدثنا الزاهد الرحّالة أبو القاسم عن الأمارات التى كانت تظهر له إذا عطش خلال رحلاته فى الجهات المقفرة فيقول إنه عندما سأل ربه أن يبعث إليه رسولاً يحمل ماء فى إناء أخضر كى يعلم أنه من عنده تعالى لا من عند الشيطان رزقه ربه إياه .. وأنه بعد أن استمر فى صلاته ثلاث ليال وثلاثة أيام كان يرى أصحابه وهم فى جهات شتى من العالم .. وهذه مسألة روحية بحتة .

وفى المقال الرابع لستيبلز يقول :

يبدو أن المسلمين تسودهم فكرة أن الروح تستطيع أن تعرف المستقبل كله ، بيد أن اللوح المحفوظ المتضمن أحداث هذا المستقبل والمخبأ فى السموات العلا مستور عن العقول الواعية للبشر ، وعلى الرغم من أن المؤلفين المسلمين يقولون : إن هذا الحجاب يرفع أحياناً عن الإنسان فى أثناء النوم فتنكشف للروح حقائق المستقبل ، وقد تنكشف فى أثناء اليقظة إذا استغرق الإنسان فى العبادة فإن كلا النوعين من الجلاء البصرى (يحدث بواسطة ملاك يلهم القلب المعرفة) وهذا ما يتفق وآراؤنا عن الأرواح المرشدة الخاصة أو الأرواح الرقباء التى تؤثر فى الوسطاء أو تتكلم خلالهم وهم فى الغيبوبة أو بالصوت المباشر أو بالجلاء السمعى .

وتنطبق فكرة اللوح المحفوظ على السجلات الروحية لبعض الذين يتمتعون بالجلاء البصرى فيمكنهم القراءة إلى درجة كبيرة أو صغيرة ، وكثيراً ما نقرأ فى الكتاب المقدس للعهد الجديد عن هذه المدونات لحياة وأفعال رجل مما يدل على أن الفكرة كانت واسعة الانتشار .. وقد جاء فى القرآن قوله تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً) مما ينهض دليلاً على فكرة الجلاء السمعى الشائعة بين المسلمين فقد قيل أن الشعرانى (ولى الله) كان ذا جلاء سمعى فكثيراً ما كان يسمع أصواتاً عند استيقاظه تنصحه أو تحذره ، كما كانت تنكشف له الحقائق فى الأحلام .. ويستطرد ستيبلز فيقول :

ويقول الغزالى : إن طريق الصوفية هى خير الطرق للوصول إلى الله ، فمنذ البداية تنكشف للمتصوف حجب الغيب ، وكشف روحه إلى درجة يستطيع

معها أن « يرى فى اليقظة الملائكة وأرواح النبيين ويسمع أصواتهم ويتلقى المعرفة عنهم » .

ولما كانت هذه المميزات الغيبية والروحانية تأتى إليه كنتيجة للصلاة والاتجاه الصادق إلى الله فقد وجب أن تكون الوسيلة من أرقى طراز حتى يمكن الاعتماد عليها .. ولقد ترك لنا العلامة المسلم ابن خلدون تفسيراً يتفق تماماً وما يقوله علماء اليوم عن مختلف الصور للتنبؤ بالمستقبل كالنظر فى البللورة والرؤية بقلوب وأكباد الحيوانات وكؤوس الماء أو الحصى والرمل .. إلخ . إذ يقول بحق إن الرؤية إنما تتركز فى شىء ثم تتجسد فى شكل منتظم (فى البللورة أو المرآة) حتى تصبح واضحة للعيان بحيث يستطيع أن يصفها وهو يقول إنهم ينظرون فى سطح المرآة حتى يختفى ويظهر فيما بينهم وبين سطح المرآة ستارة كأنها سحابة تظهر عليها المرئيات فتكون هذه هى الأشياء التى يتصورونها وبهذا يمكنهم وصف ما يراد معرفته نفياً أو إثباتاً وهذا الإدراك يتعلق بالروح لا بالبصر.. ويستطرد ستبلز فى كلام ابن خلدون عن تسخير الجان والحسد فيقول : إن تسخير الجان مقدرة روحية لا تعتمد على حاسة البصر ، وإنما يستطيع الرائى بفضل التلاوات أن يهيمن على الحواس المادية وحدها بواسطة بخور أو بواسطة (تعاويذ) كطريق لإعداد الحواس لتقبل ما تراه .

ويعتقد ابن خلدون فى مس الجان ويفسره وخاصة فى حالات الجنون ، وهذا كله فى القرن الرابع عشر. ومع ذلك ينكر الكثيرون هذه الحقائق ويريدون التثبت منها ، وابن خلدون مؤرخ معروف ولد فى تونس وكان فى أوقات مختلفة سياسيًّا وعالماً ومحامياً وسفيراً لدى الملك بطرس ملك أشبيلية ولدى تيمور فى دمشق ، وقد مات ابن خلدون فى القاهرة (١٤٠٦م) وهو قاضى القضاة تاركاً وراءه مؤلفه (تاريخ العالم) المعروف باسم (مقدمة ابن خلدون)

ومن ثم لا يمكن أن يتهم بأنه كان سهل الانقياد أو الانخداع أو ضعيف العقلية .. وكان يعتقد أن فى استعمال الطلاسم اتحاد الروح بالشىء المادى فى فكره اتحاداً تتجلّى فيه الطبائع السماوية العليا والطبائع الدنيوية السفلى .

كذلك كان ابن خلدون يعتقد فى قوة العين الحاسدة ظنًّا منه أنها تحسد من تلقاء نفسها .. وأحسن مثال قدمه ابن خلدون عن (التليباثى) و (الجلاء البصرى) هو ما ذكره فى بيان عن ثانى الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب إذ يقول أن عمر كان يخطب فى المدينة وفجأة وقف ونادى : (يا سارية .. الجبل .. الجبل) وكان سارية وقتذاك قائد المسلمين فى العراق وكان المشركون يهجمون عليه فى تلك الساعة – غير أن صوت عمر وصل إليه من المدينة ونبهه إلى الجبل .. ولقد علمنا كثيراً من الحالات المشابهة التى وقعت أيام الصحابة وأتباع المسيح مما يدل على أن النبى والمسيح قد وقع اختيارهما على من تتجلى فيهم هذه المقدرة الروحية من أتباعهما .. وإن أمثال هؤلاء إنما انساقوا بكليتهم إلى مبعوثى هاتين الديانتين العظيمتين بما لديهم من الهبات الروحية والنفسية ، ومما لا شك فيه أن ابن خلدون كان يعتقد فى السحر تبعاً لما سجله القرآن عن أحواله كحالة الملكين هاروت وماروت فى بابل وهما اللذان علما الإنسان هذا الفن الملعون .

وقد سحر لمحمد ﷺ ، نفسه بدليل قول الله فى القرآن : (ومن شر النفاثات فى العقد) وتقص زوجته عائشة كيف حلت هذه العقد السحرية من تلقاء نفسها بمجرد قراءة سورة من القرآن .. ويحدثنا ابن خلدون عن وصف ساحر مصرى تلا على تماثيل من الشمع تمثل الضحايا فقال : (تفل الساحر مراراً على التمثال وهو ممسك بحبل عقده حول التمثال مستعيناً فى ذلك بنفر من الجن وعند ذلك انطلقت من التمثال روح شريرة وانقضت على غريمه) .. وقد

هب واضعو الإنجيل يحرمون هذه الأعمال بين الناس .. ويذهب ابن خلدون فى تفسيره لأنواع السحر إلى ما يتفق ورأى المحدثين هذه الأيام فيقول : (إن الروح تؤثر فى الجسم المادى كما تتولد الحرارة بالضحك أو الخوف) .

وإلى هنا انتهت سلسلة مقالات ستبلز التى رأينا نشرها كنمط من أنماط التفكير الروحى فى عصرنا وسوف يأتى تعليقنا على ما جاء بهذه المقالات فى حينه .

مصر والاهتمام بالنشاط الروحى

اهتم عدد من العلماء ومن بينهم أكثر من أستاذ جامعى وتألفت منهم جمعية علم الروح فى مصر ، وقد تطوع الأستاذ أحمد أبو الخير سكرتير عام الجمعية لدعوة عدد من الروحانيين المتخصصين للحضور إلى مصر من الخارج ، ليدللوا ببراهينهم على صدق هذه المسائل وقامت الجمعية بالدعوة إلى أن علم الروح لا يرتكز على خرافة أو دجل أو بخور أو تلاوة عبارات مخصوصة ، وإنما عماده الأول هو صفاء النفس والسريرة . وقد صدر للأستاذ أحمد فهمى أبو الخير سبعة كتب فى هذا الموضوع تناولت العديد من جوانبه كذلك فإن الأستاذ / السيد كمال الشورى يقول فى كتابه (من عالم الفكر والروح) :

يتوهم البعض خطأ أن الروحية نوع من السحر أو الشعوذة ، فى حين أن الروحية أمر يختلف كل الاختلاف فهى تستلزم لفهم بعض دقائقها الإلمام بعلمى الطبيعة والكيمياء ، مما يقطع بأنها ليست خرافات أو مصادفات .. وتقول المجلات الروحية أن علماء الغرب استطاعوا أن يزنوا الروح ويصوروها ويدفعوها إلى الكلام بأصواتها المباشرة المعروفة ، كما استطاعوا أن يجسدوها ويأخذوا لها

البصمات التى تضاهى بصمات الشخص قبل انتقاله إلى عالم الروح[٥] .

كذلك فإن الدكتور رءوف عبيد (أستاذ جامعى) قد بذل جهداً كبيراً يقع فى أكثر من ١٩٠٠ صفحة فى كتابه (الإنسان روح لا جسد) نقل خلالها القارئ إلى عالم آخر مع الأرواح التى ذكر العديد من أنواعها ، وقال إن الموت فى عرف علم الروح الحديث ليس نهاية الحياة ، بل مجرد انتقال من حال إلى حال .. من عبودية الجسد إلى حالة انطلاق الروح فيوم الميلاد يوم سجن للروح ويوم الموت يوم إطلاقها فهو خير من يوم الولادة والمحتضر كالنائم يحلم حلماً جميلاً يعقبه رد فعل عميق من الإحساس بنشوة الانطلاق إلى عالم الخلود والحرية .. وعالم الروح هو العالم الحقيقى .. أما عالم المادة أو الحياة فهو مظهرى من صنع الحواس ، ومع ذلك فعالم الروح لا يرى ولا يسمع ولا يلمس ، لأنه أثير يهتز -- أى يتردد -- بسرعة تجاوز سرعة الضوء والأثير وسط غير مادى تغلغل فى كل شيء ، وهو صلب جدًّا ومرن جدًّا فى نفس الوقت ولذلك فهو يتخلل عالمنا ويحيط به من كل الجهات ، ولكن الأحياء لا يشعرون به لوقوعه فى هذه المنطقة العالية من الاهتزاز ، كمروحة الطائرة تراها وهى ساكنة فإذا بدأت فى الدوران غابت عن ناظريك .. فلا تعود تراها من شدة الدوران ، ويستطرد الدكتور رءوف عبيد فى مجلده الضخم يقول : وفى عالم الروح لا يعيش الجميع سواء، فلكل روح حسب عملها مكان من سبعة، يطلق عليها علم الروح مستويات عدة : هى مستوى الجحيم أو الحياة البائسة -- وهى مثوى الأرواح الشريرة وذوى الآثام ومستوى الرغبات وهو يعد مستوى منحطا -- ومستوى السمو أو الأرض السعيدة -- تذهب إليه الأرواح الطيبة الراقية من سكان الأرض -- ومستوى العقل -- ومستوى التجريد ومستوى تقابل الجنسين -- وفيه

(٥) انظر : الروح تحت مجهر الطب بالصفحات التالية للدكتور مصطفى الديوانى .

تختفى الخصائص المميزة لكل من الجنسين – ثم السموات العليا غير المحدودة التى تمثل ذروة المجد والنعيم .

ويقول الدكتور / رءوف عبيد : إن عالم الروح لا يختلف كثيراً عن عالمنا المادى فليس كل الأرواح يعرف كل شىء ، ومهما بلغت الروح من الرقى والنضج فهى لم تطلع على شىء يذكر من خفايا الكون وأسراره ، وكلما ازداد رقى الروح ارتفع مكانها من المستويات السبعة وصار الاتصال بها أصعب منالاً ، فضلا عن أن بعضها يفضّل ألا يفصح عما يعرفه وأساليب الحياة هناك متنوعة بالنسبة لتعدد مستويات الوجود ، وأكثر المعلومات مستمدة من المستوى الثالث الذى يعد بمثابة مهجر للناس بعد الموت .

والمجال هنا لا يتسع للمضىّ بأكثر من هذا القدر مع كتاب الدكتور رءوف عبيد .

الروح تحت مجهر الطب[٦]

وفى مقال طويل للدكتور / مصطفى الديوانى (الطبيب) والأستاذ الجامعى يقول :

إن للروحيين منطقاً لطيفاً يتلخص فى أن هناك جسداً أثيريًّا يفارق الجسد عند الوفاة ، ويتكون من مادة اسمها الاكتوبلازم توصل العلماء منهم إلى تحليلها ميكرسكوبيًّا ، وإلى تصويرها بالأشعة تحت الحمراء فوتوغرافيًّا وسينمائيًّا .. ويبلغ وزنها بضع عشرات من الجرامات وهذه المادة هى التى تنبثق من جسوم الوسطاء لتصول وتجول مخترقة الحجب ومتعدية الأميال فى ثوان دقيقة ، فتصل إلى

(٦) مجلة الهلال العدد ١١ نوفمبر سنة ١٩٧١ .

أماكن قاصية وهم يفسرون إسراء النبي ، ﷺ ، بأنه طرح روحي لا جسدي ويصفون محمداً ﷺ ، بأنه من أعظم الروحيين الذين وجدوا على ظهر البسيطة .

ويعتقدون أن الأنبياء والرسل يتمتعون بالجلاء البصري والجلاء السمعي ، ويفسرون نزول الوحي على الرسل بأنه يتم حين تعتريهم غيبوبة تغادر الروح خلالها الجسد ، مع بقائها متصلة به بحبل أثيري في حين تهيمن روح أخرى على الرسول وتنطقه بالإعجاز المبين ، كذلك يرون أن النوم طرح مؤقت للروح ، وما الأحلام إلا سياحاتها فترى الأحياء والأموات على حد سواء .. أما الموت فإنه طرح روحي دائم ومتى انقطع الحبل الأثيري فلا أمل في عودة الميت إلى الحياة .. ويقولون إن الحبل الأثيري الذي يفرق بين النوم واليقظة وبين الموت والحياة ، يبدأ من مكان حيوي في المخ المادي حيث تتجمع جميع المراكز الحيوية التي تسيطر على القلب والتنفس ، وينتهي في نفس المكان من الروح الأثيرية ، فإذا كان الشخص مستلقياً على ظهره ووجهه إلى أعلى طرحت الروح ووجهها إلى أعلى أيضاً ، وبرز الحبل الأثيري من الجبهة لينتهي في مؤخرة الرأس من الجسم الأثيري ، وتكون الروح في بداية الأمر موازية في اتجاهها للجسم المادي ثم تتخذ بالتدريج وضعاً عمودياً ، قبل أن تبدأ سياحتها في عالم الروح وعند الاستيقاظ نتيجة ضجة أو انفعال شديدين تعود ثانية إلى وضعها الأفقي ، ثم تقترب من الجسم على حين يقصر حبل الاتصال حتى تحل الروح في الجسد مرة ثانية . ويستطرد الدكتور مصطفى الديواني :

ويقول العلامة الروحي (مولدن) : الويل لابن آدم إذا انقطع الحبل الأثيري فإن معنى هذا انتهاء الحياة . ويزعم مولدن وكاريختون في كتابهما عن الطرح الروحي أن معجزات يسوع عن إحياء الموتى لا يمكن تفسيرها إلا إذا

افترضنا أن الذين بعثوا إلى الحياة لم يكونوا موتى ، بل كانوا فى حالة غيبوبة شديدة وضربا لذلك مثلاً بمعجزة المسيح عليه السلام فى إحياء صديقه أليعازر .
فإن يسوع بوصفه وسيطاً روحيًّا من الدرجة الأولى يرى غير المنظور بجلاء بصرى أدرك أن صديقه أليعازر لم يكن ميتاً ، فقال عليه السلام : (إن أليعازر لم يمت وسأذهب إليه وأحاول إيقاظه) ثم ذهب إلى المقبرة وأمر بإزالة الحجارة قائلا : (قم يا أليعازر) فهبّ الأخير من نومه وتقدم إلى يسوع .

ونفس الشيء حدث عندما نفخ الحياة فى ابنة الحاكم الميتة فنظر إلى من حولها وقال : إن الفتاة ليست ميتة : لماذا تبكون إذن ؟ وأمسك بيد الفتاة وصاح فيها قائلاً : قومى يا فتاة قومى .. فقامت الفتاة لتوها ومشت إلى خارج الغرفة .

ولكن القرآن الكريم نص على هذه المعجزة التى انفرد بها يسوع ففى الآية (وتحيي الموتى بإذنى) وفى آية أخرى : (وأحيي الموتى بإذن الله) .

ويعلق الدكتور مصطفى الديوانى قائلاً : وما دام النوم هو تجربة الموت كل يوم فلماذا نخاف الموت ؟ ألا يقول تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) لكننا نحن الأطباء لا نمل من التعمق فى هذه المشكلة التى يبدو تفسيرها بالحبل الأثيرى سهلاً ميسوراً فما أسهل أن يطول ويقصر فتحدث الأحلام أو أن ينقطع فتنتهى الحياة إلى غير رجعة .. إننا بحكم مهنتنا كثيرا ما نلمس بأحاسيسنا كيف تنتهى الحياة .. وقد تلتمسون لنا العذر إذا قسمنا الموت إلى مستويات فنزعم مثلاً أن الموت نوعان أو درجتان :

أولاهما : الموت الذى يحدث على مستوى الخلية وهو الموت الكلى .

وثانيهما : الموت الجزئى حين تتوقف الأجهزة الرئيسية عن العمل مثل

الدورة الدموية والجهاز التنفسى ومراكز الاستقبال والإرسال والتنظيم من الجهاز العصبى -- وقد تنقضى ساعات أو أيام بين الموت الكلى والجزئى وقد يطول الاحتضار أو يقصر.. ولكن هناك سؤال مطروح وهو ما مصير الروح بعد مغادرتها الجسد مباشرة؟ يقول بعض الروحيين إن رسالات روحية وصلتهم تقول إن روح الإنسان لا تفارق جسده تماماً إلا بعد الموت ببضعة أيام ، وهم لذلك يصممون على ألا تحرق الجثة أو تدفن إلا بعد الموت بأيام .. وهناك مدرسة كبيرة تزعم أن الروح تبذل مجهودا كبيراً فى أثناء مفارقتها للجسد حتى إذا ما تم لها ذلك مرت فى دور ارتجاج ، يدفع بها غير شاعرة إلى الآفاق العليا البعيدة جدًّا من الاتصال الروحى بأهل الأرض ، وهى تائهة تترنح حتى يتاح لها استعادة اتزانها وتعود مرة ثانية إلى الاتصال بمن تريدهم ويريدونها من أهل الأرض ، سواء الوسطاء الروحيين أو الأحباب فى عالم الأحلام . وقد يدل على صدق هذه النظرية أنك قلما ترى فى الحلم عزيزاً قضى نحبه إلا بعد أن تمر على انتقاله فترة تصل إلى الأسابيع عدًّا ..

وهكذا نجد أنفسنا واقفين حيارى عند مفترق طريق يكاد يكون مسدوداً ، وتكاد تضيع ملامحه نتيجة للمفارقات بين المدرستين الروحية والطبية ، بل بين الآراء المختلفة فى المدرسة الواحدة ، وكثيراً ما نسائل أنفسنا ما الذى يحدد العمر؟ ولماذا يموت البعض فى عمر الزهور ويعيش البعض الآخر إلى أرذل العمر؟ ومع يقيننا الثابت فى الله وبأن لكل أجل كتابا .. يبقى فى نفوسنا وأذهاننا ذلك الحلم الجميل بالعالم الآخر الباقى .. قانعين ببضع جرامات من (الاكتوبلازم) يتكون منها جسدنا الأثيرى (الروح) وبحبل أثيرى ينقطع لتصعد الروح إلى عالم لا تسمع فيه لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً .. تنتظر يوم البعث والنشور والحساب العسير .. ولسوف يمضى الباحثون فى سرد ما يمتع

النفس التواقة الشواقة ويغرى بغزو هذا الميدان الشائك الذى ما زلنا نضل فى أرجائه الفسيحة .. وسوف يوالون الطرق عليه حتى ينفتح وينجلى السر الأكبر أو يعودوا مدحورين تعزيهم الآية الكريمة : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

ونحن نقول (٧)

بعد ما طرحنا من الأقوال استيفاء لوجهات الاجتهاد والنظر ، نقول ما قلناه بدءاً من أن الإسلام جاءنا بالهدى والرشاد .. وأن الكاتب لا يمكنه أن يعرض لأمور كثيرة تتصل بالروح وتشغل الناس ، ولكنا هنا نحذر من بعض الشبهات الخطيرة التى وردت فى أقوال البعض متعلقة بهذه القضية الكبرى ، ومن ذلك ما يقال بصفة خاصة عن تحضير الأرواح ، أى استدعائها بمعرفة خبير أو وسيط أو ما يقال من إن هذه الممارسة تستند إلى أصول علمية ، وسنكتفى هنا بالتنبيه إلى ما فى هذه الأقوال من فساد وخطر على عقول الناس الذين لا تسمح لهم مشاغل حياتهم وظروفهم الخاصة بدراسة الأمراض الوافدة على البيئة الإسلامية .. ونحن نستند فيما تدلى به هنا إلى قدر مناسب من المشاهدة والدراسة والمناقشة الهادئة مع بعض المشتغلين بهذا الترف المستورد -- هذا على أحسن الفروض -- ومع بعض المشتغلين به أيضاً وهم لا يعلمون أنهم يروجون لعامل خطير من عوامل الهدم الموجه إلى أسس العقيدة الصحيحة ، ومما يؤسف له حقًّا أن بعض هذه الأقوال يجد قبولاً عند فريق من الناس ، والأمل كبير فى أن تفيق الأمة الإسلامية ، وأن تتنبه لما يراد بها فتتصرف عن مثل هذه الأقوال الصادرة عن

---

(٧) المؤلفان .

بساطة وحسن نية ، وتلك التى لا تصدر إلا عن دراسة طويلة المدى .. وتخطيط هادف إلى تدمير الأمة الإسلامية وإضعاف العقيدة المتغلغلة فى وجدانها ..

وما الكلام عن الروح بالأسلوب الغربى المستحدث إلا أداة من أدوات التدمير كالتسليح الخلق والماسونية مثلاً .. وفى الحق أن أمثال هذه الأدوات المستخفية أشد خطراً من الأدوات السافرة كالصهيونية والخصومة التقليدية مع الإسلام منذ أشرقت الأرض بنوره فى ختام الرسالات .

ولئن كان مجال هذا الكتاب لا يتسع لتوفية مثل هذه الموضوعات حقها فلا أقل من إثارة هذا العدد اليسير من الأمور التى يعلمها كل متتبع لبدعة تحضير الأرواح كما يزعمون فنقول .

أولا : حضور الروح بناء على دعوة الخبير المتخصص فى هذا الفن لكى تحل فى الوسيط المسترخى أمامه (كما يزعمون) يقتضى التمهيد بعزف قطعة موسيقية (هكذا فى غير دار الإسلام) . أما فى بلادنا فيكون التمهيد بالموسيقى أو بترتيل آيات القرآن الكريم والأثر فى الحالين واحد هكذا عند الخبراء المسلمين المعاصرين سامحهم الله .. فتأمل هذه التسوية بين الذكر الحكيم وبين موسيقاهم .

ثانيا : يقول الخبراء إن القرآن خلا من النص القطعى الدلالة بشأن النفس والروح ولذلك بقى باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه ومنه يدخلون .. وهذه فرية كبرى أو جهل بكتاب الله .. فقد جهلوا أن للاجتهاد ضمانات ، وعلى المجتهد شروط، كذا فقد جهلوا أن القرآن الكريم قطع فى ثبات وفى إبانة تامة، فميز بين الروح والنفس، وأفرد الروح وجمع الأنفس، ودعا إلى تدبر هذا كله بنصوص صريحة أشرنا إلى بعضها فى عدد من صفحات هذا الكتاب.

ثالثاً : نعلم من القرآن الكريم أن الله جل وعلا إذا أمسك فقد أمسك .. كما

فى قوله تعالى : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) . أفلا يريد الخبراء أن يتدبروا آيات النفس فى ضوء هذا النص إذ يقول الله تعالى عن الأنفس : (فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) . أفلا يريد الخبراء من المسلمين أن يتدبروا القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها ؟

رابعاً : هذه البدعة التى يقال لها تحضير الأرواح نشأت فى الغرب فى أواخر القرن التاسع عشر ، فى وقت تضافرت فيه الجهود على حشد كل الطاقات العلمية والفنية ، وتوجيهها إلى أمة الإسلام لتوهين العقيدة وصرف المسلمين عن تراثهم .. وقد نجحت بعض جهودهم ، فكان ما نراه فى زماننا من انصراف المسلمين عن دينهم ..

خامساً : فى تحضير الأرواح – كما تجرى تجاربه – خلط بين دراسات جادة تعتمد على تسلط إحدى النفوس على غيرها – والنفوس هنا هى ما يخالط البدن الحى – وصور هذا التسلط كثيرة وآثارها ملموسة : كالتنويم والتداعى .. وفى دراسة علم النفس الجنائى أمثلة وقضايا فما لهذه الظاهرات والروح ؟؟

سادساً : وفى تحضير الأرواح خلط بين وهم يقال له استدعاء أرواح الموتى ، وبين اللهو الذى يصدر عن الجن .. ومن الكتّاب فى هذا الزمن من ينكر الجن ويتصدى لتأويل ما ورد بشأنه فى كتاب الله .. ومن آثار هذا الخلط أن رأينا تجارب مستحدثة كتجربة السلة ، ويقال عنها إن السلة قد اشتملت روحاً ألا ساء ما يزرون .. أفلا يتدبرون القرآن وهو يقول : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياءللذين لا يؤمنون) .

سابعاً : لقد كان لسيدنا محمد ﷺ ، خصائص لم تكن لنبى غيره .. وفى كل من الإسراء والمعراج آيات كبرى .. وفى تلقيه للوحى فى سبع صور

مشهورة آيات أخر – وفى سورتى الإسراء والنجم نصوص واضحة .. كقوله تعالى : (فأوحى إلى عبده ما أوحى ..) . فكان اتصاله ، ﷺ ، بالملأ الأعلى غير مسبوق[8] ..

ولم يجرؤ كاتب أو راوية على أن ينسب إلى الرسول ﷺ ، أنه زعم القدرة على استدعاء روح أو إحضارها .. وفرق كبير بين خطابه للشهداء والقتلى فى أعقاب بعض الغزوات وبين دعوى تحضير الروح فى أرضنا هذه[9] ..

ومعلوم من التقدم التكنولوجى فى زمننا هذا أن الأصوات والرسائل تسمع على مسافات شاسعة وموغلة فى الفضاء ، فهل يكون عجباً أن يصل صوت المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى أنفس فارقت الأجساد وانطلقت فى ملك الله .. لا عجب ولا غرابة فهو قد خاطبها ولم يستحضر روحها .. إنما العجب والغرابة أن يزعم الخبراء أن لهم خصائص لم تكن لسيد سائر البشر بفضل عزف الموسيقى وشهادة اللوردات .. حتى إذا جاءت التجربة وجدت غموضاً وتعمية وجدلاً عقيماً .. وخرج الناقد الجاد بغير نتيجة إلا بإمعان الخبراء فى عنادهم وحيرة الشباب من أمر هذه الظاهرة .

---

(٨) قد يتداعى إلى ذهن القارئ لهذه السطور الكثير والكثير من الكرامات والمعجزات .. وهى أمر آخر فالكرامة كما ذكرنا أمر خارق للعادة يجريه الله تعالى على يد عبد صالح ولا يقترن بدعوى النبوة ولا هو مقدمة لها .. وقد تكون حال حياة الولى أو بعد وفاته .. وفى القرآن كرامات ذكرت فى (سورة النمل ، سورة آل عمران – سورة الكهف) على سبيل المثال .. أما المعجزات فشىء لا يخالف العقل ، ولكنه يخالف المألوف والمتواتر فى المحسوس وقد أشار القرآن الكريم إلى الخوارق من باب الإعجاز أو من باب السحر ثم أوضح لنا أن السبب الذى ترد إليه كل الأسباب هو إرادة الله وإذنه : (أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله) وكل معجزات السيد المسيح ذكرت فى القرآن صريحة واضحة أنها إنما تمت بإذن الله .. إذ ليس المسيح بإله وإنما مثله كمثل آدم » (المؤلفان) .

(٩) سبق التفرقة بين الكرامات والمعجزات فى الفصل المنقول من مقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٩ من هذا الكتاب) .

نسأل الله أن يعلمنا من علمه وأن يجعل القرآن نوراً لأعيننا وأن يعصمنا بسنة الرسول الأعظم من الزيغ والزلل وأن يجعلنا من السالكين درب السلف الصالحين .

الباب السابع

هذه المسائل... والروح

الروح القدس – المعجزات والكرامات – الإسراء والمعراج – حقيقة النبوة – الرؤيا رياضة المتصوفة – بهاليل المريدين – السحر – الكهانة – العرافون – المنجمون – حساب الحروف وعلم اليازرجة – الحسد – التنويم – العلاج النفسى بالإيحاء والتنويم.

المراجـــع

– مقدمة ابن خلدون .

– صور من حياة الرسول (أمين دويدار)

– عالم الروح (مجلة الروح – حسن عبد الوهاب)

– النفس (دكتور على كمال) ط ١ بيروت ١٩٦٧ .

– منهج التربية الإسلامية – محمد قطب

الروح القدس (الوحى)

اعلم أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصاً فضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته ، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده يعرفونهم بمصالحهم ويحرضونهم على هدايتهم ويأخذون بحجزاتهم عن النار ويدلونهم على طريق النجاة ، وكان فيما يلقيه إليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق وأخبار الكائنات المغيبة عن البشر التى لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم ، ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياهم قال ، ﷺ ، ألا وإنى لا أعلم إلا ما علمنى الله . واعلم أن خبرهم فى ذلك من خاصيته وضرورته الصدق لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة ، وعلامة هذا الصنف من البشر أن توجد لهم فى حال الوحى غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط ، كأنها غشى أو إغماء فى رأى العين وليست منهما فى شىء ، وإنما هى فى الحقيقة استغراق فى لقاء الملك الروحانى بإدراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية ، ثم يتنزل إلى المدارك البشرية إما بسماع دوى من الكلام فيتفهمه أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما حمله من عند الله ، ثم تتخلى تلك الحال وقد وعى ما ألقى إليه قال ، ﷺ ، وقد سئل عن الوحى : أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول ، ويدركنى فى أثناء ذلك من الشدة والغط ما لا يعبّر عنه .. ففى الحديث كان مما يعالج من التنزيل شدة . وقالت عائشة كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . وقال تعالى (إنا سنلقى عليك قولاً

ثقيلاً) ولأجل هذه الحالة فى تنزل الوحى كان المشركون يرمون النبى بالجنون ويقولون له رئى أو تابع من الجن ، وإنما لبس عليهم بما يشاهدون من ظاهر تلك الأحوال : (ومن يضلل الله فما له من هاد) . ومن علاماتهم أيضاً أنه يوجد لهم قبل الوحى خلق الخير والزكاة ومجانبة المذمومات والرجس أجمع وهذا هو معنى العصمة ، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجبلته ، وفى الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها فى إزاره فانكشف فسقط مغشيًّا عليه حتى استتر بإزاره ، ودعى إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئاً من شأنهم ، بل نزهه الله عن ذلك كله حتى أنه بجبلته يتنزه عن المطعومات المستكرهة فقد كان ، ﷺ ، لا يقرب البصل والثوم فقيل له فى ذلك فقال إنى أناجى من لا تناجون .

المعجزات والكرامات

ومن علاماتهم أيضاً وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم ، وهى أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة ، وليست من جنس مقدور العباد وإنما تقع فى غير محل قدرتهم وللناس فى كيفية وقوعها ودلالتها على تصديق الأنبياء خلاف ، فالمتكلمون بناء على القول بالفاعل المختار قائلون بأنها واقعة بقدرة الله لا بفعل النبى وإن كانت أفعال العباد عند المعتزلة صادرة عنهم ، إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم ، وليس للنبى فيها عند سائر المتكلمين إلا التحدى بها بإذن الله ، وهو أن يستدل بها النبى ، ﷺ ، قبل وقوعها على صدقه فى مدعاه ، فإذا وقعت تنزلت منزلة القول الصريح من الله بأنه صادق وتكون دلالتها حينئذ على الصدق قطعية . فالمعجزة الدالة بمجموع الخارج والتحدى ، ولذلك كان التحدى جزءاً منها (وعبارة المتكلمين) صفة نفسها ، وهو أحد ، لأنه معنى الذاتى عندهم والتحدى هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر . إذ لا حاجة فيهما إلى التصديق ، فلا وجود للتحدى إلا أن وجد اتفاقاً وإن وقع التحدى فى الكرامة عند من يجيزها ، وكانت لها دلالة فإنما هى على الولاية وهى غير النبوة ، ومن هنا منع الأستاذ أبو إسحاق وغيره وقوع الخوارق كرامة فراراً من الالتباس بالنبوة عند التحدى بالولاية ، وقد أريناك المغايرة بينهما وأنه يتحدى بغير ما يتحدى به النبى ، فلا لبس على أن النقل عن الأستاذ فى ذلك ليس صريحاً ، وربما حمل على إنكار أن تقع خوارق الأنبياء لهم بناء على اختصاص كل من الفريقين بخوارق ، وأما المعتزلة فالمانع من وقوع الكرامة عندهم أن

الخوارق ليست من أفعال العباد ، وأفعالهم معتادة فلا فرق ، وأما وقوعها على يد الكاذب تلبيسا فهو محال أما عند الأشعرية فلأن صفة نفس المعجزة التصديق والهداية ، فلو وقعت بخلاف ذلك انقلب الدليل شبهة والهداية ضلالة والتصديق كذباً ، واستحالت الحقائق وانقلبت صفات النفس وما يلزم من فرض وقوعه المحال لا يكون ممكناً . وأما عند المعتزلة فلأن وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح فلا يقع من الله . وأمّا الحكماء فالخارق عندهم من فعل النبي ، ولو كان فى غير محل القدرة بناء على مذهبهم فى الإيجاب الذاتى ووقوع الحوادث بعضها عن بعض متوقف على الأسباب ، والشروط الحادثة مستندة أخيراً إلى الواجب الفاعل بالذات لا بالاختيار ، وأن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية ، منها صدور هذه الخوارق بقدرته وطاعة العناصر له فى التكوين ، والنبي عندهم مجبول على التصرف فى الأكوان مهما توجه إليها واستجمع لها بما جعل الله له من ذلك ، والخارق عندهم يقع للنبي كان للتحدى أو لم يكن ، وهو شاهد بصدقه من حيث دلالته على تصرف النبي فى الأكوان الذى هو من خواص النفس النبوية ، لا بأنه يتنزل منزلة القول الصريح بالتصديق فلذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية ، كما هى عند المتكلمين ولا يكون التحدى جزءاً من المعجزة ، ولم يصح فارقاً عن السحر والكرامة ، وفارقها عندهم عن السحر أن النبي مجبول على أفعال الخير مصروف عن أفعال الشر. فلا يلم الشر بخوارقه والساحر على الصدق فأفعاله كلها شر ، وفى مقاصد الشر وفارقها عن الكرامة أن خوارق النبي مخصوصة كالصعود إلى السماء ، والنفوذ فى الأجسام الكثيفة وإحياء الموتى وتكليم الملائكة والطيران فى الهواء وخوارق الولى دون ذلك كتكثير القليل ، والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله مما هو قاصر عن تصريف الأنبياء ويأتى النبي بجميع خوارقه ، ولا يقدر

هو على مثل خوارق الأنبياء وقد قرر ذلك المتصوفة فيما كتبوه فى طريقتهم ولقنوه عمن أخبرهم وإذا تقرر ذلك فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم ، المنزل على نبينا محمد ﷺ . فإن الخوارق فى الغالب تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى ، ويأتى بالمعجزة شاهدة بصدقه ، والقرآن هو بنفسه الوحى المدعى وهو الخارق المعجزة فشاهده فى عينه ، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحى فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه ، وهذا معنى قوله ﷺ ما من نبى من الأنبياء إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحى إلى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة ، يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة فى الوضوح وقوة الدلالة ، وهو كونها نفس الوحى كان الصدق لها أكثر لوضوحها ، فكثر المصدق والمؤمن وهو التابع والأمة .

الإسراء والمعراج (٢)

لعل الناس لم يختلفوا فى شيء قط كما اختلفوا فى شأن الإسراء والمعراج ، ولم يتجادلوا فى شيء قط كما تجادلوا فى أمرهما .. فمن الناس من صدق بهما جميعاً ، ومن الناس من كذب بهما جميعاً ، ومنهم من صدق بالإسراء وكذب بالمعراج ، ومنهم من قال بأن الإسراء كان بالروح والجسد معاً ، ومنهم من قال بأنه كان بالروح دون الجسد ، ومنهم من قال بأنه كان فى اليقظة ومنهم من قال بأنه كان فى المنام .

---

(٢) صور من حياة الرسول – أمين دويدار – دار المعارف – الطبعة الرابعة .

وهكذا لم يزل الناس منذ حدث هذا الحادث العظيم يختلفون فيه ، ولا يزال كل فريق يحاول أن يؤيد رأيه بكل ما يبدو له من الحجج ومايرجح عنده من البراهين . وصدق الله العظيم إذ يقول فى شأن هذا الحادث : (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) [٣] .

ولعل السبب فى هذا الاختلاف أن الناس يأبون إلا أن يحكموا فيه العقل ولا يرضون بغيره حكماً ، فهل العقل يصلح أن يكون حكماً فى هذا الأمر الخطير ؟ .. وقبل أن نقرر ما إذا كان العقل يصلح أولا يصلح أن يكون حكماً فى مثل هذا الأمر ، ينبغى لنا أن نعرف ما هو العقل ، وما وظيفته ، وما مقدرته ، وما حدوده ، ومن أين يستمد العقل علمه ومعارفه ؟ .

العقل : هو قوة الفهم فى الإنسان ، هو الذى به يستطيع أن يميز ويقدر ، ويقيس ويوازن ، ويستنبط النتائج من مقدماتها ، ويكون الكليات من جزئياتها ويصدر الأحكام على كل ما تمده به الحواس ، فيحكم مثلاً بأن هذا أحمر وهذا أبيض ، وهذا حلو وهذا مرّ ، وهذا ناعم وهذا خشن ، وهذا طيّب وهذا خبيث ، وهذا بعيد وهذا قريب ، وهذا صعب وهذا سهل ، وهذا ممكن وهذا مستحيل .. وهو فى كل ما يصدر من هذه الأحكام متأثر بما تمده به الحواس ، فما من حكم يستطيع أن يصدره العقل إلا وللحواس فيه أثر ، إما مباشر وإما غير مباشر . والحواس إنما تستمد معلوماتها من عالم الحس الذى يحيط بها ، ولا تستطيع بحال أن تتجاوز هذا العالم إلى ما وراءه لتستمد منه شيئاً .. فالأذن لا تستطيع أن تسمع إلا ما يصك مسمعها من الأصوات ، والعين لا تستطيع أن ترى إلا ما يقابلها من المناظر ، والأنف لا يستطيع أن يشم إلا ما يمر به من

---

(٣) مع بعض تصرف .

الروائح ، واللسان لا يستطيع أن يذوق إلا ما يلمسه من الطعوم ، واليد لا تستطيع أن تمسك إلا ما يقع فى قبضتها من الأجسام . وهكذا كل حاسة من الحواس لا تستطيع أن تدرك إلا ما يقع فى دائرة حسها من الأشياء ، ثم هى ترسل بهذا الإدراك إلى العقل ، فيفسره العقل بأنه صوت أو منظر أو رائحة أو جسم ، ويحكم عليه بأنه لطيف أو عنيف . جميل أو دميم ، طيب أو خبيث ، كبير أو صغير ، فكل ما يصدره العقل من أحكام إنما هو قائم على ما تدركه الحواس ، وكل ما تدركه الحواس إنما هو مستمد من عالم الحس الذى تعيش فيه ، ولن تستطيع الحواس بأى حال أن تستمد شيئاً من غير هذا العالم . فالمسموع والمنظور والمشموم والمذوق والملموس ، لابد أن تكون كلها واقعة تحت إدراك الحواس ، حتى تستطيع أن تدركها وأن تؤدى بإدراكها هذا إلى العقل الذى يفسره ويصدر حكمه عليه . وتفسير الشىء والحكم عليه هو (الفهم) .

والفهم : هو وظيفة العقل ، وهو فرق ما بين الإنسان والحيوان الأعجم .

نستطيع إذن أن نخرج من هذا البيان بنتيجة : هى أن العقل لا يمكن أن يفهم إلا ما تمده به الحواس ، لأن الحواس هى روافده التى تمده بالمعلومات عن كل ما يقع تحت حسها ، وما دامت هذه الروافد عاجزة عن أن تستمد مدركاتها من عالم آخر غير عالم الحس ، فلا يمكن أن توصل إلى العقل علماً من غير عالمها .. فهل الكون كله هو عالم الحس وحده ؟ هل الكون كله هو هذه المحسوسات التى نراها بأعيننا ، ونسمعها بآذاننا ، ونذوقها بألسنتنا ونشمها بأنوفنا ، ونلمسها بأيدينا ؟ وبعبارة أخرى : هل نحن فى الواقع نرى بأعيننا كل شىء فى هذا الكون ، ونسمع بآذاننا كل صوت ، ونشم بأنوفنا كل ريح ، ونلمس بأيدينا كل جسم ؟ لا شك أن هناك أشياء كثيرة لا تدركها حواسنا هذه ،

لأنها إما بعيدة عن منالها ، وإما خارجة عن دائرة إدراكها ، وهى فى كلتا الحالتين تعتبر (غيباً) لا تستطيع حواسنا أن تصل إلى إدراكه .

فهل نستطيع إذن أن ندعى أن كل ما غاب عن حواسنا غير موجود ؟ لاشك أننا لا نستطيع أن ندعى ذلك ؟ ولا نستطيع كذلك أن ندعى أن كل ما غاب عن حواسنا غير معقول أن يكون موجوداً ، لأن العقل فى هذا المجال لا يستطيع أن يحكم ، إذ الحواس التى يستمد منها معلوماته ، والتى يعتمد على إدراكها لذلك الغيب ، لم تصل بعد إلى ذلك الغيب ، أو هى بطبيعتها لا تستطيع الوصول إليه . فوسائل العلم إذن بهذا الغيب ستظل مفقودة حتى تصل الحواس إلى إدراكه ، فإذا استطاعت الحواس أن تصل إليه فأدركته ، استطاع العقل أن يفهمه ويصدر حكمه عليه ، أما إذا ظلت الحواس عاجزة عن الوصول إليه ، فإن العقل كذلك يظل جاهلاً به ، فلا يستطيع أن يفسره ولا أن يحكم عليه ، فإذا تصدى للحكم كان حكمه خطأ ، لأنه حكم قائم على غير علم .

ولنضرب لذلك مثلاً من الواقع .. لو أن قائلاً قال للناس قبل مائة عام مثلاً : إن هناك فى الكون سرًّا عجيباً ، يكون فى بعض الأجسام نوراً ، وفى بعضها قوة ، وفى بعضها حرارة ، وفى بعضها برودة ، وفى بعضها صوتاً ، وفى بعضها صورة ، وأحياناً يكون دواء ناجعاً ، وأحياناً يكون موتاً صاعقاً .. فهل كانوا يصدقونه فيما يقول ؟ وهل كانت عقولهم تؤمن بوجود هذا السر؟ .. فلما أن كشف العلم سر « الكهربا » ، ولمس الناس آثارها ، وأدركتها حواسهم على ضوء التجربة والواقع ، صدقوا وآمنت عقولهم بوجود هذا السر. فهل كانت الكهربا معدومة ثم وجدت حين اكتشفها العلم ؟ .. لا ، بل كانت موجودة فى الكون منذ خلق الله الكون ، ولكن العقل لم يكن يعرفها لأن الحواس لم تكن

تدرك آثارها ، فلمّا أدركتها الحواس عرفها العقل ، وكذلك الشأن فى كل ما كشف العلم الحديث من أسرار هذا الكون وعجائبه . وقديماً عجب بعض الناس من أن عمر بن الخطاب نادى وهو على المنبر فى المدينة : « يا سارية ، الجبل ، الجبل » يحذر قائد جيشه بالشام من كمين أعده له العدو وراء الجبل ، فسمع سارية النداء فأخذ حذره من ذلك الكمين ، ولكننا أصبحنا الآن بحيث لا نعجب من مثل هذا . بعد أن كشف العلم لنا ما كشف من أسرار الصوت فى الراديو . إذن فهناك فى الكون أسرار لم تزل خافية على العقل ، ولا يستطيع العقل أن يحكم بأنها مستحيلة أو ممكنة ، لأنها لم تصل إلى علمه بعد ، أو لأنه غير قادر على أن يصل إلى علمها بوسائله . وأن فيما يكشف العلم لنا من هذه الأسرار لدليلا على أن هنالك أسراراً لم تكشف لنا بعد ، ولقد يكون ما نجهله من هذه الأسرار أكثر بكثير مما نعلمه ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

ويعجبنى فى هذا المجال تصوير لأحد العلماء الأجانب شبه فيه العلم أو العقل فيما يكتشفه من أسرار هذا الكون – برجل جلس على شاطئ البحر ، فجعل ينظر إلى البحر مبهوراً بعظمته ، متطلعاً إلى ما فيه من أسرار ، فبينما هو كذلك إذ قذف البحر له سمكة ، فصاح مسروراً : لا شك أن فى هذا البحر سمكاً . ثم قذف البحر له مرجانة ، فصاح مبتهجاً : ولا شك أن فيه مرجاناً . ثم قذف البحر له لؤلؤة ، فعرف أن فيه لؤلؤاً كذلك ... وهكذا ، كلما رمى البحر له شيئاً ظن أنه كشف سرًّا من أسرار هذا البحر . لكن هل يستطيع أن يحيط بكل ما فى البحر من أسرار ؟ لا شك أنه لا يستطيع ، ولو قضى عمره على شاطئ البحر .. وهو تشبيه صادق وتصوير بليغ لموقف العقل من أسرار هذا الكون .

نستطيع أن نصل من هذا إلى نتيجة أخرى ، هى أن العقل لم يحط بكل ما فى الكون من أسرار ، وأنه ما دام لا يستطيع أن يحيط إلا بما تمده به الحواس ، فإن حكمه على ما لا سبيل للحواس إليه ، إنما هو رجم بالغيب وخبط فى الظلام ، وما دام الأمر كذلك فكل ما لا تدركه الحواس لا يمكن أن يحكم فيه العقل . والحواس بطبيعتها مادية لا تدرك إلا ما تحسه من عالم المادة ، أما ما وراء عالم المادة – وهو عالم الغيب – فإنها لا يمكن أن تدرك منه شيئاً فعلم العقل بما وراء المادة عن طريق الحواس أمر غير ممكن ، وحكمه عليه لا يمكن أن يكون صادقاً أبداً . ومن أجل هذا كان العقل غير صالح لأن يحكم فى مسألة (الإسراء والمعراج) لأنها من عالم الغيب الذى لا تدركه الحواس .

من أى طريق – إذن – يأتى للعقل علم ما وراء المادة ؟ لا يمكن أن يكون ذلك إلا من طريق (السمع) .. من طريق السمع وحده لا من طريق غيره ، وذلك بأن يتلقى الخبر عنه من صادق أمين ، له قدرة على الاتصال بما وراء المادة ، أى (بعالم الغيب) . وهذا لا يتأتى إلا للأنبياء والرسل ، والأنبياء والرسل صادقون فيما يبلغون من هذه الأخبار ، لأنهم يتلقونها بطريق الوحى الإلهى عن الله وهو أصدق القائلين . فليس هنا مجال للشك فى صدق الحقيقة التى يخبر بها الرسل والأنبياء عن عالم الغيب ، وليس للعقل أن يقول فى هذا المجال شيئاً ، لأنه خارج عن نطاق إدراكه .

وربما ظن بعض الناس أن العلم بما وصل إليه من الوسائل الحديثة يستطيع أو يمكن الاستعانة به أو الاعتماد عليه فى علم ما وراء المادة . ولكن العلم الحديث بكل وسائله لا يستطيع ذلك ، لأن وسائله كلها مادية قائمة على التجربة والملاحظة ، وهما لا تقومان إلا على ما تدركه الحواس ، والحواس بطبيعتها لا تدرك ما وراء المادة .

فالسمع – إذن – هو وحده الطريق الذى يستمد العقل منه معلوماته عما وراء المادة ، أو عن عالم الغيب وما فيه من الجنة والنار ، والملائكة والجن ، والحشر والحساب ، وما إلى ذلك من (السمعيات) التى لا يمكن أن تأتينا أخبارها إلا من طريق السمع وحده .

(والإسراء والمعراج) من هذه السمعيات .. فليس للعقل مجال فى الحكم عليهما بالصدق أو بالكذب ، وبالجواز أو بالاستحالة . لأنهما غير داخلين فى نطاق علمه ، فإذا تصدى للحكم عليهما فقد تصدى للحكم فيما ليس له به علم .

فليس للعقل – إذن – إلا التصديق بما ورد عنهما على لسان الصادق الأمين ، وهو رسول الله ، ﷺ . وليس له أن يسأل عن إمكان ذلك أو كيفيته ، لأن ذلك شىء ليس فى طاقة العقل أن يفهمه ، لأنه من عالم الغيب الذى لا يدخل فى دائرة إدراكه . أما الذى يستطيع العقل أن يسأل عنه فهو الحكمة فى ذلك الإسراء والمعراج .

أما حكمة الإسراء فقد أجملها الله سبحانه فى قوله : (لنريه من آياتنا) ، وذلك حيث يقول عز وجل فى سورة الإسراء : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) . وأما حكمة المعراج فقد أجملها الله سبحانه فى قوله : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) ، وذلك حيث يقول عز وجل من سورة النجم : (ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى) .. وذلك فى رأى من يقول بأن هذه الآيات نزلت فى شأن المعراج .

فالغرض الذى كان من أجله الإسراء وكان من أجله المعراج ، هو أن يرى

الله رسوله ما شاء من آيات قدرته ، وعجائب صنعه ، وعظيم ملكه ، ليطمئن قلبه ، وتستنير بصيرته ، ويزداد يقينه .

ويقول العلماء : إن المعرفة درجات ثلاث علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين . فعلم اليقين هو المعرفة التى تقوم على الخبر الصادق ، وعين اليقين هو المعرفة التى تقوم على المشاهدة ، وحق اليقين هو المعرفة التى تقوم على التجربة والممارسة .. فأنت إذا سمعت عن بلد من البلاد من أمين صادق لا تشك فى خبره ، فذلك علم اليقين ، فإذا أنت رأيت هذا البلد بعينيك ، فذلك عين اليقين ، فإذا أنت عشت فى هذا البلد فعاشرت أهله وعرفت أموره ودرست أحواله ، فذلك حق اليقين. كذلك إذا سمعت عن شخص ، ثم رأيته ، ثم خالطته وجربته ، فقد تدرجت فى المعرفة به درجة بعد درجة ، من علم اليقين ، إلى عين اليقين إلى حق اليقين ، وهى الدرجة التى ليس بعدها درجة فى العلم ولا فى المعرفة .

والرسل والأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم قد تلقوا عن الله تعالى السمعيات ، أو أنباء عالم الغيب ، بإيمان وتصديق ويقين لا يقبل الشك ، ولكن منهم من استشرف إلى الترقى فى المعرفة من درجة (علم اليقين) إلى درجة (عين اليقين) ، فقد حكى الله عن نبيه عزير أنه (مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه[٤] وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها[٥] ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء

---

(٤) لم تغيره السنين .

(٥) نعيد تركيبها ونضعها فى مواضعها .

قدير) * .. وحكى عن خليله إبراهيم أنه قال : (رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك[٦] ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم) .. وحكى عن رسوله موسى أنه قال : (رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًّا وخر موسى صعقاً[٧] فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) * * .

ومحمد ، ﷺ ، سيد الأنبياء وخاتم الرسل ، وأكرم خلق الله على الله ، فكان من كرامته – سبحانه – أن خصه بتلك الرحلة الملكوتية العجيبة ، ليريه من آياته ما استشرف غيره إلى رؤية بعضه ، ليرقى به من منزلة (علم اليقين) إلى منزلة (عين اليقين) . فكان ﷺ هو الرسول الوحيد الذى يخبر أمته بخبر السمعيات وما وراء المادة عن عيان ومشاهدة ، لا عن مجرد الخبر السماوى فحسب . ولذا كان عليه الصلاة والسلام واضح البيان فى تعليمه ، يكثر من التشبيهات وضرب الأمثال وأنواع الاستعارة ، ليقدم للناس تلك الحقائق الكونية الخفية ، مصورة بصورة ما يشبهها من الأمور الواقعية المعهودة . وتلك منزلة من سمع ورأى ، لا من سمع فقط .

« ولقد كان الوحى ينزل عليه بخبر تلك الحقائق والآيات الغيبية ، فيخبر مثلا عن الذين يأكلون الربا بأنهم (لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه

---

* سورة البقرة : ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٦) أى اجمعهن فى يديك لتستوثق من حياتهن .

(٧) سقط صريعاً من هول ما رأى .

* * سورة الأعراف : ١٤٣ .

الشيطان من المس) ، وعن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً بأنهم (إنما يأكلون فى بطونهم ناراً) ، ويخبر عن آل فرعون فى حياة البرزخ بقوله : (النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا) . وهكذا وهكذا مما نزل به الوحى على قلبه ، ﷺ . وتلك معارف جليلة كان يستشرف لرؤيتها أكابر الأنبياء والرسل ، ويتشوفون إلى درجة فى المعرفة أعلى من الدرجة التى هم عليها . ولا شك أن رسول الله ، ﷺ ، كان يتشرف كما يتشرفون ، ولكنه لم يطلب من الله كما طلب غيره ، تأدباً معه ، سبحانه ، وحياء منه ، فأكرمه الله ، سبحانه ، بتلك الرحلة ، ليريه من آياته ما يشاء ، ويطلعه من عجائب كونه على ما يريد ، وليفضى إليه بما يشاء من أسرار جل شأنه * » .

ولقد يحلو لبعض المعاصرين منا أن يشبه ذلك بما يحدث الآن فى الدول الكبرى ، حيث تستدعى الدولة سفيرها فتفضى إليه بما تشاء من أسرارها الخطيرة ، وترسم له الخطة كما ينبغى أن تكون . وهو منزع شعرى جميل ، ولكنه تشبيه مع الفارق العظيم ، « ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم » .

وهنا يستشكل الأمر على بعض الناس فيقولون : وهل لله ، عز وجل مكان يعرج إليه فيه رسوله ؟ .. فقد نستطيع أن نسلم بأن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ممكن ، لأننا الآن نرى الطيارات تقطع هذه الرحلة ذهاباً وإياباً فى بضع ساعات ، وقد نستطيع أن نسلم بأن رسول الله عرج به إلى السماء ، لما نراه الآن من محاولات العلم الحديث فى الوصول إلى الكواكب ، وقد نستطيع كذلك أن نسلم بأن ما رآه رسول الله من حياة البرزخ (٨) . ومن صور الأعمال ،

---

* منبر الإسلام عدد رجب ١٣٧٤ : مقال للأستاذ البهى الخولى مع بعض تصرف .

(٨) البرزخ .. هو فترة ما بين الموت والنشور ، وهو الفترة التى يقضيها الموتى فى قبورهم حتى يبعثوا يوم القيامة .

ومن عجائب الكون حق ، لأن خبره صادق لا يقبل الشك ولكن كيف نستطيع أن نسلم بمثوله فى حضرة ربه ذى الجلال ، عند سدرة المنتهى ؟ أليس معنى هذا أن الله ، جل جلاله ، مكاناً ، وأنه – سبحانه – فى السماء السابعة أو فيما وراءها ؟

والأمر فى حقيقته غير مشكل ؟ ولكننا نحن الذين أشكلناه على أنفسنا ، لأننا أخضعناه لمدركاتنا الحسية ، وحكمنا فيه العقل الذى ليس من شأنه أن يحكم فى مثل هذا الأمر . فالله ، سبحانه وتعالى ليس بعيداً عن رسوله حتى يقطع للقائه هذه الأبعاد الشاسعة فى السموات العلى ، بل هو معه حيثما كان وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، بل هو قريب من عباده جميعاً ، يسمعهم إذا دعوا ، ويجيبهم إذا سألوا ، ويكون معهم أينما كانوا : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) * والذى يقول لرسوله : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) ** وقد نهى رسول الله ، ﷺ ، المؤمنين أن يبالغوا فى رفع أصواتهم ، حين رأى جماعة منهم يجأرون بالتكبير يوم خيبر ، فقال : « أربعوا على أنفسكم [٩] ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً ، وهو معكم » .

فلم يكن الغرض من العروج – إذن – أن يلقى محمد ﷺ ربه فى مكان بعيد ، إنما كان ذلك ليرى من ملكوت الله ما شاء الله أن يرى ، وليطلع من عجائب صنعه على ما شاء الله أن يطلع ، وليشهد من سعة ملك الله وجلال سلطانه وعظيم قدرته ما يزيده يقيناً على يقين ، وإيماناً على إيمان ، وليستشعر

---

* سورة المجادلة : ٧

** سورة البقرة : ١٨٦ .

(٩) أى ارفقوا بأنفسكم ولا تبالغوا فى رفع أصواتكم .

المنزلة الكريمة والدرجة الرفيعة التى أعدها له ربه .. وإلا ، فقد كان فيما يوحى إليه ربه على لسان أمينه جبريل كفاية وغناء .

على أن العلم لم يكتشف بعد حقيقة السموات ، ولا يزال من أمرها يخبط فى متاهة عمياء على رغم ما بلغه من تقدم وما بذله من جهود .. يقول الأستاذ حنفى أحمد فى كتابه « معجزة القرآن فى وصف الكائنات » ص ٥٠ : إن استعمال المراقب الحديثة فى الكشف قد أثبت بما لا يقبل الشك أن المجموعة الشمسية التى تتكون من الشمس وتوابعها من السيارات التى تدور حولها . . تسبح فى حشد عظيم من النجوم ، تظهر فى صورة نقط صغيرة من الضوء متميز بعضها عن بعض ، وأن هذه المجموعات تعرف الآن باسم (السديم أو مجموعة المجرة) .. وأن هناك – عدا هذه الآلاف المؤلفة من النجوم التى ترى فى المجرة – أجساماً أخرى ترى على هيئة سحب مضيئة قليلاً ، ولكن لا تظهر فيها نقط متميزة ، وقد أطلق عليها اسم (الجزائر الكونية) ، وهى السدم العظمى أو المجرات الخارجية ، وهى عبارة عن حشود هائلة من النجوم لم تستطع المراقب الحديثة توضيحها على رغم ما بلغت من قوة(١٠) ، نظراً لأبعادها الساحقة ، وقد دلت المشاهدات الدقيقة على وجود ملايين من هذه المجرات الخارجية منتشرة فى الفضاء .. فى طبقات متتالية يبلغ متوسط البعد بين بعضها والبعض الآخر مليوناً ونصف مليون من السنين الضوئية ، أى بمقدار مسافة يقطعها الضوء فى مليون ونصف مليون من هذه السنين ، على حين هو يقطع فى السنة الواحدة نحو ستة ملايين مليون من الأميال(١١) .

---

(١٠) بلغت قوة مرصد « مونت ولسن » بأمريكا أن تدخل فى العين من الشعاع ٢٥٠ ألف مرة قدر ما تدخله العين البشرية .

(١١) تبلغ سرعة الضوء فى الثانية الواحدة نحو ١٨٦ ألفاً من الأميال .

ثم يقول فى ص ٥٤ : وقد دل الحساب الرياضى من المشاهدات الدقيقة على أن أبعاد المجرات الخارجية عن المجرة مذهلة ، إذ وجد أن أقربها – ويدعى (سديم أندرو ميدا العظيم) يبعد عنها بنحو ٦٨٠ ألف سنة ضوئية ، أى بنحو سبع مرات قدر قطرها ، ثم تزيد أبعاد المجرات بعد ذلك إلى ملايين ، ثم عشرات الملايين ، ثم مئات الملايين من السنين الضوئية .

ثم يقول بعد ذلك فى ص ٦٢ : وقد دلت البحوث الدقيقة من التحليل الطيفى للمجرات الخارجية .. على أنها تتباعد عنا كما يتباعد بعضها عن بعض باستمرار ، وبسرعات عظيمة جدًّا تقدر بآلاف الأميال فى الثانية الواحدة ، فاستدلوا بحركاتها على أن الفضاء بين المجرات يتمدد ويتسع باستمرار . ويقول السير جينز : إنهم قدروا هذا التمدد بنحو مائة وخمسة أميال فى الثانية الواحدة لكل بعد قدره مليون سنة ضوئية ، وأن حجم الفضاء العالمى الآن يبلغ عشرة أمثال حجمه منذ بدأ تمدده ، أى أن كل بعد من أبعاده الثلاثة قد زاد قليلاً على ضعف قدره الأصلى .

ويؤكد الأستاذ حنفى أحمد فى ص ٥٤ – على لسان السير جينز العالم الفلكى الإنجليزى – « أن الخطأ المحتمل فى تقدير الأبعاد العظيمة للأجرام السماوية وبالطرق المعتمدة لا يزيد على عشرة فى المائة » .

هكذا يقول العلم ، أو هكذا تقول التجارب التى قام بها العلم حتى الآن . فإذا نحن سايرنا العلم فى نظرياته فماذا عسى أن تكون سعة هذا الكون العجيب ، وأين تبدأ حدوده وأين تنتهى ؟ وأين تقع السموات السبع من هذه العوالم التى لا يدرك العقل كنهها ، ولا يعرف العلم مداها ؟ وكيف يكون الصعود فيها ، وكيف يكون الهبوط ، وكيف يكون الاستواء ؟ أليس الأمر – إذن – أوسع من أن يحده العلم ، وأعظم من أن يحكم فيه العقل ، وأعمق من أن تحيط به

الأفهام ؟ فـ (سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون .. وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم . وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون)[١٢] .

وبعد ، فقد وقع الإسراء والمعراج فيما بين السنة العاشرة والحادية عشرة من البعثة ، وهى الفترة التى يئس فيها رسول الله من إيمان قريش ، فذهب إلى ثقيف فردته أقبح رد ، فعاد مكلوم الفؤاد واهن القوة ، يضرع إلى الله ويستعينه ، ويشكو إليه ما يلاقى من صدود الناس عنه وسخرهم به وجرأتهم عليه ، فلعله كان من تطمين الله له ومن رحمته به أن هيأ له هذه الرحلة الملكوتية ، ليطمئن قلبه ، وليعلم أنه يعين الله دائماً أبداً ، وأن الله لن يتخلى عنه ولن يخلفه ما وعده من النصر ، وإن تراكمت أمامه العقبات ، واحلولكت حوله الظلمات .

لقد كان الإسراء رحلة مباركة فى الأرض ، بين المسجد الحرام الذى بناه إبراهيم وإسماعيل ، والمسجد الأقصى الذى بناه داود وسليمان ، وهما البيتان اللذان باركهما الله تعالى وبارك ما حولهما ، فكانا مقر عبادة الله وتوحيده ، وكانا مهبط الوحى على رسله وأنبيائه . وقد مر ، ﷺ ، فى رحلته هذه بالبقعة المباركة التى كلم الله فيها موسى ، عليه السلام ، وهى (طورسينا) فصلى بها ركعتين ، ومر بالبقعة المباركة التى ولد فيها عيسى عليه السلام ، وهى (بيت لحم) فصلى بها ركعتين ، ثم وصل إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى حشد من الأنبياء والرسل ، فصلى بهم جميعا ثم عرج به إلى السماء ، فرأى من آيات ربه الكبرى ما شاء الله أن يرى .

وقد فصلت الأحاديث بعض ما رأى من هذه الآيات ، فقد رأى ﷺ

(١٢) سورة الزخرف : ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ .

حياة (البرزخ) وهى فترة ما بين الموت وقيام الساعة ، فرأى الأنبياء ، صلوات الله عليهم . ورأى منازلهم ودرجاتهم ، ورأى نفوس بنى آدم بعد موتها ، يتلقاها آدم أبو البشر فيفرح بطيبها ويحزن لخبيثها .. ورأى حقائق الأعمال مصورة فى صورها المحسوسة كما أراد الله أن تكون ، فرأى آل فرعون ومن على شاكلتهم من الطغاة والظلمة ، يعرضون على النار غدوًّا وعشيًّا ، ورأى الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، لهم مشافر كمشافر الإبل ، وبأيديهم قطع من النار كالحجارة يقذفونها فى أفواههم فتهوى إلى بطونهم ، ورأى الذين يأكلون الربا يوطئون بالأقدام فلا يستطيعون القيام ، كلما هموا لينهضوا سقطوا ، ورأى الزناة يتركون لحماً طيبا سميناً ، ويأكلون لحماً منتناً خبيثاً ، ورأى اللاتى يُدخلن على أزواجهن غير أولادهم معلقات بثديهن ، ورأى الذين يغتابون الناس ويقعون فى أعراضهم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم . . ورأى الجنة والنار ووعد الآخرة ، ورأى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، ورأى غير ذلك من آيات الله وعجائب قدرته ، مما لم يكن يتسنى لأحد أن يراه إلا أن يكون من سمو الروح وصدق اليقين فى الدرجة التى كان هو ، ﷺ ، فيها .. وتلك درجة رفيعة ، ومنزلة خصه الله تعالى بها دون سائر خلقه ، ودون سائر أنبيائه ورسله الذين هم صفوة خلقه جميعاً .

وفى حضرة القدس الأعلى فرضت عليه الصلاة ، ولعلها كانت هى السر العظيم الذى أفضى به الملك الجليل إلى عبده ورسوله ، فإن الصلاة هى الصلة الدائمة بين العبد وربه ، وهى لب العبادة وجوهرها ، وعماد الدين وركازه .

ثم عاد ﷺ إلى مكة ، فأخبر بما كان من أمره فى تلك الليلة المباركة ، فكذبته قريش ، واستفظع الناس الخبر حتى افتتن به بعض من آمن ، أما الذين رسخت عقيدتهم وصدق إيمانهم فلم يروا فى الأمر عجباً ، فهذا الوحى ينزل

عليه من السماء كل يوم ، فأى فرق بين أن ينزل عليه جبريل بالوحى ، وبين أن يذهب به إلى حيث شاء الله أن يذهب ، ليتلقى من الوحى ما شاء الله أن يلقى إليه ، وليرى ما شاء الله له أن يرى .

وهكذا كان الحادث فتنة للناس ، تبين به إيمان الصادقين وغير الصادقين ، ولا يزال الناس إلى يومنا هذا ، وإلى ما شاء الله أن يكون ، يخوضون فى شأن (الإسراء والمعراج) فمنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن بالحكم فيما ليس له به علم . ولو أنهم وقفوا بالعقل عند حدوده ، وأبعدوه عما ليس من شأنه ، لما كان فى الأمر لبس ولا إشكال . وصدق الله العظيم إذ يقول : (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)[١٣] .

حقيقة النبوة

ولنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين ، ثم نذكر حقيقة الكهانة ، ثم الرؤيا ، ثم شأن العرافين ، وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول :

اعلم أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض ، لا تنقضى عجائبه فى ذلك ولا تنتهى غاياته ، وابدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثمانى ، وأولاً عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعداً من الأرض إلى السماء ، ثم إلى الهواء ، ثم إلى النار متصلاً بعضها ببعض ، وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً أو هابطاً ، ويستحيل بعض الأوقات ، والصاعد منها ألطف مما قبله إلى

---

(١٣) سورة آل عمران : ٦٦ .

أن ينتهى إلى عالم الأفلاك ، وهو ألطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض ، على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط ، وبها يهتدى بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها ، وما بعد ذلك من وجود الذوات التى لها هذه الآثار فيها ، ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ، ثم النبات ، ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج ، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات ، مثل الحشائش وما لا بذر له ، وآخر أفق النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ، ولم يوجد لها إلا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال فى هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق الذى بعده ، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى فى تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر ، والروية ترتفع إليه من عالم القدرة الذى اجتمع فيه الحس والإدراك ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل ، وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده وهذا غاية شهودنا . ثم إنا نجد فى العوالم على اختلافها آثاراً متنوعة ، ففى عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر ، وفى عالم التكوين آثار من حركة النمو والإدراك ، تشهد كلها بأن لها مؤثراً مبايناً للأجسام . فهو روحانى ويتصل بالمكونات لوجوب اتصال هذا العالم فى وجودها ، وذلك هو النفس المدركة والمحركة ، ولابد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة ويتصل بها أيضاً ، ويكون ذاته إدراكاً صرفاً وتعقلاً محضاً وهو عالم الملائكة ، فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ، ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات فى لمحة من اللمحات ، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد ، ويكون لها اتصال بالأفق الذى بعدها شأن الموجودات المرتبة ، كما قدمناه فلها فى الاتصال جهتا العلو والسفل هى متصلة بالبدن من أسفل منها ،

ومكتسبة به المدارك الحسية التى تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل ومتصلة من جهة الأعلى منها بأفق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلوية والغيبية ، فإن عالم الحوادث موجود فى تعقلاتهم من غير زمان ، وهذا على ما قدمناه من الترتيب المحكم فى الوجود باتصال ذواته وقواه بعضها ببعض . ثم إن هذه النفس الإنسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة فى البدن فكأنه وجميع أجزائه مجتمعة ومفترقة آلات للنفس وقواها. أما الفاعلية فالبطش باليد، والمشى بالرجل، والكلام باللسان والحركة الكلية بالبدن متدافعاً . وأما المدركة وإن كانت قوى الإدراك مرتبة ومرتقية إلى القوة العليا منها ، ومن الفكرة التى يعبر عنها بالناطقة فقوى الحس الظاهرة بآلاته من السمع والبصر وسائرها يرتقى إلى الباطن ، وأوله الحس المشترك وهو قوة تدرك المحسوسات مبصرة ومسموعة وملموسة وغيرها فى حالة واحدة وبذلك فارقت قوة الحس الظاهر لأن المحسوسات لا تزدحم عليها فى الوقت الواحد ، ثم يؤديه الحس المشترك فى الخيال وهى قوة تمثل الشىء المحسوس فى النفس ، كما هو مجرداً عن المواد الخارجة فقط ، وآلة هاتين القوتين فى تصريفهما البطن الأول من الدماغ مقدمة للأولى ومؤخرة للثانية ، ثم يرتقى الخيال إلى الواهمة والحافظة فالواهمة لإدراك المعانى المتعلقة بالشخصيات ، كعداوة زيد وصداقة عمرو ، ورحمة الأب وافتراس الذئب . والحافظة لإيداع المدركات كلها متخيلة وغير متخيلة ، وهى لها كالخزانة تحفظها لوقت الحاجة إليها . وآلة هاتين القوتين فى تصريفها البطن المؤخر من الدماغ ، أوله للأولى ومؤخره للأخرى ، ثم ترتقى جميعها إلى قوة الفكر وآلته البطن الأوسط من الدماغ ، وهى القوة التى يقع بها حركة الرويّة والتوجه نحو التعقل ، فتحرك النفس بها دائماً لما ركب فيها من النزوع للتخلص من درك القوة والاستعداد الذى للبشرية ، وتخرج إلى الفعل فى تعقلها متشبهة بالملأ الأعلى الروحانى ،

وتصير فى أول مراتب الروحانيات فى إدراكها بغير الآلات الجسمانية . فهى متحركة دائماً ومتوجهة نحو ذلك ، وقد تنسلخ بالكلية من البشرية وروحانيتها إلى الملكية من الأفق الأعلى من غير اكتساب ، بل بما جعل الله فيها من الجبلة والفطرة الأولى فى ذلك . والنفوس البشرية على ثلاثة أصناف : صنف عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحانى ، فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى ، نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعانى من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة ، وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية التى للفكر فى البدن وكلها خيالى متحصر نطاقه ، إذ هو من جهة مبدئه ينتهى إلى الأوليات ولا يتجاوزها ، وإن فسد فسد ما بعدها ، وهذا هو فى الأغلب نطاق الإدراك البشرى الجسمانى وإليه تنتهى مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم . وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحانى والإدراك الذى لا يفتقر إلى الآلات البدنية ، بما جعل فيه من الاستعداد لذلك ، فيتسع نطاق إدراكه عن الأوليات التى هى نطاق الإدراك الأول البشري ، ويسرح فى فضاء المشاهدات الباطنية ، وهى وجدان كلها لا نطاق لها من مبدئها ولا من منتهاها ، وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية ، وهى الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة فى البرزخ . وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ، ليصير فى لمحة من اللمحات ملكاً بالفعل ويحصل له شهود الملأ الأعلى فى أفقهم ، وسماع الكلام النفسانى والخطاب الإلهى فى تلك اللمحة ، وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية فى تلك اللمحة ، وهى حالة الوحى فطرة فطرهم الله عليها ، وجبلة صورهم فيها ونزههم عن مواد البدن وعوائقه ما داموا ملابسين لها بالبشرية بما ركب فى غرائزهم من القصد والاستقامة التى

يحاذون بها تلك الوجهة ، وركز فى طبائعهم رغبة فى العبادة تكشف بتلك الوجهة وتسيغ نحوها ، فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا ، بتلك الفطرة التى فطروا عليها لا باكتساب ولا بصناعة ، فلذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم وتلقوا فى ذلك الملأ الأعلى ما يتلقونه ، وعرجوا به على المدارك البشرية منزلا فى قواها لحكمة التبليغ للعباد ، فتارة يسمع دويًّا كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذى ألقى إليه ، فلا ينقضى الدوى إلا وقد وعاه وفهمه وتارة يتمثل له الملك الذى يلقى إليه فيكلمه ويعى ما يقوله ، والتلقى من الملك والرجوع إلى المدارك البشرية وفهمه ما ألقى عليه كله كأنه فى لحظة واحدة ، بل أقرب من لمح البصر ، لأنه ليس فى زمان ، بل كلها تقع جميعاً . فيظهر كأنها سريعة ولذلك سميت وحياً لأن الوحى فى اللغة الإسراع . (واعلم) أن الأولى وهى حالة الدوى هى رتبة الأنبياء غير المرسلين على ما حققوه ، والثانية وهى حالة تمثل الملك رجلاً يخاطب هى رتبة الأنبياء المرسلين ، ولذلك كانت أكمل من الأولى وهذا معنى الحديث الذى فسر فيه النبى ، ﷺ ، الوحى لما سأله الحارث بن هشام ، وقال كيف يأتيك الوحى فقال : أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول وإنما كانت الأولى أشد ، لأنها مبدأ الخروج فى ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل ، فيعسر بعض العسر ، ولذلك لما عرج فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع وصعب ما سواه ، وعندما يتكرر الوحى ويكثر التلقى يسهل ذلك الاتصال ، فعندما يعرج إلى المدارك البشرية يأتى على جميعها وخصوصاً الأوضح منها ، وهو إدراك البصر ، وفى العبارة عن الوعى فى الأولى بصيغة الماضى وفى الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهى أن الكلام جاء مجىء التمثيل لحالتى الوحى

فمثل الحالة الأولى بالدوى الذى هو فى المتعارف غير كلام ، وأخبر أن الفهم والوعى يتبعه غب انقضائه ، فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعى بالماضى المطابق للانقضاء والانقطاع ، ومثل الملك الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم ، والكلام يساوقه الوعى فناسب العبارة بالمضارع المقتضى للتجدد . واعلم أن فى حالة الوحى كلها صعوبة على الجملة وشدة فقد أشار إليها القرآن قال تعالى (إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً) وقالت عائشة كان مما يعانى من التنزيل شدة ، وقالت كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً ، ولذلك كان يحدث عنه فى تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو معروف ، وسبب ذلك أن الوحى كما قررناه ، مفارقة البشرية إلى المدارك الملكية وتلقى كلام النفس ، فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها من أفقها إلى ذلك الأفق الآخر ، وهذا هو معنى الغط الذى عبر به فى مبدأ الوحى فى قوله فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى . فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . وكذا ثانية ، وثالثة ، كما فى الحديث وقد يفضى الاعتياد بالتدريج فيه شيئاً فشيئاً إلى بعض السهولة بالقياس إلى ما قبله ، ولذلك كان تنزل القرآن وسوره وآيه منجماً حين كان بمكة أقصر منها وهوبالمدينة . وانظر إلى ما نقل فى نزول سورة براءة فى غزوة تبوك وأنها نزلت كلها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصار للفصل فى وقت وينزل الباقى فى حين آخر . وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين ، وهى ما هى فى الطول بعد أن كانت الآية تنزل بمكة مثل آيات الرحمن والذاريات والمدثر والضحى والفلق وأمثالها ، واعتبر من ذلك علامة تميز بها بين المكى والمدنى من السور والآيات والله المرشد للصواب هذا محصل أمر النبوة .

الرؤيـــا

وأما الرؤيا فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة فى ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات فإنها عندما تكون روحانية ، تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل ، كما هو شأن الذوات الروحانية كلها ، وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية ، وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب النوم كما نذكر ، فتقتبس بها علم ما تتشوف إليه من الأمور المستقبلية وتعود به إلى مداركها ، فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً وغير جلى بالمحاكاة والمثال فى الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى التعبير ، وقد يكون الاقتباس قويًّا يستغنى فيه عن المحاكاة فلا يحتاج إلى تعبير لخلوصه من المثال والخيال والسبب فى وقوع هذه اللمحة للنفس أنها ذات روحانية مستكملة بالبدن ومداركه ، حتى تصير ذاتها تعقلاً محضاً ، ويكمل وجودها بالفعل فتكون حينئذ ذاتاً روحانية مدركة بغير شىء من الآلات البدنية ، إلا أن نوعها فى الروحانيات دون نوع الملائكة أهل الأفق الأعلى الذين لم يستكملوا ذواتهم بشىء من مدارك البدن ولا غيره ، فهذا الاستعداد حاصل لها مادامت فى البدن ، ومنه خاص كالذى للأولياء ومنه عام للبشر على العموم وهو أمر الرؤيا . وأما الذى للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية إلى الملكية المحضة التى هى أعلى الروحانيات ، ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكرراً فى حالات الوحى وهو عندما يعرج على المدارك البدنية ويقع فيها مايقع من الإدراك شبيهاً بحال النوم شبهاً بيناً ، وإن كان حال النوم أدون منه بكثير . فلأجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرؤيا بأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، وفى رواية ثلاثة وأربعون ، وفى رواية سبعون . وليس العدد فى

جميعها مقصوداً بالذات ، وإنما المراد الكثرة فى تفاوت هذه المراتب ، بدليل ذكر السبعين فى بعض طرقه وهو للتكثير عند العرب . وما ذهب إليه بعضهم فى رواية ستة وأربعين من أن الوحى كان فى مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر ، وهى نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة ، فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين ، فكلام بعيد من التحقيق ، لأنه إنما وقع ذلك للنبى ، ﷺ ، ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء ، مع أن ذلك يعطى نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة . وإذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولاً علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطرى لهم صلوات الله عليهم . إذ هو الاستعداد البعيد وإن كان عامًّا فى البشر ، ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل ، ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ، ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم الذى هو جبلى لهم ، فتتعرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوف إليه فى عالم الحق ، فتدرك فى بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب ، ولذلك جعلها الشارع من الميسرات فقال لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، قالوا وما المبشرات يا رسول الله قال الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له (وأما) سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم فعلى ما أصفه لك ، وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيوانى الجسمانى ، وهو بخار لطيف مركزه بالتجويف الأيسر من القلب على ما فى كتب التشريح (لجالينوس) وغيره ، وينبعث مع الدم فى الشريانات والعروق فيعطى الحس والحركة وسائر الأفعال البدنية ، ويرتفع لطيفه إلى الدماغ فيعدل من برده وتتم أفعال القوى التى فى بطونه. فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعقل بهذا الروح البخارى ، وهى متعلقة به لما اقتضته حكمة

التكوين فى أن اللطيف لا يؤثر فى الكثيف ، ولما لطف هذا الروح الحيوانى من بين المواد البدنية صار محلاً لآثار الذات المباينة له فى جسمانيته ، وهى النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة فى البدن بواسطته ، وقد كنا قدمنا أن إدراكها على نوعين : إدراك بالظاهر ، وهو بالحواس الخمس . وإدراك بالباطن ، وهو بالقوى الدماغية ، وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها ، من ذواتها الروحانية التى هى مستعدة له بالفطرة ، ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية كانت معرضة للوسن والفشل بما يدركها من التعب والكلال وتفشى الروح بكثرة التصرف ، فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجرد الإدراك على الصورة الكاملة ، وإنما يكون ذلك بانخناس الروح الحيوانى من الحواس الظاهرة كلها ورجوعه إلى الحس الباطن ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل ، فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن وتذهب من ظاهره إلى باطنه فتكون مشيعة مركبها ، وهو الروح الحيوانى إلى الباطن ، ولذلك كان النوم للبشر فى الغالب إنما هو بالليل ، فإذا انخنس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع إلى القوى الباطنة ، وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ورجعت إلى الصورة التى فى الحافظة تمثل منها بالتركيب والتحليل صور خيالية ، وأكثر ما تكون معتادة لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريباً ، ثم بنزلها الحس المشترك الذى هو جامع الحواس الظاهرة فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة ، وربما التفتت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية مع منازعتها القوى الباطنية فتدرك بإدراكها الروحانى ، لأنها مفطورة عليه وتقتبس من صور الأشياء التى صارت متعلقة فى ذاتها حينئذ ، ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة فى القوالب المعهودة والمحاكاة من هذه هى المحتاجة للتعبير وتصرفها بالتركيب والتحليل فى صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هى

أضغاث أحلام (وفى الصحيح) أن النبى ﷺ ، قال : الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ، ورؤيا من الملك ، ورؤيا من الشيطان . وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه . فالجلى من الله ، والمحاكاة الداعية إلى التعبير من الملك ، وأضغاث الأحلام من الشيطان لأنها كلها باطل والشيطان ينبوع الباطل هذه حقيقة الرؤيا . وما يسببها ويشيعها من النوم وهى خواص النفس الإنسانية موجودة فى البشر على العموم ، لا يخلو عنها أحد منهم بل كل واحد من الإنسان رأى فى نومه ما صدر له فى يقظته مراراً غير واحدة ، وحصل له على القطع أن النفس مدركة للغيب فى النوم ولابد وإذا جاز ذلك فى عالم النوم فلا يمتنع فى غيره من الأحوال لأن الذات المدركة واحدة وخواصها عامة فى كل حال ، والله الهادى إلى الحسنى بمنه وفضله .

رياضة المتصوفة

وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعرية عن هذه المقاصد المذمومة ، وإنما يقصدون جمع الهمة والإقبال على الله بالكلية ، ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد ، ويزيدون فى رياضتهم إلى الجمع والجوع . التغذية بالذكر فيها تتم وجهتهم فى هذه الرياضة ، لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب إلى العرفان بالله ، وإذا عريت عن الذكر كانت شيطانية وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصوفة ، إنما هو بالعرض ولا يكون مقصوداً من أول الأمر ، لأنه إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله ، وإنما هى لقصد التصرف والاطلاع على الغيب وأخسر بها صفقة ، فإنها فى الحقيقة شرك قال بعضهم من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثانى[1]،فهم

---

(١) أى قصد غير الله.

يقصدون بوجهتهم المعبود لا شيء سواه ، وإذا حصل فى أثناء ذلك ما يحصل فبالعرض وغير مقصود لهم، وكثير منهم يفرُّ منه إذا عرض له ولا يحفل به، وإنما يريد الله لذاته لا لغيره وحصول ذلك لهم معروف ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفا ، وما يقع لهم من التصرف كرامة وليس شيء من ذلك بنكير فى حقهم . وقد ذهب إلى إنكاره الأستاذان أبو إسحاق الاسفراينى وأبو محمد بن أبى زيد المالكى فى آخرين فراراً من التباس المعجزة بغيرها ، والمعول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدى فهو كاف ، وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : إن فيكم محدثين ، وإن منهم عمر ، وقد وقع للصحابة من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك فى مثل قول عمر رضى الله عنه يا سارية الجبل ، وهو سارية من زنيم كان قائداً على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات وتورط مع المشركين فى معترك ، وهم بالانهزام ، وكان بقربه جبل يتحيز إليه فرفع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه يا سارية الجبل وسمعه سارية وهو بمكانه ، ورأى شخصه هنالك والقصة معروفة ، ووقع مثله أيضا لأبى بكر فى وصيته عائشة ابنته رضى الله عنهما فى شأن ما نحلها من أوسق التمر من حديقته ، ثم نبهها على جذاذه لتحوزه عن الورثة ، فقال فى سياق كلامه وإنما هما أخواك وأختاك ، فقالت : إنما هى أسماء فمن الأخرى ، فقال : إن ذا بطن بنت المارجة أراها جارية فكانت جارية وقع فى الموطأ فى باب ما لا يجوز من النحل ، ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء ، إلا أن أهل التصوف يقولون إنه يقل فى زمن النبوة إذ لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبى حتى أنهم يقولون إن المريد إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها والله يرزقنا الهداية ويرشدنا إلى الحق .

بهاليل المريدين

ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء ، وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين ، وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق ، مع أنهم غير مكلفين ويقع لهم من الأخبار عن المغيبات عجائب ، لأنهم لا يتقيدون بشيء فيطلقون كلامهم فى ذلك ويأتون منه بالعجائب ، وربما ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم . والولاية لا تحصل إلا بالعبادة وهو غلط ، فإن الله يؤتيه من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها . وإذا كانت النفس الإنسانية ثابتة الوجود فالله تعالى يخصها بما شاء من مواهبه وهؤلاء لم تعدم نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين . وإنما فقد لهم العقل الذى يناط به التكليف ، وهى صفة خاصة للنفس ، وهى علوم ضرورية للإنسان يشتد بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامة منزله ، وكأنه إذا ميز أحوال معاشه واستقامة منزله لم يبق له عذر فى قبول التكاليف لإصلاح معاده ، وليس من فقد هذه الصفة بفاقد لنفسه ، ولا ذاهل عن حقيقته فيكون موجوداً لحقيقة معدوم العقل التكليفى الذى هو معرفة المعاش ، ولا استحالة فى ذلك ولا يتوقف اصطفاء الله عباده للمعرفة على شيء من التكاليف ، وإذا صح ذلك فاعلم أنه ربما يلتبس حال هؤلاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ، ويلتحقون بالبهائم ولك فى تمييزهم علامات منها : أن هؤلاء البهاليل تجد لهم وجهة ما لا يخلون عنها أصلا من ذكر وعبادة لكن على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم التكليف ، والمجانين لا تجد لهم وجهة أصلاً . ومنها أنهم يخلقون

على البله من أول نشأتهم ، والمجانين يعرض لهم الجنون بعد مدة من العمر لعوارض بدنية طبيعية ، فإذا عرض لهم ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالخيبة ومنها كثرة تصرفهم فى الناس بالخير والشر ، لأنهم لايتوقفون على إذن لعدم التكليف فى حقهم ، والمجانين لاتصرف لهم والله المرشد للصواب .

السحر وتفسيره فى تفاسير القرآن

وردت كلمة السحر فى القرآن ستين مرة ويمكن لمن يريد حصرها الرجوع إلى معجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقى مادة (سحر) . ويقول المفسرون لسورة البقرة إن اليهود عارضوا الرسول ﷺ : بالتوراة . فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت . وقديماً ألقت الشياطين إلى بنى آدم أن ما فعله سليمان من ركوب البحر واستسخار الطير كان سحراً .

والسحر قيل أصله : التمويه بالحيل والتخابيل وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعان ، فيخيل للمسحور أنها بخلاف ما هى به ، كالذى يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء ، وكراكب القطار المتحرك حقيقة حين يخيل إليه أن ما حوله من الأشجار والجبال تسير معه .

وقيل : إن أحداً له الاستمالة وكل من استمالك فقد سحرك . وقال الجوهرى : السحر الأخذ . وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر .

والساحر . العالم ، وسحره أيضا بمعنى خدعه . وقال ابن مسعود ، كنا نسمى السحر فى الجاهلية العضة . والعضة عند العرب : شدة البهت وتمويه الكذب .

وفى (عيون المعانى) ذكر الفرنوى الحنفى : أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل لها ، وعند الشافعى وسوسة وأمراض ، وقال : وعندنا أصله طلسم يبنى عند تأثير خصائص الكواكب ، كتأثير الشمس فى زئبق عصى فرعون ، أو تعظيم الشياطين ليسهلوا ما عسر ، وعند القرطبى أنه حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء ، ثم من السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة ، والشعوذى : البريد لخفة سيره . قال ابن فارس فى المجمل : الشعوذة ليست من كلام أهل البادية ، وهى خفة فى اليدين وأخذة كالسحر ، ومنه ما يكون كلاماً يحفظ ورقى من أسماء الله تعالى ، وقد يكون من عهود الشياطين ، ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك .

وقد سمى رسول الله ﷺ ، الفصاحة فى الكلام واللسانة فيه سحراً . فقال : « إن من البيان لسحرا » : أخرجه مالك ، وذلك لأن فيه تصويب الباطل حتى ليتوهم السامع أنه عين الحق ، أى أن الرجل يكون عليه الحق ، ولكنه الحق بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق وهو عليه .

ومن السحر ما يكون كفراً من صاحبه مثل ما يدعون من تغيير صور الناس وإخراجهم فى هيئة بهيمة ، وقطع مسافة شهر فى ليلة والطيران فى الهواء . فكل من فعل ليوهم الناس أنه محق . فذلك كفر منه . قال القشيرى . قال أبو عمرو : من زعم أن الساحر يقلب الحيوان من صورة إلى صورة أو يقدر على نقل الأجساد وهلاكها وتبديلها ، فهو كافر يدعى القدرة على الإتيان بمثل آياتهم ومعجزاتهم .

وذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة ، وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الاستر ابادى من أصحاب الشافعى إلى أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو تمويه وتخييل وإيهام ، لكون الشىء على ما هو به وأنه ضرب من الخفة

والشعوذة كما قال تعالى : (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) ولم يقل تسعى على الحقيقة ولكن قال : يخيل إليه .

وقال أيضاً : (سحروا أعين الناس) وهذا لا حجة فيه ، لأننا لا ننكر أن يكون التخييل وغيره من جملة السحر ، لكن ثبت وراء ذلك أمور جوزها العقل وورد بها السمع . فمن ذلك ما جاء فى هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه ، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس فدل على أن له حقيقة ، وقوله تعالى فى قصة سحرة فرعون : (وجاءوا بسحر عظيم) وما ذكرناه سابقاً من سحر لبيد بن الأعصم للرسول .

ولقد شاع السحر وذاع فى سابق الزمان وتكلم الناس فيه ولم يبد من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله . وروى سفيان عن أبى الأعور عن عكرمة عن ابن عباس قال : علم السحر فى قرية من قرى مصر يقال لها (الفرقا) فمن كذب به فهو كافر ، مكذب لله ورسوله ، منكر لما علم مشاهدة وعياناً .

قال علماؤنا : لا ينكر أن يظهر السحر على يد الساحر خرق العادات ، بما ليس فى مقدور البشر من مرض وتفريق بين المرء وزوجه ، وزوال عقل وتعويج عضو إلى غير ذلك . مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات البشر .. ولا يبعد فى السحر أن يستدق جسم الساحر حتى يدخل فى الكوات والخوخات والانتصاب على رأس قصبة والجرى على خيط مستدق والطيران فى الهواء والمشى على الماء وركوب كلب وغير ذلك ، ومع ذلك فلا يكون موجباً لذلك ولا علة لوقوعه ولا سبباً مولداً ولا يكون الساحر مستقلاً به ، وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويحدثها عند وجود السحر كما يخلق الشبع عند الأكل والرى عند شرب الماء .. ويجب أن نعلم مع ذلك أن الله لا يفعل معجزات

الأنبياء عند إرادة الساحر ذلك ، فلا يفلق البحر ، ولا يقلب العصا ، ولا يحيي الموتى ، ولا ينطق الأعجمي . . فالذي يحدث من الساحر متميز عن المعجزة فالسحر يوجد من الساحر وغيره وقد يقع من جماعة يعرفونه ويأتون به في وقت واحد أما المعجزة فشرطها اقتران دعوى النبوة والتحدي بها .

واختلف الفقهاء في حكم المسلم والذمي فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفراً يقتل .. ولا يستتاب ولا تقبل توبته . لأن الله سبحانه سمى السحر كفراً بقوله : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ ، وهو قول أحمد بن حنبل ، وأبي ثور ، وإسحاق ، والشافعي ، وأبي حنيفة .. وإن كان الكلام الذي سحر به ليس يكفر لم يجز قتله ، فإن كان أحدث في المسحور ، جناية توجب القصاص ، اقتص منه إن كان عمد ذلك وإن كان مما لا قصاص فيه ففيه دية ذلك .. ونحن نؤكد أن دماء المسلمين محظورة لا تستباح إلا بيقين ولا يقين مع الاختلاف .

وروى عن الشافعي : لا يقتل الساحر إلا أن يقتل بسحره ويقول تعمدت القتل ، وإن قال لم أتعمد لم يقتل وكانت فيه الدية كقتل الخطأ ، وإن أضر به أدِّب على قدر الضرر .

واحتج أصحاب مالك : بأنه لا تقبل توبته لأن السحر باطن لا يظهره صاحبه فلا تعرف توبته كالزنديق ، واختلفوا هل يسأل الساحر حول السحر عن المسحور فأجازه سعيد بن المسيب على ما ذكره البخاري ، وكرهه الحسن البصري . وقال الشافعي : لا بأس بالنشرة .. قال ابن بطال : وفي كتاب وهب ابن منبه أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ عليه آية الكرسي ثم يحسو منه ثلاث حسوات ويغتسل فإنه يذهب عنه كل ما به إن شاء الله تعالى ، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله .

وقد أنكر المعتزلة الشياطين والجن ولكن الشرع نص على ثبوته . وسورة الجن تقضى بذلك ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .. والسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم ودقة أفهامهم وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء وخاصة فى حال طمثهن .

الكهانة [١٤]

وأما الكهانة فهى أيضاً من خواص النفس الإنسانية ، وذلك أنه قد تقدم لنا فى جميع ما مر أن للنفس الإنسانية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التى فوقها ، وأنه يحصل من ذلك لمحة للبشر فى صنف الأنبياء بما فطروا عليه من ذلك ، وتقرر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشىء من المدارك ولا من التصورات ولا من الأفعال البدنية كلاماً أو حركة ولا بأمر من الأمور ، إنما هو انسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة فى لحظة أقرب من لمح البصر ، وإذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد موجوداً فى الطبيعة البشرية ، فيعطى التقسيم العقلى أن هنا صنفاً آخر من البشر ناقصاً عن رتبة الصنف الأول نقصان الضد عن ضده الكامل ، لأن عدم الاستعانة فى ذلك الإدراك ضد الاستعانة فيه وشتان ما بينهما ، فإذا أعطى تقسيم الوجود أن هنا صنفاً آخر من البشر مفطوراً على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالإرادة عندما يبعثها النزوع لذلك ، وهى ناقصة عنه بالجبلة ، فيكون لها بالجبلة عندما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة ، كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام ، وما سنح من طير أو حيوان فيستديم

(١٤) مقدمة ابن خلدون .

ذلك الإحساس أو التخيل مستعيناً به فى ذلك الانسلاخ الذى يقصده ، ويكون كالمشيع له وهذه القوة التى فيهم مبدأ لذلك الإدراك هى الكهانة ، ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان إدراكها فى الجزئيات أكثر من الكليات ، ولذلك تكون المخيلة فيهم فى غاية القوة لأنها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذاً تامًّا فى نوم أو يقظة ، وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها المخيلة وتكون لها كالمرآة تنظر فيها دائماً ، ولا يقوى الكاهن على الكمال فى إدراك المعقولات لأن وحيه من وحى الشيطان ، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذى فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواس ويقوى بعض الشىء على ذلك الاتصال الناقص فيهجس فى قلبه عن تلك الحركة والذى يشيعها من ذلك الأجنبى ما يقذفه على لسانه ، فربما صدق ووافق الحق وربما كذب لأنه يتمم نقصه بأمر أجنبى عن ذاته المدركة ومباين لها غير ملائم ، فيعرض له الصدق والكذب جميعا ولا يكون موثوقاً به ، وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصاً على الظفر بالإدراك بزعمه ، وتمويهاً على السائلين ، وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان ، لأنهم أرفع سائر أصنافهم . وقد قال ﷺ فى مثله هذا من سجع الكهان فجعل السجع مختصا بهم بمقتضى الإضافة ، وقد قال لابن صياد حين سأله كاشفاً عن حاله بالاختبار كيف يأتيك هذا الأمر ؟ قال : يأتينى صادقا وكاذبا . فقال خلط عليك الأمر ، يعنى أن النبوة خاصتها الصدق ، فلا يعتريها الكذب بحال لأنها اتصال من ذات النبى بالملأ الأعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبى ، والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه إلى الاستعانة بالتصورات الأجنبية كانت داخلة فى إدراكه والتبست بالإدراك الذى توجه إليه فصار مختلطاً بها وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع أن تكون نبوة وإنما قلنا إن أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لأن معنى

السجع أخف من سائر المُغيَّبات من المرئيات والمسموعات ، وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والإدراك والبعد فيه عن العجز بعض الشىء ، (وقد زعم) بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدى البعثة ، وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع فى القرآن ، والكهان إنما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ، ولا يقوم من ذلك دليل لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضاً كما قررناه أيضاً . فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا مما سوى ذلك ، وأيضا فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدى النبوة فقط ، ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه ، وهذا هو الظاهر لأن هذه المدارك كلها تخمد فى زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس لأن النبوة هى النور الأعظم الذى يخفى معه كل نور ويذهب ، وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدى النبوة ثم تنقطع ، وهكذا مع كل نبوة وقعت لأن وجود النبوة لابدّ له من وضع فلكى يقتضيه وفى تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التى دل عليها ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضى وجود طبيعة من ذلك النوع الذى يقتضيه وهو معنى الكاهن على ما قررناه ، فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضى وجود الكاهن إما واحداً أو متعدداً ، فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبى بكماله وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة ، فلا يوجد منها شىء بعد (وهذا بناه) على أن بعض الوضع الفلكى يقتضى بعض أثره وهو غير مسلم فلعل الوضع إنما يقتضى ذلك الأثر بهيئته الخاصة ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضى شيئا لا أنه يقتضى ذلك الأثر ناقصاً كما قالوه ، ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق

النبى ودلالة معجزته ، لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة كما لكل إنسان من أمر النوم ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد مما للنائم ، ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم فى التكذيب إلا قوة المطامع فى أنها نبوة فيقعون فى العناد كما وقع لأمية بن أبى الصلت فإنه كان يطمع أن يتنبأ وكذا وقع لابن صياد ولمسيلمة وغيرهم ، فإذا غلب الإيمان وانقطعت تلك الأمانى آمنوا أحسن إيمان ، كما وقع لطليحة الأسدى وسواد بن قارب وكان لهما فى الفتوحات الإسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الإيمان .

العرافون [١٥]

ثم إنا نجد فى النوع الإنسانى أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم ، يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون فى ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها إنما نجد مداركهم فى ذلك بمقتضى فطرتهم التى فطروا عليها ، وذلك مثل العرافين والناظرين فى الأجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء والناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها ، وأهل الزجر فى الطير والسباع وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى ، وهذه كلها موجودة فى عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدها ولا إنكارها وكذلك المجانين يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها ، وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب وكذلك أهل الرياضات من المتصوفة لهم مدارك فى الغيب على سبيل الكرامة معروفة . ونحن الآن نتكلم على هذه الإدراكات كلها واحدة واحدة إلى آخرها ونقدم على ذلك مقدمة، فى أن

---

(١٥) مقدمة ابن خلدون .

النفس الإنسانية كيف تستعد لإدراك الغيب فى جميع الأصناف التى ذكرناها، وذلك أنها ذات روحانية، موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات، كما ذكرناه قبل، وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن وأحواله ، وهذا أمر مدرك لكل أحد وكل ما بالقوة فله مادة وصورة ، وصورة هذه النفس التى بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقل ، فهى توجد أولا بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والجزئية ، ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بورود مدركاتها المحسوسة عليها وما تنتزع من تلك الإدراكات من المعانى الكلية . فتتعقل الصورة بعد أخرى حتى يحصل لها الإدراك والتعقل بالفعل فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهيولى ، والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة ولذلك نجد الصبى فى أول نشأته لا يقدر على الإدراك الذى لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرهما ، وذلك لأن صورتها التى هى عين ذاتها وهى الإدراك والتعقل لم يتم بعد بل لم يتم لها انتزاع الكليات ، ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك : إدراك بآلات الجسم تؤديه إليها المدارك البدنية.. وإدراك بذاتها من غير واسطة، وهى محجوبة عنه بالانغماس فى البدن والحواس وبشواغلها، لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت عليه أولا من الإدراك الجسمانى وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التى هى للإنسان على الإطلاق مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر ، مثل الكهانة أو بالرياضة مثل أهل الكشف من الصوفية فتلتفت حينئذ إلى الذوات التى فوقها من الملأ الأعلى لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال فى الوجود كما قررناه قبل ، وتلك الذوات روحانية وهى إدراك محض بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها كما مر ، فيتجلى فيها شىء من تلك الصورة تقتبس منها

علوماً وربما دفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفه فى القوالب المعتادة ثم يراجع الحس بما أدركت ، إما مجردا أو فى قوالبه فتخبر به ، هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الإدراك الغيبى ولنرجع إلى ما وعدنا به من بيان أصنافه (فأما) الناظرون فى الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان ، إلا أنهم أضعف رتبة فيه فى أصل خلقهم ، لأن الكاهن لا يحتاج فى رفع حجاب الحس إلى كثير معاناة وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها فى نوع واحد منها وأشرفها البصر فيعكف على المرئى البسيط حتى يبدو له مدركه الذى يخبر به عنه ، ربما يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو فى سطح المرآة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون فى سطح المرآة إلى أن يغيب عن البصر ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب ، كأنه غمام يتمثل فيه صور هى مداركهم فيشيرون إليهم بالمقصود لما يتوجهون إلى معرفته من نفى أو إثبات ، فيخبرون بذلك على نحو ما أدركوه، وأما المرآة وما يدرك فيها من الصور، فلا يدركونه فى تلك الحال وإنما ينشأ لهم بها هذا النوع الآخر من الإدراك ، وهو نفسانى ليس من إدراك البصر بل يتشكل به المدرك النفسانى للحس كما هو معروف ، ومثل ذلك ما يعرض للناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وللناظرين فى الماء والطساس وأمثال ذلك ، وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد ثم يخبر كما أدرك ، ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة فى الهواء تحكى لهم أحوال ما يتوجهون إلى إدراكه بالمثال والإشارة ، وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الأولين والعالم أبو الغرائب ، وأما الزجر فهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان والفكر فيه بعد مغيبة ، وهى قوة فى النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من

مرئى أو مسموع وتكون قوته المخيلة كما قدمناه قوية فيبعثها فى البحث مستعينا بما
رآه أو سمعه فيؤديه ذلك إلى إدراك ما كما تفعله القوة المتخيلة فى النوم وعند ركود
الحواس تتوسط بين المحسوس المرئى فى يقظته وتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا
وأما المجانين فنفوسهم الناطقة ضعيفة التعلق بالبدن لفساد أمزجتهم غالبا وضعف
الروح الحيوانى فيها فتكون نفسه غير مستغرقة فى الحواس ولا منغمسة فيها
بما شغلها فى نفسها من ألم النقص ومرضه وربما زاحمها على التعلق به روحانية
أخرى شيطانية تتشبث به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه التخبط فإذا
أصابه ذلك التخبط أما لفساد مزاجه من فساد فى ذاتها أو لمزاحمة من النفوس
الشيطانية فى تعلقه غاب عن حسه جملة فأدرك لمحة من عالم نفسه وانطبق فيها
بعض الصور وصرفها الخيال وربما نطق على لسانه فى تلك الحال من غير إرادة
النطق وإدراك هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق بالباطل لأنه لا يحصل لهم الاتصال
وإن فقدوا الحس إلا بعد الاستعانة بالتصورات الأجنبية كما قررناه ومن ذلك
يجىء الكذب فى هذه المدارك . وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الإدراك وليس
لهم ذلك الاتصال فيسلطون الفكر على الأمر الذى يتوجهون إليه ويأخذون فيه
بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك
ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة (هذا تحصيل هذه الأمور)
وقد تكلم عليها المسعودى فى مروج الذهب فما صادف تحقيقا ولا إصابة ويظهر
من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ فى المعارف فينقل ما سمع من أهله
ومن غير أهله وهذه الإدراكات التى ذكرناها موجودة كلها فى نوع البشر فقد
كان العرب يفزعون إلى الكهان فى تعرف الحوادث ويتنافرون إليهم فى
الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من إدراك غيبهم وفى كتب أهل الأدب كثير من
ذلك واشتهر منهم فى الجاهلية شق من أنمار بن نزار وسطيح بن مازن بن غسان

وكان فى العرب منهم كثير وذكروهم فى أشعارهم قال :

فقلت لعراف اليمامة داونى　　فانك إن داويتنى لطبيب

وقال الآخر :

جعلت لعراف اليمامة حكمة　　وعراف نجد إن هما شفيانى

فقالا شفاك الله والله مالنا　　بما حملت منك الضلوع يدان

وعراف اليمامة هو رباح بن عجلة وعراف نجد الأبلق الاسدى (ومن هذه المدارك الغيبية) ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتباسه بالنوم من الكلام على الشىء الذى يتشوف إليه بما يعطيه غيب ذلك الأمر كما يريد ولا يقع ذلك إلا فى مبادئ النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار فى الكلام فيتكلم كأنه مجبول على النطق وغايته أن يسمعه ويفهمه وكذلك يصدر عن المقتولين عند مفارقة رءوسهم وأوساط أبدانهم كلام بمثل ذلك ولقد بلغنا عن بعض الجبابرة الظالمين أنهم قتلوا من سجونهم أشخاصاً ليتعرفوا من كلامهم عند القتل عواقب أمورهم فى أنفسهم فأعلموهم بما يستبشع وذكر مسلمة فى كتاب الغاية له فى مثل ذلك أن آدمياً إذا جعل فى دن مملوء بدهن السمسم ومكث فيه أربعين يوماً يغذى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه إلا العروق وشئون رأسه فيخرج من ذلك الدهن ، فحين يجف عليه الهواء يجيب عن كل شىء يسأل عنه من عواقب الأمور الخاصة والعامة وهذا فعل من مناكير أفعال السحرة ، لكن يفهم منه عجائب العالم الإنسانى ، ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبى بالرياضة ، فيحاولون بالمجاهدة موتا صناعياً بإماتة جميع القوى البدنية ثم محو آثارها التى تلونت بها النفس ، ثم تغذيتها بالذكر لتزداد قوة فى نشئها ويحصل ذلك بجمع الفكر وكثرة الجوع ، ومن المعلوم على القطع أنه إذا نزل الموت بالبدن ذهب الحس وحجابه واطلعت النفس على ذاتها وعالمها فيحاولون ذلك

بالاكتساب ليقع لهم قبل الموت مايقع لهم بعده وتطلع النفس على المغيبات ، من هؤلاء أهل الرياضة السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على المغيبات والتصرفات في العوالم وأكثر هؤلاء فى الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالا خصوصاً بلاد الهند ويسمون هنالك الحوكية ولهم كتب فى كيفية هذه الرياضة كثيرة والأخبار عنهم فى ذلك غريبة .

المنجمون (١٦)

وقد يزعم بعض الناس أن هناك مدارك للغيب من دون غيبة عن الحس ، فنهم المنجمون القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها فى الفلك وآثارها فى العناصر وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر ، ويتأدى من ذلك المزاج إلى الهواء وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب فى شيء ، إنما هى ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثيرات النجومية ، وحصول المزاج منه للهواء مع مزيد من حدس يقف به الناظر على تفصيله فى الشخصيات فى العالم كما قاله بطليموس ، ونحن نبين بطلان ذلك فى محله إن شاء الله ، وهو لو ثبت فغايته حدس وتخمين وليس مما ذكرناه فى شيء ، ومن هؤلاء قوم من العامة اتخذوا استخراج الغيب وتعرف الكائنات صناعة سموها خط الرمل نسبة إلى المادة التى يضعون فيها عملهم ، ومحصول هذه الصناعة أنهم صيروا من النقط أشكالا ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها فى الزوجية والفردية واستوائها فيهما ، فكانت ستة عشر شكلا ، لأنها إن كانت أزواجا كلها أو أفراداً كلها فشكلان ، وإن كان الفرد فيهما فى مرتبة واحدة فقط فأربعة أشكال وإن كان الفرد فى مرتبتين فستة أشكال وإن كان فى ثلاث مراتب فأربعة أشكال جاءت

(١٦) مقدمة ابن خلدون .

ستة عشر شكلا ، ميزوها كلها بأسمائها وأنواعها إلى سعود ونحوس شأن الكواكب ، وجعلوا لها ستة عشر بيتاً طبيعية بزعمهم ، وكأنها البروج الاثنا عشر التى للفلك والأوتاد الأربعة وجعلوا لكل شكل منها بيتاً وخطوطاً ودلالة على صنف من موجودات عالم العناصر يختص به ، واستنبطوا من ذلك فنًّا حاذوا به فن النجامة ونوع قضائه ، إلا أن أحكام النجامة مستندة إلى أوضاع طبيعية كما زعم بطليموس ، وهذه إنما مستندها أوضاع تحكمية وأهواء اتفاقية ولا دليل يقوم على شيء منها ، ويزعمون أن أصل ذلك من النبوات القديمة فى العالم ، وربما نسبوها إلى دانيال أو إلى إدريس صلوات الله عليهما شأن الصنائع كلها ، وربما يدعون مشروعيتها ويحتجون بقوله ﷺ كان نبيا يخط فمن وافق خطه فذاك ، وليس فى الحديث كان نبى يخط فيأتيه الوحى عند ذلك الخط ولا استحالة فى أن يكون ذلك عادة لبعض الأنبياء فمن وافق خطه ذلك النبى فهو ذاك أى فهو صحيح من بين الخط بما عضده من الوحى لذلك النبى الذى كانت عادته أن يأتيه الوحى عند الخط وأما إذا أخذ ذلك من الخط مجرداً من غير موافقة وحى فلا وهذا معنى الحديث والله أعلم . فإذا أرادوا استخراج مغيب بزعمهم عمدوا إلى قرطاس أو رمل أو دقيق فوضعوا النقط سطوراً على عدد المراتب ٢الأربعة ، ثم كرروا ذلك أربعً مرات فتجيء ستة عشر سطراً ، ثم يطرحون النقط أزواجاً ويضعون ما بقى من كل سطر زوجاً كان أو فرداً فى مرتبته على الترتيب فتجيء أربعة أشكال يضعونها فى سطر متتالية ثم يولدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قابلها من الشكل الذى بإزائه وما يجتمع منهما من زوج أو فرد ، فتكون ثمانية أشكال موضوعة فى سطر ، ثم يولدون من كل شكلين شكلا تحتهما باعتبار ما يجتمع فى كل مرتبة من مراتب الشكلين أيضاً من زوج أو فرد فتكون أربعة أخرى تحتها ، ثم يولدون

من الأربعة شكلين كذلك تحتها ، ثم من الشكلين شكلا كذلك تحتهما ، ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الأول شكلا يكون آخر الستة عشر ، ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعودة والنحوسة بالذات والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك تحكماً غريباً ، وكثرت هذه الصناعة فى العمران ووضعت فيها التآليف واشتهر فيها الأعلام من المتقدمين والمتأخرين ، وهى كما رأيت تحكم وهوى ، والتحقيق الذى ينبغى أن يكون نصب فكرك أن الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل إلى تعرفها إلا للخواص من البشر المفطورين على الرجوع عن عالم الحس إلى عالم الروح ، ولذلك يسمى المنجمون هذا الصنف كلهم بالزهريين نسبة إلى ما تقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم فى أصل مواليدهم على إدراك الغيب فالخط وغيره من هذه إن كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصية وقصد بهذه الأمور التى ينظر فيها من النقط أو العظام أو غيرها إشغال الحس لترجع النفس إلى عالم الروحانيات لحظة ما ، فهو من باب الطرق بالحصى والنظر فى قلوب الحيوانات والمرايا الشفافة ، كما ذكرناه ، وإن لم يكن كذلك وإنما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وأنها تفيده ذلك فهذر من القول والعمل ، والله يهدى من يشاء ، والعلامة لهذه الفطرة التى فطر عليها أهل هذا الإدراك الغيبى أنهم عند توجههم إلى تعرف الكائنات يعتريهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالتثاؤب والتمطط ومبادئ الغيبة عن الحس ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجودها فيهم فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من إدراك الغيب فى شىء وإنما هو ساع فى تنفيذ كذبه .

حساب الحروف وعلم اليازرجة[17]

ومنهم طوائف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الأول الذى هو من مدارك النفس الروحانية ، ولا من الحدس المبنى على تأثيرات النجوم كما زعمه بطليموس ولا من الظن والتخمين الذى يحاول عليه العرافون ، وإنما هى مغالط يجعلونها كالمصايد لأهل العقول المستضعفة ، ولست أذكر من ذلك إلا ما ذكره المصنفون وولع به الخواص ، فمن تلك القوانين الحساب الذى يسمونه حساب النيم وهو مذكور فى آخر كتاب السياسة المنسوب لأرسطو يعرف به الغالب من المغلوب فى المتحاربين من الملوك ، وهو أن تحسب الحروف التى فى اسم أحدهما بحساب الجمل المصطلح عليه فى حروف أبجد من الواحد إلى الألف آحاد أو عشرات ومئين وألوفا ، فإذا حسبت الاسم وتحصل لك منه عدد فاحسب اسم الآخر كذلك ، ثم اطرح كل واحد منهما تسعة تسعة واحفظ بقيّة هذا وبقية هذا ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين ، فإن كان العددان مختلفين فى الكمية وكانا معاً زوجين أو فردين معاً ، فصاحب الأقل منهما هو الغالب وإن كان أحدهما زوجاً والآخر فرداً ، فصاحب الأكثر هو الغالب وإن كانا متساويين فى الكمية وهما معاً زوجان ، فالمطلوب هو الغالب وإن كانا معاً فردين فالطالب هو الغالب .

ثم وضعوا لمعرفة ما بقى من الحروف بعد طرحها بتسعة قانوناً معروفاً عندهم فى طرح تسعة ، وذلك أنهم جمعوا الحروف الدالة على الواحد فى المراتب

(١٧) مقدمة ابن خلدون .

الأربع فكان منها كلمة رباعية وهى ايقش ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على اثنين فى المراتب وأسقطوا مرتبة الآلاف منها لأنها كانت آخر حروف أبجد ، فكان مجموع حروف الاثنين فى المراتب الثلاث ثلاثة حروف وهى بكر ، ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على ثلاثة فنشأت عنها كلمة جلس وكذلك إلى آخر حروف أبجد ، وصارت تسع كلمات نهاية عدد الآحاد وهى أيقس بكر جلس دمت هنث وصح زعذ حفظ طصغ مرتبة على توالى الأعداد ، ولكل كلمة منها عددها الذى هى فى مرتبته ، فالواحد لكلمة أيقش ، والاثنان لكلمة بكر ، والثلاثة لكلمة جلس وكذلك إلى التاسعة التى هى طصغ ، فتكون لها التسعة ، فإذا أرادوا طرح الاسم بتسعة نظروا كل حرف منه فى أى كلمة هو من هذه الكلمات وأخذوا عددها مكانه ثم جمعوا الأعداد التى يأخذونها بدلا من فروق الاسم ، فإن كانت زائدة على التسعة أخذوا ما فصل عنها وإلا أخذوه كما هو ، ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخر وينظرون بين الخارجين بما قدمناه ، والسر فى هذا القانون بين ، وذلك أن الباقى من كل عقد من عقود الأعداد يطرح تسعة إنما هو واحد ، فكأنه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة ، فصارت أعداد العقود كأنها آحاد فلا فرق بين الاثنين والعشرين والمائتين والألفين وكلها اثنان ، وكذلك الثلاثة والثلثمائة الآلاف كلها ثلاثة ثلاثة ، فوضعت الأعداد على التوالى دالة على أعداد العقود لا غير ، وجعلت الحروف الدالة على أصناف العقود فى كل كلمة من الآحاد والعشرات والمئين والألوف[١٨] وصار عدد الكلمة الموضوع عليها نائباً عن كل حرف فيها سواء دل على الآحاد أو العشرات أو المئين ، فيؤخذ عدد كل كلمة عوضاً من الحروف التى فيها وتجمع كلها إلى آخرها كما قلناه ، هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الأمر القديم ، وكان بعض من

(١٨) قوله والألوف فيه نظر لأن الحروف ليس فيها ما يزيد على الألف كما سبق فى كلامه .

لقيناه من شيوخنا يرى أن الصحيح فيها كلمات أخرى تسعة مكان هذه ومتوالية كتواليها ، ويفعلون بها فى الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالأخرى سواء ، وهى هذه : ارب يسقك جزلط مدوص هف تحذن عش خغ ثضنط تسع كلمات على توالى العدد ولكل كلمة منها عددها الذى فى مرتبته فيها الثلاثى والرباعى والثنائى وليست جارية على أصل مطرد كما تراه ، لكن كان شيوخنا ينقلونها عن شيخ المغرب فى هذه المعارف من السيميا وأسرار الحروف والنجامة وهو أبو العباس ابن البناء ، ويقولون عنه إن العمل بهذه الكلمات فى طرح حساب النيم أصح من العمل بكلمات ايقس اعلم كيف ذلك ، وهذه كلها مدارك للغيب غير مستندة إلى برهان ولا تحقيق ، والكتاب الذى وجد فيه حساب النيم غير معزو إلى أرسطو عند المحققين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان ، يشهد لك بذلك تصفحه إن كنت من أهل الرسوخ ا هـ ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب فيما يزعمون الزايرجة المسماة بزايرجة العالم المعزوة إلى أبى العباس سيدى أحمد السبتى من أعلام المتصوفة بالمغرب كان فى آخر المائة السادسة بمراكش ، ولعهد أبى يعقوب المنصور من ملوك الموحدين ، هى غريبة العمل صناعة ، وكثير من الخواص يولعون بإفادة الغيب منها بعملها المعروف الملغوز ، فيحرضون بذلك على حل رمز وكشف غامضه وصورتها التى يقع العمل عندهم فيها دائرة عظيمة فى داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر والمكونات والروحانيات وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم ، وكل دائرة مقسومة بأقسام فلكها ، أما البروج وأما العناصر أو غيرهما وخطوط كل قسم مارة إلى المراكز ويسمونها الأوتار ، وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة ، فمنها برشوم[١٩] الغبار المتعارفة فى داخل الزايرجة وبين الدوائر أسماء العلوم

(١٩) قوله برشوم أى موضوعة بضم الراء جمع رشم بالشين المعجمة ا هـ.

ومواضع الأكوان وعلى ظاهر الدوائر جدول متكثر البيوت المتقاطعة طولا وعرضاً يشتمل على خمسة وخمسين بيتاً فى العرض ومائة واحد وثلاثين فى الطول جوانب منه معمورة البيوت تارة بالعدد وأخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت ولا تعلم نسبة تلك الأعداد فى أوضاعها ولا القسمة التى عينت البيوت العامرة من الخالية وحفا فى الزايرجة أبيات من عروض الطويل على روى اللام المنصوبة تتضمن صورة العمل فى استخراج المطلوب من تلك الزايرجة ، إلا إنها من قبيل الألغاز فى عدم الوضوح والجلاء ، وفى بعض جوانب الزابرجة بيت من الشعر منسوب لبعض أكابر أهل الحدثان بالمغرب وهو مالك بن وهيب من علماء إشبيلية كان فى الدولة اللمتونية ونص البيت .

سؤال عظيم الخلق حرت فصن إذن غرائب شك ضبطه الجد مثلا

وهو البيت المتداول عندهم فى العمل لاستخراج الجواب من السؤال فى هذه الزايرجة .

الحســـد

هل هو ظاهرة روحية ؟ وتفسيره فى تفاسير القرآن وكلمة العلم الحديث

وردت كلمة الحسد فى القرآن خمس مرات حيث يقول تعالى :

(ومن شر حاسد إذا حسد) آية ٥ من سورة الفلق (حاسد – حسد)

(فسيقولون بل تحسدوننا) آية ١٥ من سورة الفتح .

(أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) آية ٥٤ من سورة النساء .

(ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من

عند أنفسهم) آية ١٠٩ / البقرة

كان الرسول ﷺ يتعوذ بالمعوذتين ويحض أصحابه قائلا .. فما تعوذ متعوذ بمثلها . وروى النسائى عن عبد الله قال : أصابنا طش وظلمة .. فخرج رسول الله ﷺ ليصلى بنا فقال قل . فقلت ما أقول ؟ قال : قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاثاً يكفك كل شىء » . وفى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة (رضى الله عنها) أن النبى ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها . (ينفث أى ينفخ ليس معه ريق) .

وثبت فى الصحيحين من حديث عائشة (رضى الله عنها) أن النبى ﷺ سحره يهودى من يهود بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم ، حتى كان يخيل إليه أنه كان يفعل الشىء ولا يفعله ، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم قال : يا عائشة أشعرت أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه ، أتانى ملكان فجلس أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى فقال : (الذى عند رأسى للذى عند رجلى) ما شأن الرجل ؟ قال مطبوب (مسحور) قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد ابن الأعصم قال : فيما ذا ؟ قال فى مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر تحت راعوفة بئر ذى أروان ، فجاء البئر واستخرجه . انتهى الصحيح .

ثم بعث علياً والزبير وعمار بن ياسر فأخرجوا الجف من البئر ، فإذا مشاقة رأس إنسان وأسنان من مشط وإذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر ، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العقد . وأمر أن يتعوذ بهما ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد النبى ﷺ خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة ، فكأنما أنشط من عقال وقام ليس به بأس ، وجعل جبريل يرقى رسول الله ﷺ فيقول : باسم الله أرقيك من كل شىء

يؤذيك ومن شر حاسد وعين والله يشفيك . فقالوا : يا رسول الله ألا نقتل الخبيث . فقال ﷺ : أما أنا فقد شفانى الله وأكره أن أثير على الناس شرًّا ..

والحسد هو تمنى زوال نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها وأما المنافسة وهى الغبطة هى تمنى مثلها وإن لم تزل . فالحسد مذموم والغبطة مباحة . وروى أن النبى ﷺ قال : « المؤمن يغبط والمنافق يحسد » وقال ﷺ : « إذا حسدت فلا تبغ » والحسد أول ذنب عصى به الله فى السماء حين حسد إبليس آدم ، وأول ذنب عصى به الله فى الأرض حين حسد قابيل هابيل .

والحاسد عدو نعمة الله . قال بعض الحكماء بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه .

أحدها : أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره .

ثانيها : أنه ساخط لقسمة ربه كأنه يقول : لم قسمت هذه القسمة ؟

وثالثها : أنه ضاد فعل الله أى بخل بفضل الله .

ورابعها : أنه خذل أولياء الله بتمنّيه زوال النعمة عنهم .

وخامسها : أنه أعان بحسده عدوه إبليس .

وروى أن النبى ﷺ قال : ثلاث لا يستجاب دعاؤهم : آكل الحرام ، ومكثر الغيبة ، ومن كان فى قلبه غل أو حسد للمسلمين » .

والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . قال الحسن : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد . وقال عبد الله بن مسعود : لا تعادوا نعم الله . قيل له : ومن يعادى نعم الله ؟ قال : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله .

وجاء فى صحيح الحديث قول الرسول ﷺ : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو

ينفقه فى سبيل الله آناء الليل وآناء النهار».

ونود أن نشير هنا إلى بعض المعاصرين من أبناء هذا الجيل ، برغم ما سبق ذكره من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة ، الذين لا يؤمنون بالحسد اعتقاداً منهم أنه خرافة ، ولكن العلم الحديث قد أيد صحة ظاهرة الحسد . والروحية الحديثة[٢٠] تؤكد أن الحاسد شخص يمتلك قوى غامضة فى مكنته أن يستخدمها فى الخير أو الشر على السواء ، وكلما كان استخدامه لها فى الشر نمت لديه تلك القوى المدمرة وازداد أثرها . ومع ذلك فإن الحاسد سرعان ما يشيد حوله أسوارا من قواه الروحية بحيث يضعف من آثار النظر الشرير ، وييسر من شرها حتى دون علم من المحسود نفسه . شأنها فى ذلك شأن كرات الدم الحمراء التى تثور إذا ما غزا الجسم بكتريا معدية فتهاجمها حتى تقضى عليها أو تهلك دونها . ويروى الرواة حالات كثيرة يرى فيها أثر الحاسدين واضحاً جليًّا ولكن الملاحظ أن قوى الجسد الشريرة إذا أطلقت من عقالها كثيراً ما تعود على الحاسدين أنفسهم كالقذائف ترتد إلى مطلقيها .

ولقد خطب الدكتور ران بجامعة كورتل فى مجمع تقدم العلوم الأمريكى بمدينة سيراكوز فقال : إنه قام بالتجارب العلمية الدقيقة فثبت له فيها أن العين البشرية إذا حدقت فى خلايا الخميرة فإن تلك الخلايا تتلف ، لأن أشعة خفية غير منظورة تنبعث منها وتؤثر فى الخلايا كما تنبعث الأشعة فوق البنفسجية من بعض المصادر وتؤثر فى النبات والإنسان والحيوان على وجه معلوم .

كما قام بعض علماء الغرب ببعض التجارب على نباتات تنمو فى أوعية ، بحيث يخصصون إناء معيناً ليحظى بعطف خاص وتمنيات طيبة من صاحبها ،

---

(٢٠) من مقال بعنوان (العين والحسد بقلم الأستاذ حسن عبد الوهاب – مجلة الروح مارس سنة ١٩٦٠ .

على حين يهمل الآخر. فوجد أن الإناء الأول ازدهر نباته وأينع وذبل الثانى وذوى. ولأمر ما قاله رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة وابن عباس « العين حق ولو كان شيئاً سابق القدر سبقته العين ».

كما روى الترمذى أنه عليه الصلاة والسلام كان يتعوذ من عين الإنسان، ولذلك قال العلامة ابن حجر: إن العين نظر باستحسان مشوب بحسد خبيث الطبع يحصل للمنظور فيه ضرر. وقال غيره من علماء الإسلام: إن الحسد جواهر لطيفة غير مرئية تنبعث من العائن فتتصل بالمعيون وتتخلل مسام جسمه فيخلق البارئ الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عن شرب السموم.

وقد شرح ابن حجر هذه العملية بتوسع فقال: إن الله قد أجرى العادة بوجود كثير من القوى والخواص فى الأجسام والأرواح كما يحدث لمن ينظر إليه من يحتشمه من الخجل، فيرى فى وجهه حمرة شديدة لم تكن قبل ذلك، وكذا الأصفر عند رؤية من يخاف وكثير من الناس يسقم بمجرد النظر إليه وتضعف قواه، وكل ذلك بواسطة ما يخلق الله تعالى فى الأرواح من التأثيرات ولشدة ارتباطها بالعين نسب الفعل إلى العين وليست هى المؤثرة وإنما التأثير للروح.

وربما بدت هذه الظاهرة واضحة فى صيد القط للفأر ولو كان فى مكان بعيد أصابه الشلل ووقف مكانه لا يبرح ويلعب به، فيقذفه ويتلقفه بالأخرى دون أن يستطيع حراكا تحت تأثير مغناطيسية نظراته.

يقول ابن القيم إن العائن والحاسد يشتركان فى أن كل واحد منهما تتكيف نفسه ويتوجه نحو من يريد إيتاءه فتؤثر فى المعيون.

كما قال الشيخ الشعرانى فى الجواهر والدرر أنه سأل شيخه أو تقتل الهمة من غير إحساس؟ فقال نعم يجمع صاحب الهمة همته ويحضر نفسه على من يريد تنفيذ همته فيه على وجه الحقارة به فيقتله من شدة ازدرائه للمقتول. بل لو جمع

همته على انتقال شيء من أجرام العالم والأرواح انتقل إليه كما أراد .

وقد أثبت علم « الراديستترية » أن الأجسام السليمة ينبعث منها أشعة مستقيمة لا عوج فيها ، وأنه فى حالة اعتلال الصحة تتقوس هذه الأشعة بحيث إذا جلس صحيح البدن بجوار المريض أثرت أشعة المريض المتقوسة على الأشعة المستقيمة للسليم بحيث تحنيها وتسبب له المرض ، ولذلك ينهى هذا العلم عن جلوس السليم بجوار المريض فترة طويلة ، كذلك مجالسة الفتى للمسن ، فإن الأشعة المتقوسة الصادرة من المسن تؤثر على أشعة الفتى المستقيمة ولعل فى هذا التفسير معنى واضحا للنهى عن زواج المسن بالفتاة الصغيرة أو المسنة بالشاب الصغير ، كما يبين أيضا أسباب العدوى بالمرض أى انتقال المرض من المريض إلى السليم .

ولقد أصبح للأشعة الحيوانية أو المغناطيسية الحيوانية كما يسمونها نظريات ثبت صحتها ، وأصبح لذوى الخبرة باستعمالها أفعال تبعث على الدهشة إذ قد تعرض بعض علماء الغرب لهذه النظريات بتوسع وقالوا : إن بعض المعالجين فى الشرق « الصوفيون المسلمون » يستطيعون أن ينقلوا الأمراض إلى غيرهم وهذا يبين مدى القوى الروحية التى يملكونها . وقال هؤلاء البحاث أن هؤلاء المعالجين عند رغبتهم فى أداء هذا العمل يفرغون عقولهم تفريغاً تاماً ثم يركزونها على تصور آلام المريض ، بحيث تنتج ظروفاً مماثلة لما يشكو منه المريض نفسه ثم يسحبون المرض خلال الأشعة المنبعثة من جسم المريض حيث يوجهونها كيف شاءوا .

روى أحمد فى مسنده أن النبى ﷺ خرج ومعه نفر نحو ماء حتى إذا كانوا بشعب الخزار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف وكان أبيض حسن الجلد والجسم ، فنظر إليه عامر بن ربيعة فقال : ما رأيت كاليوم ، ولا جلد عذراء

فوعك سهل مكانه واشتد وعكه فأتى الرسول عليه السلام . فقال : هل تتهمون به من أحد ؟ قالوا عامر بن ربيعة فدعاه وتيقظ عليه : وقال علام يقتل أحدكم أخاه هلا إذا رأيت ما يعجبك دعوت له بالبركة .

وقال القرطبى « لو أتلف العائن شيئاً ضمنه ولو قتل فعليه الدية أو القصاص »

ونقل ابن بطال عن بعض أهل العلم أنه ينبغى للإمام منع العائن من مداخلة الناس وأن يلزم بيته ، فإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذى أمر عمر بمنعه من مخالطة الناس ومن الثوم الذى منع الشارع آكله من حضور الجماعة .

ونحن[21] نعتقد بصحة كل ما جاء به القرآن وورد فى السنة ونترك العلم باجتهاداته ليؤكد صحة اعتقادنا به بعد ألف وأربعمائة عام من الاجتهاد الدءوب فى تفسير التنزيل الحكيم ، فإذا اتفق العلماء مع الدين أصابوا .. وإن أخطأوا فمن قصور نظرياتهم .

التنويم[22]

لقد أعطى جيمس بريد اسم التنويم Hyqnosis لعملية التنويم عام ١٨٤١ مع أنه سبق فى استعمال الطريقة وفى وصفها . ومنذ إعطاء التسمية قام الكثيرون باللجوء إلى فن التنويم لأغراض علاجية وتشخيصية ومسرحية ، على أن استعمالها فى الأوساط الطبية ظل محدوداً لا ينال إلا القليل من التشجيع بسبب ما اتصل

(٢١) المؤلفان .

(٢٢) النفس — د / على كمال — الدار الشرقية للطباعة والنشر — بيروت ١٩٦٧ — الطبعة الأولى .

باسم التنويم المغناطيسى من صفة سحرية ، وبسبب عدم التوصل إلى تفسير علمى لمظاهر عملية التنويم .

وفى السنوات الأخيرة أجازت الهيئات الطبية المختصة فى بريطانيا إمكانية استعمال التنويم للأغراض الطبية ، وأيدت فائدة التنويم فى تشخيص وعلاج بعض الحالات المرضية . على أن الأساس العلمى للتنويم من الناحية الفيزيولوجية العصبية ما زال بعيداً عن التقرير القاطع ، وكل ما نعلمه أن عملية التنويم تتم عن طريق الإيحاء المباشر ، يقوم به الشخص الذى يوحى على الشخص الذى يوحى إليه ، ويكون هذا الأخير قابلا للتأثر بالإيحاء وفى ظروف ملائمة لعملية الإيحاء . ونتيجة هذا التأثير الإيحائى تحدث فى الشخص حالة من تصدع الوعى تشبه حالة البحران . وفى هذه الحالة ينحصر انتباه الشخص الخاضع للتنويم بالشخص الذى نومه ، ويطيع أوامره طاعة سلبية إلا فى الأمور التى تناقض مثله وضميره ، ويمكن بواسطة عملية التنويم إحداث حالات من النسيان والتذكر والشلل الحركى ، وفقدان الأحاسيس ، والنكوص أو الرجوع إلى مظاهر سلوكية وعاطفية وفكرية اتصف بها الفرد فى سنوات سابقة من حياته وطفولته .

العلاج النفسى بالإيحاء والتنويم

معظم الوسائل العلاجية من مادية وغير مادية تحمل تأثيراً إيحائياً نفسياً ، وهناك قابليات مختلفة لتقبل الإيحاء عند المرضى، بما فى ذلك التباين فى أسلوب الإيحاء المناسب للحالة المرضية الواحدة كما أن عملية الإيحاء بحدودها وأساليبها المختلفة تعتمد على الجو الذى يحدث فيه الإيحاء كما تعتمد على شخصية الطبيب

الذى يقوم بهذه العملية الإيحائية .

ولعملية التنويم فوائد متعددة فيما إذا طبقت بحذر وفى الحالات الملائمة لتطبيقها ، وأكثر فوائد التنويم تأثيره فى الحالات المرضية الهستيرية ، كما تأكدت فائدته فى علاج بعض الأمراض النفسية الجسمية كمرض الربو .

وقد تستعمل مواد عقاقيرية لتغيير درجة وعى المريض ولتسهيل إظهار بعض الذكريات غير الواعية أو لتشجيع المريض على البوح ببعض الأفكار أو العواطف المزعجة ، والتى لا يستطيع الإفضاء بها بصراحة وحرية فى الأحوال الاعتيادية . ومن هذه العقاقير حقن فى الدم أو بعض مواد كحولية مخدرة ، فإذا تناولها المريض حدث ما يسمى بالتنفيس لما فى نفسه من ضيق عاطفى مكبوت .

خاتمة الكتـــاب

ما هى الروح ؟[٢٣]

شىء مبهم غامض ليس له حدود . وهذا الإبهام فى طبيعة الروح والغموض الذى يحيط بها والعجز عن إدراك كنهها هو الذى أغرى الماديين فى العصور الحديثة أن يهملوها إهمالا ويسقطوها من الحساب .

إذ كل ما لا تراه الحواس – فى نظرهم – غير موجود .. والروح لا ترى بالحواس فهى إذًا شىء ليس له وجود .

ولكن **الدوس هكسلى** يرد عليهم فى هذا الأمر– برغم أنه لا يؤمن بالدين – فيذكرهم بحقيقة ينسونها وهم يجادلون : (إنه ليس لنا مناص من الاعتراف بأن بعض البشر مزود بالقدرة على استشفاف المجهول بطريقة خارجة عن نطاق الحواس . وإن جهلنا بالطريقة التى يتم بها هذا الاستشفاف لا يبرر إنكارنا له .. فإنه لا يزيد على جهلنا بالطريقة التى تتم بها عملية الإدراك وعملية التذكر . من منا يستطيع أن يعرف كيف تتم معجزة الإدراك ؟ أو التذكر ؟ وكذلك نحن لا نعلم كيف يتم الاستشفاف ولكنه ، برغم ذلك حقيقة علمية) .

إن الدوس هكسلى لايسير معنا الطريق كله ولكنه يسير نصف الطريق، فهو يقرر أن هناك طاقة مجهولة فى الإنسان يقدر بها على الاستشفاف ويقرر كذلك أن جهلنا لكنه هذه الطاقة لا يعنى أنها غير موجودة فى الواقع . . فهى موجودة برغم هذا الجهل .. وهى حقيقة علمية .. وأهم من ذلك أنه يقرر أننا اعترفنا

---

(٢٣) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب الطبعة الثانية – دار القلم .

من قبل بوجود طاقات بشرية أخرى برغم أننا نجهل كنهها تمام الجهل كعملية الإدراك وعملية التذكر .. وذلك نصف الطريق .. فهكسلى يقصر هذه القدرة على الاستشفاف ثم يقصرها على (بعض) الناس فقط ولا يجعلها طاقة (بشرية) أصيلة .

ولكن حين ينظر الإنسان إلى الاتجاه المادى الغارق فى المادية الذى يسيطر على تفكير الغرب ومشاعره يجد أن هذا الاعتراف من رجل لا يؤمن بالعقيدة .. يعد فى الواقع تقدماً كبيراً نحو الفهم الصحيح للإنسان الفهم الذى قررته العقيدة منذ أقدم الأزمان ..

فالروح طاقة مجهولة .. مبهمة .. غامضة .. محجوبة عن الإدراك .. ومع ذلك فهى حقيقة وإذا كنا نظن أن عملية الإدراك أو عملية التذكر عملية (محسوسة) ومن أجل ذلك نؤمن بوجودها الواقعى فنحن مخطئون فى هذا الظن فهى فى الحقيقة ليست محسوسة فى ذاتها وإنما نحن ندرك نتائجها .. ووضوح الإحساس بنتائجها هو الذى أغرانا بذلك الظن الخاطئ كما أنه هو الذى أدخل فى وهمنا أننا (نعرف) كيف يتم الإدراك وكيف يتم التذكر .. أما الحقيقة فهى أننا لا نعرف كنه هذه العملية ولا تلك ونكتفى منهما بالنتائج التى تدركها الحواس .. ولو تدبرنا الأمر لوجدنا الطاقة الروحية كذلك .. إنها مجهولة فى كنهها مبهمة غامضة محجوبة عن الإدراك ولكن نتائجها ليست مجهولة ولا محجوبة عن الإدراك ..

ونحن لو حاولنا أن نعرف عملية التذكر فلن نجد إلا لفظة واحدة نشرحها بها ، سنقول إنها عملية التذكر ولو حاولنا أن نعرف عملية الإدراك فلن نجد إلا اللفظة ذاتها أو ما يرادفها وسنقول إنها عملية الإدراك . ولكننا سنقول عن

الروح : إنها الطاقة التى يتصل بها الإنسان بالمجهول بالغيب المحجوب عن الحواس .

(الاستشفاف) عملية من عمليات الروح .

و (الحلم التنبؤى) عملية من عمليات الروح .

والتخاطر عن بعد (التليباثى) عملية من عمليات الروح . (كحادثة عمر الشهيرة مع سارية) ..

وهى كلها عمليات جليلة عظيمة باهرة معجزة .. يقف الإنسان حائراً أمامها مبهوتاً من العجب والإعجاب ولكنها مع ذلك عمليات جانبية .. إنما الوظيفة الكبرى للروح هى الاتصال بالله . كيف يتم هذا الاتصال ؟ كيف يتم التليباثى والاستشفاف التنبؤى ؟ لا ندرى . كما أننا لا ندرى كيف يتم الإدراك والتذكر ولكنه يتم على أى حال .

الروح : تلك الطاقة المجهولة التى لا نعرف كنهها ولا طريقة عملها .. هى وسيلتنا للاتصال بالله .. وهى مهتدية إلى الله بفطرتها .. إنها من روح الله التى أودعها قبضة الطين . (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) ومن ثم فهى بذاتها تهتدى إلى خالقها وتتصل به على طريقتها .. (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) تهتدى إليه كما يهتدى كل شىء من خلق الله بعظمته دون كد ولا تعب ولا جهد فى الاهتداء .. (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) كل ما فى الأمر أن الله قد كرم هذا المخلوق البشرى : (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) ومن آيات هذا التكريم أن جعل للإنسان فؤادا واعياً : (وجعل لكم

السمع والأبصار والأفئدة) فجعل عملية الهدى عملية واعية يشترك فيها الفؤاد البصير ، فتفترق بذلك عن الطاعة التى يمارسها الجماد والنبات والحيوان .

ومع ذلك فالإنسان يضل .. يضل حين تنحرف فطرته ويصيبها المرض .. يضل فلا يهتدى إلى الله ولا يصل بروحه إليه .. ولا يستمد منه .. ولا يلجأ إلى حماه ..

على أنه حتى حين يضل « حين تتغبش روحه فلا تستطيع أن تشف .. حين يغشيها ركام الشهوات فيحجب عنها النور .. حتى حينئذ تظل بقية من الفطرة – برغم ضلالها تتجه إلى خالقها .. كما تتجه العين الكليلة إلى الضوء .. لا تراه كله ولكنها لا تعمى عنه .. فيعبد الناس الله .. ويشركون به غيره من الكائنات (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) .. (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ، (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله) أويعبدون قوة – ما يزعمون أنها الله) ولكنهم فيما عدا الشذوذ الذى لا يجب له حساب – لا ينكرون وجود خالق لهذا الكون قوى مسيطر مريد .. ومهمة العقيدة هى مساندة الفطرة وتوجيهها وجهتها .. مهمتها أن تساعد الفطرة فى الاهتداء إلى الله .. الاهتداء الذى هو كامن فى كيانها ولو حجبتها عنه الأمراض .. مهمتها أن تطلق الروح من إسارها .. لكى ترى الله .. والاسلام يعنى عناية خاصة بالروح .

إنها فى نظره مركز الكيان البشرى ونقطة ارتكازه .. إنها القاعدة التى يستند إليها الكيان كله ويترابط عن طريقها .. إنها المهيمن الأكبر على حياة الإنسان .. إنها الموجه إلى النور .. يكفى أنها صلة الإنسان بالله .

فالحق أن الطاقة الروحية فى الإنسان هى أكبر طاقاته وأعظمها وأشدها

اتصالا بحقائق الوجود .

فطاقة الجسم : محدودة بكيانه المادى وبما تدركه الحواس .

وطاقة العقل : أكثر طلاقة ولكنها محدودة بما يعقل .. محدودة بالزمان والمكان .. بالبدء والنهاية ومحكومة بالفناء .

ولكن طاقة الروح : وحدها – فى كيان الإنسان هى التى لا تعرف الحدود والقيود – لا تعرف الزمان والمكان . لا تعرف البدء والنهاية .. لا تعرف الفناء .. هى وحدها التى تملك الاتصال بما لا يدركه الحس ولا يدركه العقل . هى وحدها التى تملك الاتصال بالوجود كله من وراء حواجز الزمان والمكان .. كيف ؟ لا نعلم لكنا نحس .. نحس بإشراقة الروح الصافية التى تشمل الحياة كلها فى ومضة وتشمل الآباد والآماد ، . . نحس بسبحة الروح الطليقة التى تجوب آفاق الكون وتتصل بكل حى فيه .. والكون كما يقول العلم كله حياة .. نحس بتلك اللحظة الدقيقة العجيبة العظيمة الرائعة التى يرتعش فيها الكيان كله ويحس فى أعماقه أنه يرى الله .

وكان طبيعيًّا إذن أن تهتم العقائد كلها بأمر الروح .. وكان طبيعيًّا أيضاً أن يهتم الإسلام خاصة بهذه الطاقة .. وهو الذى جعل منهجه الاهتمام بالطاقات البشرية كلها وإعطاءها حقها من الرعاية والتوجيه .

وطريقة الإسلام فى تربية الروح هى أن يعقد صلة دائمة بينها وبين الله فى كل لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور .

والإسلام فى واقعيته الكاملة التى تحسب حساب الضعف البشرى لا يكف أبداً عن النفخ الدائم لإذكاء شعلة الروح ، لأن هذا هو الطريق الوحيد للرفعة وموازنة ما يهبط بالنفس من أثقال .. والطريق كما أسلفنا هو عقد الصلة الدائمة – عن طريق الروح – بين الله والإنسان حتى يصبح الإنسان جديراً

بعبوديته لله وحتى يكون من أصحاب النفوس المطمئنة .

(يأيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) .

« انتهى بحمد الله »

ويليه الكتاب الثالث

فى حقيقة النفس

رقم الإيداع		١٩٨٨ / ٢٥٧٧
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٤٣٣-٢	ISBN

١ / ٨٧ / ٣٧٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

في أجزاء ثلاثة ، جمع المؤلفان كل ما ورد عن قصة بدء الخلق من الكائنات الكلية قبل آدم ، وكيف وجد الإنسان في هذا العالم ، وما مراحل الخلق الأولى .

كما ناقشا نظرية دارون ، واقتصرا بعدئذ على ما ورد في القرآن الكريم فيما يختص بذلك الإنسان وذريته وأساليب حياته المختلفة ، ورأى علماء الإسلام في هذه الأساليب .

والكتاب بهذا مدخل عصري لبحث مسألة الإنسان المؤمن في حياتنا الحاضرة ، على ضوء من المبادئ الراسخة القويمة من المعتقدات ، وهو يفتح الطريق لمزيد من البحوث في هذا المجال .

ص
٥٠٠